رواية

مجنون دبي

ياسر أحمد



دار العين للنشر

مجنون دبي

رواية

ياسر أحمد

دار العين للنشر

تنويــه

كل ما ورد ذكره في هذه الرواية من أحداث وشخصيات وأسماء وأوصاف للمدن، هو محض خيال ولا يمت للواقع بصلة.
المجنون يكمن في كل فكرة قامت بتحويل الخيال إلى أشياء يصعب الشفاء منها.

إهـــداء

هذا الكتاب تم إهداؤه إلى الشخص الخفي الذي قام بأكبر تسريب وثائق في العصر الحديث.

1

كان علينا أن نلتقي في أغرب الأوقات. أحبتني ثم أمهلتني فرصة أخيرة قبل القضاء عليّ. وهكذا لم يكن هناك من مفر. أنا وحدي على الحافة الشاهقة والعالم على وشك أن يتداعى من تحت أقدامي.

تهديد أخير وصلني قبل قليل ولم يعد أمام المجنون من حيل باقية. يتكدس الزمن دفعة واحدة ويتبقى على تسليمي وقت قليل. ما إن تنشر كاميليا مالديها، حتى ينفتح السباق الكبير على اصطياد رأسي وبأي ثمن كان. هذا ليس أي رأس، إنه رأس المجنون.

في عالمي كل شيء وارد الحدوث، لا تراود خيالاتك ولا تسألني من أكون؟ لا أستطيع أن أقص عليك أنباء الأشياء التي لم أعد أفهمها. عقلي الآن مترقف والزمن يجول في كل الأمكنة ولا يعود بوصف مفهوم للأحداث.

العالم فرغ من حولي بينما بقيت أضواء المدينة تتطلع إليّ. تحدق في ناطحات السحاب العملاقة، والطرقات من أسفل تضوي بمتاهة سيارات مسرعة. زخم المدينة يجري في دمائي ويضربني في نسخ لانهائية مني. تطل على دبي المصنوعة من الخيال، مجسمات افتراضية لزمن ما، يحدق في وجهي بلا مبالاة.

عزيزي العالم، لماذا تتطلع نحوي هكذا وأنت سعيد؟ هل أنت حتى حقيقي؟ لا تدَّعي!

لم يعد بيني وبين النهاية سوى خطوة واحدة فقط. ربما كل شيء الآن، صار أبعد من أن يصدق. أزمتي الكبرى الآن لم تعد في الجنون، ولا في عقلي الذي يحلق فوقي الآن كبالونة هليوم خرقاء لا تعرف كيف تخرج، ولا في الدكتور الذي اختفى في ظروف غامضة ولم أعثر عليه، الأزمة التي تواجهني الآن أكبر من كل شيء مر بي من قبل، أكبر من أرقام الحسابات البنكية التي أُخفيت، والشركات السرية التي ستخرج للعلن، والسياسيين الذين ستنكشف ثرواتهم، الأزمة الحقيقية الآن تكمن في شيء واحد فقط: هل الخطوة التى علي أن أخطوها الآن، يجب أن تكون للخلف أم للأمام؟

هل أندفع بكل طاقتي للأمام أم أفتح مظلة الهبوط لأسقط بهدوء في مكان ما غير معلوم؟

أجلس القرفصاء فوق الطاولة الممتدة أمامي بزجاجها الكريستالي الباهظ الثمن وتناجيني المدينة. لماذا هرب الدكتور؟ ربما هو الآن في مكان ما، يحتسي كئوسًا لا تتوقف من البراندي وكأنه قرصان استقر وحيدًا على جزيرة نائية

في قلب المحيط. لماذا تبخرت كاميليا ثم ظهرت بعد عدة أشهر لتهددني؟ كاميليا، كم أنت ساحرة! وجهك الملائكي يطل من ذاكرتي وأنت تبتسمين ابتسامتك الرائقة وتسلميني لمصيري.

أتطلع نحو ألوف من الأضواء المتناثرة في أفق تلك المدينة المجنونة. اللعنة! الآن فقط تتهاوى في رأسي شبكة كبرى من الأحداث التى دارت على مدار عشرة أعوام. يا إلهي، لقد فعلت الكثير بهذا العالم لهذا أعذره عندما قرر أن على المجنون أن يغادر المدينة.

2

يقول الشاب ذو البدلة البيضاء:

"أليس لديك شيء آخر؟".

أهز رأسي نافيًا فيتابع حديثه:

"إذًا هذا هو كل ما تفعله في الحياة؟ تجلس مكانك وتجعل كل شيء يمضي دون أن تأبه به".

لا يحتمل الأمر وينسحب مخلفًا وراءه ذكرى مكسورة. لم أعرف حقيقة إن كنت أعتبره صديقًا أم لا؟ ولكن الثابت أني خذلته في أشياء ما كثيرة لا أكاد أذكرها، ترى ما هي؟ أضع السماعات وأواصل البحث في السطور أمامي عن رقم ناقص في اللوغاريتم. هناك صفر ناقص ما إن أضيفه حتى تهرول السطور.

الشخص الذي رحل للتو ربما كان آخر صديق ملّني ومضى، كان هذا قبل اثني عشر عامًا، ساعتها لم أكن بارعًا بشيء يذكر سوى أكواد البرمجة، عملت لسنتين كمطور حلول إلكترونية في شركة تقنية بمدينة الإعلام. مهنة آمنة ومستقرة أكاد أمارسها وأنا معصوب العينين منذ أن تخرجت في الجامعة وانتقلت من القاهرة إلى دبي. لم يكن هناك الكثير في حياتي لأرويه، علاقتي بدبي كانت علاقة عابرة وكأننا جاران لا يتبادلان سوى النظرات وتحية الصباح، تطل علي بأبراجها المتسابقة نحو عنان السماء، وأطل عليها كعابر سبيل، يحاول أن يكون حياديًّا بلا رأي، كيف أصارح الأخطبوط المتمدد بما لا أفهمه؟

يقول نهر الحياة في المدينة لي: ليس عليك سوى أن تمضي مع التيار ليحط بك أينما يحل، ربما سنعتلي تلك الأبراج ذات يوم لنصعد إلى القمر. عامان قضيتهما في دبي ولم نتعارف فيها جيدًا، في هذه المدينة كان كل شيء مختلطا علي وملتبسا، جنسيات البشر المندفعين من حولي، لهجات العرب، ماركات السيارات، حتى لائحة الطعام في المطاعم كانت معقدة ولا أستطيع فهمها.

حياتي كانت مسطحة ولا تتشابه مع سكان المدينة، يومي المقسم ما بين عملي في مدينة دبي للإعلام وشقة حي "الجرينز" لم يكن يشبه حياة الدكتور شريكي في السكن. كان يقضي الليل في سهرات صاخبة بأندية دبي وحاناتها ولا يعود إلا مثقلًا بالشراب، يتحدث عن عروض التخفيضات في المولات والمطاعم الدولية التي تفتتح كل يوم وأسعار المساج والحفلات

ومؤخرات الفتيات. يثرثر طيلة الوقت متحدثًا عن النساء وعمله في سوق المال والانتخابات في بلده بريطانيا بينما أتابعه في صمت، لم أكن أفهم ولم تكن تعنيني كل تلك الأشياء. أهرب من دعوات زملائي في العمل للعشاء والسهرات وأقضي الليالي متسكعًا أطالع بنايات المدينة الشاهقة التي لا تضوي سوى بالوحدة.

***

هناك رجل يدعى بول جوريه، قال ذات يوم "يحسب المرء نفسه مستقرًّا تمامًا، ثم... تمر به امرأة"، هذه هي البداية التي أتذكرها جيدًا.

كل شيء كان هادئًا في حياتي ومستقرًا في مكانه حتى أطلت عيناها العسليتان ذات صباح من بين سطور الأكواد التى أصفها على شاشة الكمبيوتر. لأول مرة في حياتي اكتشف أن هناك شيئًا ما غريبًا، نفذ إلى برمجة عقلي وعبث بوظائفها. توغل وسيطر على كل الحواس والخلايا، إنه الحب! هو ذلك الفيروس الذي يسلب منك بخفة كل قدراتك على التواصل مع ذاتك ويحل كوسيط مسيطر على كل خلايا عقلك.

المراكز الحسية في عقلي تنبؤني بالجوع قبل أن تقفز نادين وتحتل المشهد، أقرر تأجيل الاستجابة لغريزة الجوع والخضوع لهذا الوسيط المتحكم في عقلي، لقد قام بعملية تخدير قوية المفعول، محتواها: "سأنتظر نادين. سأصطحبها لذلك المطعم الياباني الذي ذهبنا إليه في عيد ميلادي منذ شهر".

نادين! سأخبرك عن نادين، هي حالة فريدة، نادرًا ما تحدث لشخص من الفئة التي أنتمي إليها. ذات العينين اللوزيتين والشعر الأسود الناعم،

كانت عندما تدخل مكانًا تثير اهتمام الجميع، مفعمة بالحياة والطموح ولديها ذوق خاص جدًّا، تتمتع بحس جمالي طاغٍ في كل ما تلمسه، حتى الدكتور - بالرغم من ضعف قدرته على التمييز - صار يميز ذلك الأمر. يشير نحو القميص الأنيق ذي اللون الوردي الفاتح الذي أرتديه ويقول "نادين؟!"، أحدثت نادينْ تغيرًا كبيرًا في مسار حياتي وتركتني شخصًا آخر.

النساء هن القوة الوحيدة القادرة على تغيير الرجل للأبد. الرجال هم وحدهم من يعرفون تلك الحقيقة ولكنهم يكتمونها بحرص.

بحسب القاموس الشهير لتعريفات الحب: يبدأ الحب بالنظرة الأولى، تمر من أمامك وشعرها تطيره نسمات الهواء ثم تتلاقى الأعين، تعزف الموسيقى من مكان، وتتوقف الأرض عن الدوران وأشياء من هذا القبيل، أو ربما في سيناريو آخر يتم الانجذاب إثر موقف كبير تتجلى فيه شهامتك وقدرات الجنتلمان المتفجرة لديك. في كل قصص الحب يجب أن يحدث شيء ما استثنائي وخرافي، لا أعلم تحديدًا ما هو ولكن الحب يجب أن يأتي هكذا.

علاقتي بنادين لم تبدأ هكذا، بل بدأت بداية سيئة للغاية. لقد كانت تعمل في شركة علاقات عامة تتعامل مع الوكالة التي أعمل فيها، منذ أول مرة رأيتها وأنا أعتبرها أيقونة المرأة المتسلطة المجنونة، فتاة معتدة بنفسها، مرهقة ولحوحة بشكل مستفز، تتابع أدق تفاصيل وترسل في اليوم الواحد رسائل لا حصر لها، لتطلب تعديلات. كنت أتحاشاها بكل الطرق وأفر من حضور الاجتماعات التي توجَد فيها، حتى عندما كان يأمرني مديري

بالحضـور كنت أجلس صامتًـا وأتوحد مع قنينة المـاء الموضوعة أمامي، متساويان تمامًا في قاع الزمكان، تتحدث بلا توقف وأنا أفكر، تلك الفتاة هي النموذج الذي يدعم نظريتي عن النساء "كائنات أسطورية تمتلك جهازًا عصبيًّا جبارًا وكاسحًا.. أمثالي أتفه من أن يصمدوا أمام غارة واحدة" أنا في هدنة مع النسـاء منذ سـنوات الجامعة، علاقتي بهن تشـبه علاقة جزر الأنتيل بدولة اليمن الشـقيق، لا يوجد تمثيـل دبلوماسي ولا تبادل ثقافي ولا حتى اشتباه في شيء ما يذكر.

مضى الأمر هكذا لعدة أسابيع حتى فاجأتني ذات مساء، كنت ساهرًا في المكتـب وحـدي، لم يكن لدي رغبة في الذهـاب إلى البيت فقررت أن أمكث في المكتب أستمع للموسيقى.

عندمـا تكون متأكدًا من أنك وحدك في مـكان ما وتعزف أغنية أنت تحبها، فجأة ستشعر برغبة عارمة في الغناء بصوت عالٍ أو حتى الرقص، ذلك ما حدث عندما عزفت أغنية لفرانك سيناترا فقفزت متجاوزًا مكتبي وانطلقت أرقص بين المكاتب مستخدمًا ذراع المكنسة كميكرفون. عندما انتهت الأغنية التفت لأجدها جالسة إلى أحد المكاتب مرتدية فستانًا أسود أنيقًا، تضع ساقًا على ساق ورأسها مائل نحو كتفها الأيسر تتطلع نحوي وابتسامة رائقة ترفرف على وجهها الجميل، تسمرت مكاني لوقت طويل والخجل يعتريني، ثم لأنهي الموقف قفزت نحو مكتبي وبدأت أتصنع أنني أعمل وكأن الشـخص الذي كان يغني ويرقـص منذ قليل لم يكن هنا، لم يحضر اليوم، لا أعرفه على الإطلاق.

اقتربت وجلست على حافة مكتبي بكل ثقة، لم أقاوم وانفلتت مني ضحكة طويلة ثم بادلتني الضحك، ثم غنى العالم من حولي "تراكًا" كاملًا من أغاني السعادة. لأول مرة أراها تضحك ولأول مرة أندهش بشدة.

لحظة واحدة! هذه كانت أول مرة أندهش لهذا الحد، ربما لذلك ما زلت بعد كل تلك السنوات أتذكر كل تلك التفاصيل الغريبة عن أول تجربة لي، أذكر أنها جرتني من ذراعي هكذا ودون مقدمات وبكل بساطة دعتني للعشاء ولم تنتظر إجابة. أمشي إلى جوارها دون أن أقول شيئًا، خجولًا كجرو ساذج، تخبرني بأنها كانت تمر بالجوار عندما لمحت ضوء مكاتبنا في وقت متأخر وقررت أن تستطلع الأمر بدافع الفضول، الباب كان مفتوحًا والموسيقى كانت تعزف بصوت عالٍ وشخص ما كان يرقص ويغني.

ذهبنا إلى مطعم لبناني بمارينا دبي وجلسنا، هي لبنانية وتعرف تحديدًا ما تنتقيه من القائمة الطويلة للمقبلات، أما فأنا فكنت كالعادة حائرًا، تطوعت هي وطلبت لكلينا. وهكذا ومنذ ذلك الحين ونادين صارت هي من تطلب لكلينا في كل مكان نرتاده، لم يتطلب الأمر منها سوى أيام معدودة لتعرف ما أحب من الطعام ونوع القهوة التي أفضلها، تعلمت كل هذا بذكاء وسرعة بديهة واجتاحت تفاصيلي الصغيرة.

ينفتح الباب ويتحرك كل شيء من مكانه كهواء ضرب الغرفة وعاث بها فجأة. كل شيء ساكن، أنكفئ أمام تلك الدفقات المتحررة، يخرج مني مكنون جديد لم أعرف له طعمًا من قبل.

عشاؤنا الأول كان رائقًا وعذب الحديث، موجتان تسرحان على شاطئ

الخليج الهادئ. هل كان لقاؤنا الأول رومانسيًّا إلى هذا الحد؟ أحاول أن أتذكر جيدًا كيف دار هذا اللقاء. لا أذكر ما قلته ليلتها وربما لم أقل شيئًا يُذكر، كانت هي من يتحدث وأنا أتأملها أحيانًا وأسرح بعيني بعيدًا في أحيان أخرى، تسألني عن شرودي فأجيب وأنا أشير نحو أبراج المارينا وأخبرها بأنني لا أفهم كيف يقيم الناس في علب الكبريت تلك، فتطل نحوي مندهشة وتتساءل عن معنى ما أقوله، أصمت لبعض الوقت وأخبرها بأن تلك الأبراج المتطابقة تشبه تمامًا مكعبات ليجو أحادية اللون مرصوصة خصيصًا لتثير ضجري. ترفع حاجبًا وتصمت لوهلة ثم تضحك قبل أن تشير إلى إحدى العلب في المباني العالية وتنبؤني بأنها تسكن في أحدها.

يحدث أن تسرح نادين قليلًا قبل أن تحكي لي عن فتاة ما تشبهها ولا تشبهها في شيء، فتاة فقيرة أتت من ضاحية قرب سوق صور القديم، هناك في الجنوب اللبناني الراقد على حافة البحر، نشأت وحيدة بعد أن مات أخوها في تفجير سيارة ملغومة بضاحية بيروت، أبوها كان صيادًا قبل أن يتحول إلى تاجر أسماك بسيط، يجمع السمك من الصيادين ويدور يبيعه للمطاعم السياحية، رأسماله لم يتعد الألف دولار لسنوات طويلة. أمها كانت تخبز مناقيش الزعتر بفرن على ناصية السوق وهي ظلت تساعدها حتى دخلت الجامعة اللبنانية، تكفل بمصاريفها خالها الذي كان يعيش في كندا، بعد أن تخرجت التحقت بشركة لبنانية في بيروت ثم انتقلت إلى دبي. تحكي وتحكي وأنا أغيب أكثر في ملامح وجهها، هل تعلم تلك اللحظة التي يتبدل فيها شعور بشعور آخر معاكس؟ الوحش الذي كنت أهابه قد تحول إلى قط

صغير ووديع، من تلك الفتاة التى أراها الآن؟ شخص آخر.

تلك كانت أطـول ليلة عرفتها منذ هبطت أرض دبي، بعد أن ودعتها وحملت نفسي إلى البيت لم أنم، ظللت ساهرًا حتى الصباح في شرفتي أتطلع نحو أضواء أوناش البناء التي تعمل طيلة الليل، لماذا يبنون هذه المدينة على عجل؟ من سيكون كل هؤلاء القادمين صباحًا؟

***

في الأيام التالية لم يحدث شيء، هاتفي ليس سوى صنم حجري لا يهتز، لم تحدثني ولم أحدثها، ثم تباغتني في يوم العطلة ويدق هاتفي في الثامنة صباحًا، يعتلي اسمها شاشة هاتفي وتداهمني دفقة مباغتة من الأدرينالين تكفي لإيقاظ فيل إفريقي من غيبوبة طويلة.

أفتـح بـاب الشـقة مرتديًـا سروال المهـرج ذي المربعـات الكبـيرة و"تي شـيرت" أبيض عليه بقعة كبيرة من الكاتشـب بعـد صفقة البارحة برفقة الدكتور وبيتزا الحجم العائلي وفيلم غباء في غباء، بينما تداهم نادين الشـقة كالعاصفة، تمامًا مثلما كانت تفعل أمي بغرفتي وأنا صغير. شقتي أنا والدكتور لم أنسَ تفاصيلها قط، لقد كانت تشـبه تقريبًا عنبر المخبولين وذلك في أحسـن أحوالها. وضعت يديها في وسـطها وكأنها سيدة المنزل، وتلملم ثيابي المتسخة، تأمرني أن أرتدي ثياب البحر لأننا ذاهبان إلى الشاطئ. عندما يفيق الدكتور ويخرج من غرفته منكوش الشـعر، يهز رأسه ظنًّا منه أن مفعول الكحول لم يغادر رأسـه بعد، ثم يهتف "من هذه؟"، أهز رأسي ولا أعرف بماذا أخبره.

تشتري لي "شورت" أحمر لأنني لم أكن أمتلك ثياب بحر، لقد اختارته أحمر وأنا وافقت، طيلة عمري أعتبر الأحمر ليس سوى أحمر شفاه ومربى الفراولة حتى صار شورت، الشورت الذي سافر معي ثلاث أرباع الكرة الأرضية في السنوات العشر الماضية، إنه التذكار الوحيد من نادين الذي صمد.

شاطئ الجميرا حيث أشجار النخيل تظللنا والشمس الذهبية تلوحنا ونسمة هواء باردة تلفح شعرها تتطلع نحوي بابتسامة واسعة وفي يدها كأس من شراب أخضر لا أعرف كيف أنطق اسمه. هل هذا حلم؟ في الحقيقة كل شيء كان يشبه الحلم في ذلك اليوم حتى دخل أصبعي في عينها وهرولنا إلى المستشفى.

لقائي الغرامي بنادين على شاطئ الجميرا انتهى نهاية غير سارة. لقد قررنا أن نسبح وكما يحدث تمامًا في الأفلام قررنا أن نمزح ونرش الماء على بعضنا، اليوم بدأ بـ"صباحو" وشورت أحمر فكان لا بد أن يأتي مشهد المزاح في الماء. أصاب أصبعي عينها فتألمت بشدة وهرعنا إلى المستشفى، ربطوا عينها بضمادة وقدت سيارتها حتى أوصلتها لمنزلها.

عندما عدت إلى البيت كان الدكتور في انتظاري وعلى وجهه ابتسامة واسعة شديدة البلاهة قبل أن يلحق بي في غرفتي وهو يقول:

"لقد صار لديك صديقة أيها الراهب الملعون؟".

"قبل ساعة فقط أما الآن فلا أعتقد".

"واو إنه بحق عالم سريع جدًا.. أهنئك وأعزيك في نفس الوقت يا عزيزي".

يضحك بعد أن يعلم بما حدث ويسقط على كرشه ساخرًا.

"في العادة الرجل يذهب مع الفتاة للسرير، أو على أسوأ تقدير يقبلها أمام بيتها.. أما أن يصيب عينها؟! هذا شيء جديد بحق!.. أبله!".

قذفني بعلبة البيتزا الفارغة وذهب ليحتسي البيرة بنهم. يقترح الدكتور أن أرسل لها وردًا ورسالة اعتذار، أتجاهل الفكرة تمامًا، وذلك ليس لمبدأ ما ولكن لحقيقة أعرفها فأنا وبكل فخر أجهل الناس بالورد وكتابة الرسائل، أنا من حي يقذف فيه الشاب نافذة الفتاة بحجر ليعلن لها حبه. وكعادتي، أفعل ما أجيده تمامًا، لا أبالي. أقرر أن أنساها وأشغل نفسي بمحاولات انشغالي ولكن كل هذا فشل عندما دق الهاتف.

فتحت لي الباب والضمادة ما زالت على عينها. تطلعت نحوها وقلت "أهلًا بالقرصان!". بيتها عبارة عن أستوديو صغير ومرتب ولديها ثلاث صور كبيرة على الجدار خلف الأريكة، مارلون براندون، فرانك سيناترا وعمر الشريف. جلستْ تحت عمر الشريف بينما جلست أنا تحت سيناترا، برفق انتزعت الضمادة عن عينها وتطلعت في عينها الجميلة وأصبحنا من ساعتها متقاربين.

كنت أنا ونادين نشبه شخصين يتشابهان حد التطابق ويختلفان حد الجنون، مزيج غريب ليس له تفسير، ربما البشر لا تحكمهم قواعد لأنهم متناقضون في داخلهم، كائنات لا تقدر على تحديد أبعاد جموحها أو على فهم دوافعها، علاقاتهم لا تحكمها قواعد وتقلباتهم ليس لها من إشارات. الأسباب التي تجعلهم يحبون الشيء ويقدمون عليه قد تكون هي نفسها تلك الأشياء التي تجعلهم يرحلون.

نتمشى بالساعات على ضفاف الخور ونجوب سوق الذهب وشوارع نايف والرقة، نثرثر عن أشـياء غير مفهومة ونصمت عندما نقول أشـياء كبيرة عن أنفسنا والحياة. تقف على شاطئ الجميرا في الليل ويطير شعرها الأسـود للخلف بينما أقف مبتسمًا ولا أقول شيئًا، أخاف أن أمس المشهد ولو حتى بحرف، أستكين متابعًا بحواسي وعيني معلقتين في فضاء يدعى ناديـن. كنا نلتقي دومًـا في مول هادئ وصغير بالجمـيرا يدعى ميركاتو، صباحيـات الجمعة تعني قدح قهوة بصحبة نادين في مقهى سـتاربكس. دبي بطرقاتهـا ومقاهيها ومتاجرها صـارت لها أوصاف جديدة في رأسي، طرقات دبي صارت تعني نادين بعد أن كانت بالنسبة لي فراغات مصفوفة بلا عناوين. هنا أكلنا مناقيش سورية، هناك تذوقنا حلوى هندية وهذا المحـل تطوحت ضاحكة عندما قلت نكتة مصريـة. أول قصة حب دائمًا تكون بريئة وساذجة.

كيف تصف شـخصًا يكتشـف فيك أشياء لم تعرفها من قبل؟ هل هو الوحيد الذي كان يرتدي نظارة ثلاثية الأبعاد مثلًا؟ لقد كانت أول شخص يعرفني ويكتشف الخطر، تلك الفراشة الجميلة اقتربت مني ثم قررت أن تفر.

بعد شـهر ربما وبينما كنت مستلقيًا على ظهري في حديقة الصفا أتطلع نحو السـماء ورأس نادين بشعرها الأسود الفاحم تنام على صدري قالت فجأة:

"أنا باحبك كتير.. بس أنو بيكيفي....لازم أتركك".

هل تعرف تلك اللحظة الصادمة؟ هل جربت ذلك الشعور المفاجئ الذي يصيبك في مقتل؟ هل تعرف ماذا يصيبك ساعتها؟ أنا لا أعرفه. أنا لم أشعر بأي شيء ساعتها، لا شيء على الإطلاق. لا تسألني كيف لهذا أن يحدث. عندما سأعلم سأخبرك. أنا مولود بمهارة ربانية في نسيان ما وراء الأبواب حينما تغلق. لم أكن أعرف هذا حتى ظهرت نادين في حياتي.

تلك اللحظة مضت دون أن أشعر بأي شيء على الإطلاق، يقولون إن الصدمة أحيانًا تشبه جرعة مخدر تصيب الشخص بفقدان للوعي وإنكار للحقيقة، ولكن هذا أيضًا لم يحدث معي. الآن وأنا أحاول تذكر ما شعرت به ساعتها لا أجد في جعبتي تشبيهًا أستطيع أن أستعيره لأصف حالتي بعـ قررت نادين أن ترحل.

كانت هناك تجلس أمامي على العشب بفستانها الأبيض القصير وحزامها الأزرق كحلم جميل، ألقت بقنبلتها وظلت تتحدث بإسهاب عن طموحاتها وأحلامها في الحياة، تريد أن تتزوج من شخص مختلف عني، نادين تخاف أن تفقد طموحاتها أمام رغبتي في الحياة كمبرمج متخف خلف الشاشة، نادين تريد أكثر بكثير، تريد وظيفة أفضل وماجستير وفيلا وتريد أن تأتي بأبويها ليقيما معها، تريد خادمة وملابس تعجبها ولا تقدر على ثمنها، تريد أن تجوب العالم وتريد جنسية كندية أو فرنسية، نادين تريد كل شيء وأنا شيء واحد فقط وغامض.

تلك كانت مبررات نادين ساعتها وحديثنا الأخير في ذلك اليوم لم يكن دراميًا ولا بكائيًا، لقد مر هكذا وكأنه مشهد عادي في منتصف الفيلم

لشخص يقوم بإعداد كوب الشاي ويشربه على مهل، مشهد تستطيع حذفه من الفيلم دون أي تأثير يُذكر على الأحداث.

لا شيء في تلـك النهاية تغير، منـذ اللحظة التى افترقنا فيها ظل الأمر هكـذا كخط يقطعه سراب في النهاية، لم تتغـير نهاياتنا ولكن كل شيء في حياتنا نحن الاثنين تغير، تغير هكذا في لحظة وإلى الأبد، وكأن يومًا مُشمسًا تحول في لحظة إلى طقس غائم ومطر ولا يهدأ.

من أين يأتي ذلك الشيء الخرافي المسمى بالحب؟ وإلى أين تأخذه الريح؟ ما الذي نفهمه عن الحب؟ أظن أنه قليل القليل، أما الكثير فمسكوت عنه لأنه ربما كان بلا كلمات.

ليس لكل القصص نهايات معروفة كما في الكتب والأفلام. هل تعرف لماذا يجب أن تكون للقصص نهاية؟ هو نفس السبب الذي يجعلهم يحبون القمر عندما يكتمل، إنهم يريدون الصورة كاملة، أما في الحياة فهناك دومًا صور وحكايات لم تكن لتكتمل أبدًا.

كانت تطل عليَّ صورة نادين بين الحين والآخر عبر السنوات التي تلت، تتصاعد من فنجان القهوة أو تمر كخيال ينعكس في زجاج المطارات وأنا أتنقل من مدينة لأخرى. كانت خيـالات نادين تزورني بطقوس مبهمة، طيفًا لا يتقن سوى فنون اللقاءات السريعة والوداع.

لم أرَ نادين منذ هذا الحين سوى مرة واحدة مصادفة بعد ثماني سنوات. كنت أقف في مطار دبي متأهبًا للمغادرة عندما أتى صوتها من خلفي وشعرت بأن الزمن معكوس. كل شيء كان يمضي عكس حركته، الناس والأحداث.

بعد سنوات من الفراق وقفت أمامي هكذا وقالت شيئًا ما غريبًا. صدمتنى ورحلت على الطائرة المغادرة إلى مونتريال.

"كنت لا أخاف شيئًا حتى قابلتك.. لا زلت لا أعرف حقًا كيف تملكني على مهل وبقوة.. ساعتها تعلمت أن أخاف منك وكان عليّ أن أنسحب بأي شكل".

وبهذه الكلمات اكتشفت أن نادين كانت أول من عرفني. كيف تعلمت هذا وأنا ساعتها لم أكن قد تحولت لحياة أخرى؟ إنه إحساس المرأة.

3

يقف أمامي وهو يطبل على كرشه المستدير ثم يهتف "متى سنأكل أيها العبيط؟!!". يعلم يقينًا بأنني سأوجه إليه نظرة ما خاوية مع حركة كتفين لامبالية ستزيد من ضجره. لن تمر سوى لحظات قبل أن يقذف بجسده على الأريكة كمن أصابته غيبوبة مفاجئة، بعد قليل سيبدأ في مد شفتيه كالعادة متبوعًا بتعليق ما سيجلعني ابتسم وأنا أتحاشى النظر إليه، ذلك هو البروتوكول اليومي المتبع بيننا منذ أن ألقى بي القدر في مكتبه بمركز دبي المالي.

"أنت أيها العربي تقتر من طعامك السابق مثل الجمل.. أنا أيرلندي مسكين ولا أستحق هذا!!".

"أنا لم أمنعك.. اذهب وحدك".

أقولها وأنا ما زلت أواصل العمل على جهاز اللاب توب غارقًا في التقرير المالي الذي تلقيته هذا الصباح. يقفز واقفًا وهو يتبرم:

"ولكنك تعرف أني لا أحب تناول الطعام بمفردي!! اللعنة.. أنا أموت جوعًا".

يمد رأسه مطلًا على التقرير الذي أمامي قبل أن يشهق فجأة

"يا إلهي.. كيف حصلت على هذا؟".

"من مراسل مالي يغطي الأخبار الاقتصادية في سنغافورة.. لقد سرب إليَّ التقرير في مقابل نصيحة حول الأسهم في بورصة دبي التي ستدر عليه أرباحًا مضمونة.. لقد فرح ببعض المكاسب الصغيرة ثم خسر ماله كله في النهاية.. البشر طماعون!".

"ماذا سنفعل بهذا التقرير؟".

"هذا ما عليك أن تخبرني به.. أنت الخبير هنا".

يدير شاشة الجهاز نحوه ويستغرق تمامًا في القراءة بينما أتوجه نحو الشرفة لتدخين سيجارة. السماء صفراء قاتمة والغبار يهبط من أعلى، العاصفة الرملية تهب على دبي لليوم الثاني على التوالي، تلوح البنايات وسطها كأشباح ضائعة، الأصفر يغطي كل شيء والصحراء تسخر من المدينة لبعض الوقت وتعلن سيطرتها. هناك كانت ناطحة سحاب على الجانب الآخر بها مكتب وحيد مضيء وسط العاصفة المعتمة، عشرات الطوابق ومئات المكاتب ليس فيها سوى مكتب واحد مضيء! يقف هكذا وحده وسط العاصفة. أحدق وأحدق فأشعر بأن هناك شخصًا في المبنى المقابل يطل عليَّ، إنه يعرف الآن

أني أحدق فيه وسط العاصفة وهو أيضًا يحدق في.

منذ أن أتيت لدبي وأنا لديّ شعور غريب يراودني من حين إلى آخر، أشعر بأني أراقب أحدًا ما وهو يراقبني. هل هذه خيالات؟ لماذا تلك الخيالات الآن؟

***

الدكتور مستغرق تمامًا في قراءة التقرير. المهمة التى كُلِّفنا بها بدت عويصة ومعقدة منذ أول وهلة. لا أعرف ما الذي اقتادنى نحو هذا وكيف تغيرت حياتي هكذا! سنواتي السابقة في دبي قضيتها في عزف سطور البرمجة كنوتات البيانو، بلا قلق، بلا ضغوط. الأمور كانت تسير في خط مستقيم ثم فجأة تحولت إلى مؤشر يعاني ذبحة قلبية. أنا في قلب العاصفة وكل شيء حولي يقفز ويهبط بسرعة وبغضب، كل رجال المال حولي متوترون وشرسون ويلهثون وراء كل شيء وأي شيء.

أقف في البورصة، في قلب مركز دبي المالي، أراقب المؤشر عند كل حركة وخرائط معقدة لخطوط الدعم والمقاومة وتحليلات مالية لا أفقه منها شيئًا يُذكر. منذ أشهر قليلة لم أكن أعرف حتى أبسط الأشياء عن عالم المال، لم أطالع في حياتي صفحة الاقتصاد في الجريدة ولم أكن لأصغي حتى لموظف البنك وهو يشرح لي أنواع الحسابات ومعدلات الفائدة -علاقتي بالمال كانت علاقة مرور الكرام ودون توقف ودون تحيات- الآن أنا أحسب على معدل الثلاث ثواني مضروبًا في تحرك السعر بالكسر العشري للعملة لأقيم عمليات بالملايين.

عليَّ أن أحكي لكم كيف أتيت بقدميَّ إلى هنا. ذات مساء حار عندما أطل عليَّ الدكتور في ثياب داخلية مقلمة، سألني إن كنت فعلًا عبقريًا في البرمجة والرياضيات. فتح منصة التداول أمامي وأطلعني على كود يقوم بالتداول الأتوماتيكي وفق تحليل رقمي معقد يطلقون عليه اسم "إكسبيرت". يشرح لي الدكتور كيفية عمل البرنامج ومعيار التحليل الرقمي الذي يستخدمه، بالرغم من قناعاتي السابقة ببلاهة الدكتور في كل موضوعاته بالحياة إلا أنه كان ماهرًا عندما يتعلق الأمر بالرياضيات والأرقام وحركة السوق. نام الدكتور على كرسيه بينما دفعني الفضول لتفكيك الكود وإعادة ترتيب أوامره. حين أفاق الدكتور وتطلع نحو المؤشر، شهق وسكب زجاجة الماء على رأسه قبل أن يوقظ المربع السكني كله على هتاف "أنت عبقري!".

وهكذا اكتشف الدكتور عبر المصادفة أني موهوب في ربط الأشياء ببعضها. عقلي لم يكن جيدًا في الرياضيات ولكن بحسب الدكتور، كان لديّ قدرة غريبة على استقراء وربط كل الأشياء ببعضها بعضًا، في علم البرمجة يسمى هذا باللوجيك أو المنطق، اللوغاريتمات قد تكون فاعلة وتعمل بكفاءة ولكن يجب عليك ربطها بترتيب أمثل. هكذا اكتشف الدكتور موهبتي وأخذ يعرض عليَّ المواقف المالية وتحليلات السوق منتظرًا تعليقي. في كل مرة كنت أشير لشيء ما، يندهش ويشرح أكثر.

بعد أسبوع قرر الدكتور ومن طرف واحد أن عليَّ الانضمام للعمل معه، بالطبع رفضت ولكنه لم ييأس، قدم أوراقي للشركة وقبلوني في الوظيفة دون علمي بل والتقوا بمديري وأقنعوه. وهكذا وجدت نفسي منقولًا من

مكتب منزوٍ في أحد مباني مدينة الإعلام إلى قلب المركز المالي.

ما الذي جعلني أغير حياتي فجأة؟ ربما ما قالته نادين في ذلك المساء تحت الشجرة، أو ربما كان الدكتور وإلحاحه، أم أنها كانت تلك الشرارة التي ومضت في مكان ما داخلي وأنا أتطلع نحو مؤشرات السوق، ذلك الأدرينالين الذي باغتني وحرك ثقلًا كبيرًا داخلي، زحزحه من مكانه ومن ساعتها لم يعد قط.

أتطلع نحو دبي. نحو قلب العاصفة القاتمة وأشعر بأن تلك المدينة الباهظة كانت باهظة أيضًا في تأثيرها على كل من ابتلعتهم. باهظة في فاتورتها.

الخط المستقيم الذي كنت أعرفه انعرج عند منعطف ومن ساعتها لم يهدأ.

***

"أنا لا أفهم!!" هتف الدكتور فجأة وهو يحدق في التقرير وانتزعني من غياهب ذكرياتي.

"ماذا؟".

"هذا التقرير محير".

"كيف؟".

"انظر إلى مؤشر أداء الأسهم وتقارير الاستشارات ثم قارن بين الاثنين... الشركه تتلقى استشارات في حين أن أسهمها تنخفض.. ولكن.".

"ولكن ماذا؟".

"......".

"ما مشكلتك؟".

"هناك عرض على البيتزا.. اطلب واحدة كبيرة تأخذ أخرى إضافية مع سلطة كلوسلو".

زفرتُ بيأس، عليَّ أن استسلم لبطن هذا الأبله فهو معطوب الوظائف الآن، يتوقف عقله عندما يكون خاوي المعدة. ذهبنا إلى مطعم البيتزا وأنا لا أتوقف عن التفكير في التقرير، ما إن اِلتهم الدكتور البيتزا وتجرع زجاجتين من الصودا، تجشأ وبدأ يمارس دور الخبير:

"على رغم من بقاء أسهم تلك الشركة منخفض لوقت طويل فإن الكثيرين فيها يبدو قد ضخوا فيها استثمارات ومنهم شركتنا.. السؤال الآن لماذا؟ هذا عادة لا يحدث".

"ربما هذا مخطط له".

"ربما.. هناك احتمالات عدة.. من الجائز أنهم أبقوه منخفضًا ليستطيع أحدهم أن يستحوذ على الشركة كلها بثمن بخس".

"كإشاعة مثلًا أن الشركة متعثرة مثلما فعلت مع شركتنا؟".

"هذا ما لا نعرف أبعاده بعد.. لا بد أن نحصل على معلومات".

لقد كان الدكتور محقًا. يبقى السؤال، من أين نبدأ إذًا؟ لا بد من طرف خيط يتدلى في مكان ما، قطعًا ليس هنا في دبي.

أحكمت رابطة عنقي وأنا أحزم أمري، ثم قمت أجر الدكتور خلفي وهو يتعثر ويهتف:

"إلى أين؟!!".

"هونج كونج".

"هونج التي في جنوب شرق آسيا؟ هههههه.. كف عن المزاح.. دع ذراعي.. تمهل".

أدفع رأسه ثم مؤخرته داخل التاكسي وأجلس إلى جواره قبل أن أشير للسائق أن يتحرك، يتردد السائق ويحدق في الدكتور مستطلعًا الأمر. أبادر السائق بحزم:

"المطار من فضلك".

يهتف الدكتور:

"لا تصدقه.. لا تذهب إلى المطار".

أتجاهل الدكتور وأتوجه نحو السائق:

"إن لديه رهاب الطيران ولكنه سيصبح بخير".

يعاود الدكتور التبرم:

"ولكنى لم أحضر ملابسي.. الرطوبة في هونج كونج قاتلة وليس معي ملابس داخلية".

"سأشتري لك ملابس من المطار".

يتصفح الدكتور الإنترنت على هاتفه بينما يعبر بنا التاكسي جسر القرهود. العاصفة الرملية الصفراء قد حجبت وراءها المباني العالية المطلة على الخور. تختفي دبي وكأنها تغلق أبوابها على مهل.

يبتسم الدكتور وتبدو على قسمات وجهه سعادة طفولية بينما يحملق في هاتفه:

"وااااو.. هونج كونج مدينة مليئة بالبارات والنساء.. كيف لم أذهب إلى هناك من قبل؟!".

يتطلع نحونا السائق في مرآة السيارة وهو يكاد يجزم بأننا قد أسرفنا في احتساء الشراب.

4

الأول من أغسـطس، 2004 هونج كونج، وقبل قرابة عشر سنوات، كان اليوم السابع منذ بدء المهمة. سرقت حقائبنا هكذا ودون مقدمات.

أشار سائق التاكسي نحو الفندق فسحبتُ الدكتور الذي كان مجهدًا بعد رحلة طيران طويلة، أصابه خلالها الأرق. لم تشغله محاولاته المستمرة لمدّ كوعه خارج مقعده حتى تلامس مؤخرات المضيفات العابرات، وظل يتبرم طيلة الرحلة. ما إن ترجلنا خارج التاكسي وقمنا بفرد قاماتنا حتى دوّى صرير العجلات بقوة وانطلق السائق هاربًا بحقائبنا. يشير الدكتور نحو السيارة التي تبخرت في الزحام وكأنه يشير إلى المجهول، يتطلع نحوي بعينين نصف مفتوحتين وكأنه يريد أن يتأكد. أومأت قائلًا: "نعم لقد سُرِقنا للتو!".

"مرحبًا بكم في هونج كونج" قالتها فتاة الفندق بابتسامة عريضة فقاطعها الدكتور منفعلًا: "نحن نريد الشرطة، لقد سُرِقت حقائبنا"، عندما حضرت الشرطة واستجوبتنا بدا الأمر لي طريفًا، قام الضابط بسؤال الدكتور عن رقم التاكسي ولكن الدكتور بالطبع لم يكن يعرف الرقم وحتى وصفه للسيارة كان خاطئًا فقمت بالتصحيح.

بداية، يجب التعرف على إحدى السمات العامة للدكتور، الدكتور يعاني في أحيان كثيرة من عدم المقدرة على تذكر أوصاف الأشياء، إن سألته عن لون شيء ما فسيأتيك بثلاثة ألوان مختلفة وسيكون عليك أن تنتقي أحدها. كان من الصعب عليَّ وصف حالة الدكتور للضبّاط فاكتفيت بتصحيح مواصفات السيارة وأنا أكبح بصعوبة رغبتي في الضحك، رمقنا الضابط بنظرات شك ثم سأل عن شكل السائق، هذا السؤال كان بكل تأكيد أصعب كثيرًا على الدكتور من السؤال الذي سبقه، أشار الدكتور نحو وجه الضابط وقال "لقد كان يشبهك"، لم أتمالك نفسي وانطلقت في الضحك وأنا أتابع الصدمة التي ارتسمت على وجه الضابط ومعاونيه، طوى الضابط أوراقه ومضى غاضبًا بينما تتطلع الدكتور نحوي مندهشا وهو يقول: "لماذا غضب؟!!، هؤلاء الآسيويون يشبهون بعضهم بعضًا!".

بعد دش دافئ ارتديت بدلتي وخرجت أفتش عن وسيلة اتصال، تاركًا الدكتور نائمًا على ظهره وهو يشخر بصوت منغم وكأنه أحد العازفين في أوركسترا تعزف مقطوعة لباخ. لم يكن لدينا الكثير من الوقت، اللاب توب الخاص بي سرق مع الحقائب التي ابتعناها من مطار دبي بالإضافة إلى

بزتين فاخرتين وأربعة قمصان ألمانية الصنع وحذاء إيطالي، كل هذا كان قد سرق دون أدنى مقاومة منا، لقد وقفنا ثابتين نشاهد الواقعة، نهرش في رءوسنا ونندهش.

هونج كونج المدينة التي تشبه غابة من الألمونيوم والزجاج تناطح السحاب، لم تكن تشبه دبي ولم تكن تختلف عنها. لا تسألني كيف يكون هذا، ولكن اسألني عن الإحساس الأهوج الذي ينتابني وأنا أطالع الناطحات المائلة فوق رأسي والبشر المهرولين في كل اتجاه، إحساس أن العالم قد تحدب في بؤرة واحدة، مستعمرات النمل العملاقة حيث يتزاحم الكل من أجل الكل شيء والأي شيء. الرفاهية المحلقة بالأعالي حيث شقق الكوندو ذات الإطلالة، اللافتات الصينية تتكدس معانقة الماركات الأوروبية والكورية واليابانية في الأزقة وعلى النواصي، تزأر سيارات اللمبورجيني والمازاراتي من حولك، ملابس "لويس فاتون" و"برادا" ليست في الفاترينات، إنها تسير حولك في كل مكان، حفلات الكوكتيل الخاصة ببارات الرووف توب تجمع فاتنات هونج كونج وبانكوك وموسكو بأموال شنغهاي وجوانزوا. أهلًا بك في مصيف الرأسمالية الكبير الذي يحفظ للعولمة مكانًا سخيًّا على شواطئ الاشتراكية الصينية.

ينتابني هذا الشعور المعتاد الذي ظل يلازمني في دبي لسنوات، هل فرغ العالم عندما ازدحم؟ من هؤلاء الذين لا يكفون عن الهرولة خلف المزيد؟ هل ما زال هناك قرى هادئة تنام على ضفاف الأنهار؟ لماذا لم أعد أرى سوى مدن ومن ورائها مدن؟ هل هناك بشر لم يأكلوا السوشي بعد؟

هل هنالك بشر لم يذهبوا إلى كارفور ولم يعرفوا المولات؟ أنا محبوس بين الناطحات وأروقة المكاتب وجنبات مراكز التسوق العملاقة منذ قرابة ثلاثة أعوام وقد قارب العالم على النفاذ من الطموحات البسيطة.

أدور في طرقات هونج كونج لساعتين لتزداد حيرتي الأبدية، ويراودني نفس السؤال، ما الذي أبحث عنه؟ وأين يسكن؟ ولماذا أفتش دومًا عن الأشياء التي لن أفهمها؟

أعود إلى المول التجاري الملحق بالفندق الفخم لأشتري ملابس رسمية جديدة لكلينا وشريحة هاتف ولاب توب جديد، وضاعت قرابة الساعة وأنا أحاول الاتصال بمقر الشركة في دبي، لا أحد يجيب، تذكرت فارق التوقيت، الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا في دبي، عليَّ الانتظار ساعتين وقتل الوقت، سبع ساعات من التحليق شرقًا جعلت مني مستيقظًا كالبومة.

بحثت عن مقهى هادئ وبدأت في تناول جرعات مطردة من الإسبريسو وأنا أعد اللاب توب الجديد للعمل، قمت بتحميل كل ملفاتي الشخصية من على السيرفر الخاص بي في دبي ثم غيَّرت كل كلمات المرور. الشخص الذي سطا على جهازي القديم لن يستطيع الولوج إلى شبكة ملفاتي السحابية ولكنه للأسف في حوزته كل ملفاتي، ربما سيبيع الجهاز لمراهق يقوم بمحو الملفات وتحميل الألعاب وأفلام البرونو بدلًا منها.

لم يذهب الجهاز لمراهق ما، بل ذهب رأسًا إلى من يريده. اتضح لاحقًا أن كل شيء حدث لنا منذ وصولنا هونج كونج حتى خروجنا منها، كان مدبرًا، لم تترك ولا حتى تفصيلة صغيرة للصدفة، لقد كان فخًا!

***

أهـلًا بك في مدينة هونج كونج، مسـمار الرأسـمالية المدقوق في قلب الشرق الآسـيوي، بقعة إسـتراتيجة انتزعتها شركات التجارة البريطانية من فم التنين الصيني في أواسط القرن التاسع عشر كغنيمة لحرب الأفيون الأولى، تلك الحرب التي بدأت عندما قررت بريطانيا غزو الصين بتجارتها بعد أن سيطرت على الهند ولكن التجار البريطانيين كان عليهم دفع قيمة صفقاتهم بالفضة. لجأت بريطانيا إلى استبدال الفضة بالأفيون الذي زرعته في شمال الهند، وعندما أدمن الشعب الأفيون واستشرى أمره قرر الإمبراطور الصيني الحرب على تجارة الأفيون، مما دفع البريطانيين والفرنسيين إلى غزو الصين وسـاعتها استسلم الإمبراطور المسـكين للأطماع الرأسمالية للعالم الجديـد ومنح الإنجليز أحد المواقع الإسـتراتيجية التي تحولت من ميناء فقير للصيادين يسمى "ميناء العطر" إلى هونج كونج، درة التاج البريطاني في تخوم الصين.

***

درجة الحرارة تجاوزت الثانية والثلاثين والرطوبة ودودة جدًا ولا تتوقف عن الالتصاق بك أينما ذهبت، تعتصر مسام جلدك وتستنزف العرق منك بلا توقف. البشر هنا قلقون، يهرولون في كل مكان وكأن القيامة ستقوم بعد نصف ساعة تقريبًا، ناطحات السحاب تتزاحم فوقك والسيارات الفارهة تمرق من حولك والمتاجر مكتظة عن آخرها، المال هنا يتحرك بسرعة الضوء والكل يعدو للحاق به. الصينيون هنا لا يشبهون الصينيين الذي اعتدناهم، الصينيون هنا فاحشو الثراء، مدججون بالسلاسل الذهبية والبزات الإيطالية

الأنيقة والساعات السويسرية، يترجلون من الفيراري والرولز رويس، أباطرة المال من ذوي العيون الضيقة يتحدثون في الهواتف طيلة الوقت بينما يهرول الموظفون التنفذيون للحاق بكل شيء وأي شيء.

الدكتور يلهث خلفي ولا يكف عن الشكوى من حرارة الجو ومن النقص الإستراتيجي في ملابسه الداخلية، فشل في العثور على مقاسه في بلد أغلب سكانه صغيرو الحجم. كنا نهرول في الطرقات بحثًا عن مقر الشركة المطلوبة في حي "شونج وان"، الحي الذي يحوى أكبر عدد من ناطحات السحاب في العالم. عنوان الشركة المذكور على الموقع الإلكتروني يختلف عن العنوان المسجل في بورصة الأوراق المالية هذا بالإضافة لعنوان ثالث مسجل في الوثائق التي كانت بحوزتنا، العنوان الأول كان عبارة عن حفرة عميقة لمشروع برج قيد الإنشاء والعنوان الثاني فقد حمل اسم شركة أخرى تدعى "إتش كي ون هولدنج". تحدثنا إلى الموظفة الموجودة في مكتب الاستقبال الفاخر فلم تحرك ساكنًا، ظلت ترمقنا ببرود لدقائق قبل أن تأمر الأمن بطردنا عندما ألححنا.

لم يكن أمامنا ثم العنوان الثالث المسجل في الوثائق فمضينا نفتش عنه، سألنا في أكثر من خمسة عشر مكتب استقبال حتى انقضى النهار ولا أثر.

اتصل بي في المساء مديري أبو وليد بعد أن تركت له ثلاث رسائل مع مديرة المكتب، الفاتنة سوزانا ذات التنهيدات الملتهبة، بدبلوماسيته اللبنانية المنمقة حاول أبو وليد أن يسـايرني ولكنه بدا منزعجا من فكرة ذهابنا إلى هونـج كونج بهذه السرعـة، مع الوقت تغيرت نبرة صوته بشـكل كبير،

وخالجني شعور بأنه يتحدث بحذر وكأن هناك أحدًا ما يراقبه، شرحت له أن الشركة بلا أثر. صمت قليلًا ثم غمغم بشيء غير مفهوم ثم طلب بعض الوقت ليتباحث الأمر مع شريكه الخليجي "أبو حمدان". ألقيت بالهاتف جانبًا غير مكترث ووقفت أتطلع نحو أضواء هونج كونج في الليل، أشعر بالملل من كل ما حولي، من تلك العملية ومن اللف طيلة اليوم بلا جدوى، يستفزني هذان الاثنان بعجرفتهما وكلامهما الأجوف الذي بلا معنى، أبو وليد اللبناني ربما ترعرع وتعلم في كندا ولكنه لبناني بالمعنى الحرفي للكلمة. أما على الطرف الآخر فقد كان هناك أبو حمدان. هذا الرجل هو بنك جينات عربي متحرك، ينحدر من أصول عراقية-فلسطينية-أردنية من ناحية الأم ويمنية من ناحية الأب، أضف إلى ذلك جنسية وتنشئة خليجية، هذا هو الفرابتشينو العربي المكتمل بطبقات الرغاوي والنكهات. أنا في هونج كونج منتظر أمام الهاتف نتائج المباحثات الدائرة في دبي.

***

هاتفني أبو وليد للمرة الثانية وتحدث كثيرًا، كنت منصتًا وتركيزي منصب علي شيء واحد فقط أحاول الوصول إليه، لو سألتني لماذا كانت لدي شكوك حول الشريكين؟ لقلت إنهما يكشفان أنفسهما، من السهل أحيانًا أن تكتشف خداع شخص ما، فقط دعه يكرر القصة مرة تلو الأخرى وسترى في كل مرة ثغرات جديدة، الكذب هو الذاكرة في أسوأ حالاتها.

عندما استدرجت أبو وليد ليحكي القصة مرة ثانية على الهاتف، أخطأ في التفاصيل، قال إن المفاوضات جرت عبر شركة وسيطة، كان هذا مختلفًا

عما ذكر في اجتماع دبي، لقد أكدوا من قبل مرارًا أن المفاوضات تمت مع الشركة الأم مباشرة ودون وسطاء، وها هو أبو وليد على الهاتف يبلغني باسم شركة وسيطة أجرت المفاوضات تدعى "إنفيست كوبوريشن"، كم يبدو الاسم مألوفًا جدًّا! إنه اسم لا يدل على أي شيء على الإطلاق!

مر يومان آخران جُبنا فيها المواقع الإلكترونية وسجلات الشركات المسجلة والأبنية الشاهقة، ولم نصل إلى أي شيء، تائهان في بحر هونج كونج الضخم بلا أي علامة تقودنا لشيء ما ذي قيمة، المئات من الشركات الاستشارية تحمل أسماء متشابهة، وكأنهم أبناء غير شرعيين انحدروا من نفس الأب اللعين. المحصلة، رحلة بحث بلا جدوى. شعرت بغصة وأصابني الإجهاد قبل أن أهتف في منتصف الشارع:

"هذه المزحة ليست مضحكة.. لماذا نبحث عن شركة وهمية؟!".

يتطلع نحوي عجوز صيني بهلع، تصادف مرور رأسه الصغير بمرمى طلقات صوتي الغاضبة. رمقني الدكتور بنظرة استفهام قبل أن يريح مؤخرته على مقعد محطة الحافلات:

"أنا لا أفهم!! أنت الذي قررت المجيء إلى هونج كونج بلا معلومات كافية.. هم لم يطلبوا منا القدوم إلى هذا المكان العجيب.. أعجز أحيانًا عن فهم ما يدور في عقلك".

"أنا أشك في الأمر برمته.. لماذا يكذبون؟ في البداية منحونا ملفًّا فيه اسم شركة.. ثم طالبونا بالبحث عن أخرى..".

"لا يهم.. دعني أصدقك.. هم نصابون ولكن لماذا سيختلقون أمرًا كهذا؟ ويدفعون أتعابه؟".

"ليس هذا هو السؤال.. السؤال الحقيقي هو لماذا اختارونا نحن؟ على أية حال.. أنت الخبير.. أخبرني يا عبقري!".

"أشكرك على تلك الثقة ولكنى لا أبالى لماذا وقع اختيارهم علينا.. وإذا كان الأمر صحيحًا أم لا؟ لقد حصل كل منا على خمسة وعشرين ألف دولار دون أن نغادر مكاتبنا في دبي.. لم يضعوا شروطًا.. عليك أن تسترخي وتعتبر الأمر أي شيء إذًا.. دعني أخبرك بشيء مهم للغاية.. في عالم المال لا شيء يهم سوى المال.. لا أحد يهتم حتى بأن يفهم متى؟ وكيف؟ المهم هو المال".

جلست إلى جواره مستسلمًا وأنا أراقب الحشود التى خرجت من المكاتب بعد انقضاء ساعات العمل، ألوف من الآسيويين والأوروبيين يهرولون نحو محطات المترو والحافلات عائدين إلى منازلهم كالمذعورين، تمتلئ عربات الطعام بالبشر مع حلول الليل ونجرب أنا والدكتور طبقًا من حساء النودلز الذي تغوص فيه قطع الدجاج ويعوم على وجهه بيض. ما زلت شاردًا أفكر في كل شيء، لا شيء يشير إلى أننا سننجح في الوصول إلى شيء، لقد قضيت قرابة الساعة غارقًا في أبعاد نظرية اللاشيء الديناميكية، ربما ليس للأمر علاقة بالمهمة، أنا تائه في طيات نفسي ولا أفهم ما الذي أريده حقًا، لماذا غيرت حياتي واشتغلت في عالم المال؟ أنا لست من عشاق المال. أنا الآن أشبه رقمًا تائهًا في معادلة طويلة لا تحل.

استسلمت ليلتها للنوم على السرير الفخم من فئة "الكينج سيز" في غرفتي بالطابق الثاني والعشرين في ذلك الفندق الذي يشبه تصميمه من الخارج مجسمًا لمبنى في الفضاء، ثلاثة وأربعون طابقًا من الألمونيوم والزجاج والأثرياء وحفلات الكوكتيل وخدمات العاهرات من ذوات الخمس نجوم.

صحوت من نومي مفزوعًا على صوت ارتطام مذنب بكوكب الأرض أو سقوط الدكتور على السرير، لقد عاد مخمورًا كعادته من سهرة ما في حانة ما والآن بدأ يعزف الموسيقى بأنفه.

واقفًا أتطلع من خلف الزجاج نحو الأبراج التى ظلت تضوي طوال الليل بلا توقف، يسقط المطر فجأة وتومض السماء ببرق خاطف. فجأة، تتوقف عيناي على نافذة هناك في البرج المقابل، هناك أحد ما يطل عليّ، أدقق ولكن المطر المنهمر يحول بيني وبين الضوء الخافت المتسرب من هناك، هل هي خيالاتي التي تراودني أم أنه شيء ما يحدث ولا أفهمه، كيف أكون على يقين هكذا بأن أحدًا ما هناك يطل علي. أتطلع نحو الزجاج محدقا في المطر، هناك شيء ما يتحداني ولا أعرفه. لم أكن أعرف أنه سيظل يتبعني لسنوات.

***

قفز الدكتور من السرير بعد أقل من ساعة مهرولًا نحو الحمام، يبدو أنه أصرف في اختزان محتوى كبير من البيرة وعليه تصريفه، في طريقه للعودة لم يستطع الوصول للسرير حيث ارتطم بالطاولة وسقط على الأرض وسرعان

ما بدأ العزف مجددًا من موقعه الجديد على أرض الغرفة بلا كلل.

أضع سماعات الموسيقى في أذني وأتحسس بكفي الزجاج البارد. الآن بدأت أشعر بتحسن أجواء الطقس داخل جمجمتي وانقشعت السحب. على إيقاع الموسيقى وومضات الأضواء الساطعة في أفق المدينة بدأت أغير من تفكيري، لم يعد يعنيني كثيرًا المهمة وتفاصيلها، أريد فقط الوصول إلى حقيقة ما يدور.

5

المهمة بدأت عندما طلب منا المدير التنفيذي للشركة أن نصعد إلى مكتبه على وجه السرعة. في المكتب الفخم ذي الواجهة المطلة على شارع الشيخ زايد، وجدنا الشريك الآخر، أبو حمدان. رجل ملتوٍ، يكسو نفسه بالمظهر الخليجي، نادرًا ما يظهر في الشركة، ولكن عندما يحضر كان يظل طيلة الوقت يعبث بشيء ما فادح الثمن، هاتفه الذهبي المرصع بالجواهر، القلم الموِن بلان، التمثال الذهبي لرأس صقر موضوع على المكتب، أو حتى أذنه اليسرى. لا يتحدث إلا نادرًا ويترك تلك المهمة لشريكه اللبناني الثرثار اللبق. ولسبب ما لولبي كان هو الذي تولى زمام المبادرة وأسهب في الحديث خلال اللقاء الذي تم في المكتب ووسط سرية شديدة. باغتني بابتسامة خاصة وعريضة بحجم نفق الشندغة. انطلق في مقدمة طويلة

ومعزوفة منغمة أبدع فيها وكأنه قائد أوركسترا سيرك المخبولين، لا هو حديث في الاقتصاد ولا هي معلومات مالية حقيقية ولا حتى طريقة تقشير الخضراوات قبل سلقها، كان فقط يتحدث وكأنه ظفر بالميكروفون بعد سنوات من انتظار دوره. ألقى أمامنا ملفًّا كبيرًا من الأوراق، ذاك كان الملف المشئوم.

تلك الأوراق كانت أول درجة سلم نحو قبو الخفافيش الذي سقطنا فيه.

أحيانًا يحلو لي أن أتخيل طاولة الاجتماعات تلك بزجاجها الفاخر كطاولة القمار. لقد دخلنا اللعبة معصوبي الأعين ودون أن نعرف قواعدها أو حتى شكل الأوراق التي نقامر عليها، لقد دخلنا اللعبة التي لن نخرج منها أبدًا.

***

ها أنا بعد سنوات، وفي نفس المبنى، وفوق طاولة زجاجية، أجلس مطالعًا أضواء الأسطورة، لا شيء يكبح جماح المارد الذي فرش جناحيه على شاطئ الخليج العربي ورفع رأسه نحو السحاب. عندما ولدت أنا كانت تلك الطرقات ليست سوى بقعة مظلمة منسية في العالم الكبير، انظر لها الآن جيدًا، أنت تطالع أهم نقطة في المنطقة كلها، من بيوت بدوية بسيطة تظلل أحواشها شجر النخيل وميناء صغير للبضائع التي تأتي من الشاطئ الآخر للخليج إلى حلبة سيارات فاخرة وبنايات أسطورية تصعد نحو آخر مدى البصر ومقرات لكل عتاة الرأسمالية العالمية من بنوك وشركات

متعددة الجنسيات وصفوة الماركات الباهظة والنادرة على وجه الكوكب. لم يكن أحد يتخيل قبل قرابة عقدين أو ثلاثة ما الذي ستفعله تلك البقعة الصغيرة بالعالم.

تلاحقني الذكريات وتهرول خلفي وأنا أعدو وأعدو. إعصار من الصور والذكريات يهب بقسوة ويعصف، كل ما حدث بدأ يطاردني فجأة وبكل قسوة، تتابع الصور من ذاكرة مشحونة وأتحرك في زمن ثقيل لا يعرف بدايات أو نهايات. من هذا الرجل الذي يقف عند الطرف الآخر من الأحداث؟ أنا وأنا وبيننا كل الأحداث الملتبسة. تلاحقني صور الذاكرة من كل المطارت، مدن العالم، الطرقات، الحانات، البنوك، قاعات المضاربات، مكتب الاجتماعات، الملفات، الشيكات، الأرقام، التقارير المالية، الدكتور، مايو، ساتومي، و... كاميليا.

آه، كاميليا. أين هي الآن؟ لعلها انتقلت إلى مكان آخر في بروكلين، تجلس في غرفة بعيدة تستمع لأسطوانات موسيقى الجاز وتشرب كأس نبيذ أخيرة في صحتي، تطوح رأسها للخلف ويتهدَّل شعرها الناعم على ظهرها قبل أن تغني لي أغنية الوداع.

هـا نحن ذهبنـا بعيدًا أيتها الفاتنة. كل ما حكيتـه من قبل لم يعد سرًّا، صرتِ تعرفين كل شيء عني، وها أنا أسرح في قصتنا. أستطيع أن أجلس لسـنوات وسـنوات أتذكر ملامحك، عينيك، لكنتك ورائحة ثيابك. كم عجيب أن بعض السـاعات والليالي تسـتطيع أن تخلف وراءها سـنوات مـن التذكر والتفكير والأحلام. إن الوقـت هو بحق أغرب المخلوقات.

يستطيع أن يسجنك أو يحررك. يطويك في لحظة ويمحوك دون أثر وأحيانًا أخرى يجمدك ولا يمر، يبقيك ساكنًا في مكانك ولا يتحرك إلى أية وجهة. أنـا والوقت الآن على حافة الصراع، يحـاصرني بطوفان من الذكريات في الوقت الذي يضيق عليَّ من كل صوب بمهلة سـتنتهي خلال سـاعات. عليَّ أن أفعل شيئًا، أي شيء، على وجه السرعة.

الوقت يمر ولا يلوح في الأفق مخرج. أين سأجد مايو والدكتور؟ أين سأفتش عن كاميليا التي رجَّت رأسي بعنف واختفت؟ أين سأجد عقلي الذي كان يعربد في العالم ويصنع حوله هالة من الجنون؟ لقد رحل الجميع وبقيت وحدي، الجميع تركني. ساتومي قرأت عيني فضربت بغضب في تلالها البعيدة وكاميليا هددتني بتسليم كل ما لدي، إنه فحص قلب يشير إلى أن الحالة لم يبقَ أمامها سوى ساعات، لقد أوصدت الأبواب بضربة واثقة، سحب قبلها الدكتور يده من يدي واختفى في وداع أليم. أنا وحدي ولا أحد حولي لستُ سوى مجنون يطالع مجنونًا، لا عقل لديهما ليبدآ الحوار.

آه من رأسي، خاوية تمامًا كصندوق آلة التشيلو الكبير، لا يحوي سوى الفراغ الصامت الذي لم يعد يردد الصدى. ماذا سأفعل وإلى أين سأمضي؟ آه، تذكرت شيئًا واحدًا معقولًا أستطيع أن أفعله في هذه اللحظة، أن أفتش عن سيجارة.

علبة سجائر ماركة "جيتان" تستقر منزوية في أحد أدراج المكتب، هذه هي سجائري المفضلة، لقد ترك لي الدكتور تلك العلبة. إنه يعرفني، يعرف أني

سأعود للتدخين يومًا ما. ثلاث سنوات لم أقترب فيها من السجائر، ثلاث سنوات منذ غسل الهواء البارد صدري في الطريق صعودًا إلى مرتفعات الهيمالايا. منذ ذلك اليوم وأنا قررت أن أتوقف، ثلاث سنوات أمسك في يدي سيجارة ولا أشعلها.

أطلق سحب الدخان بعدما استقررت مجددًا فوق الطاولة. المدينة تسبح في أضواء الليل وترسم ممرًا للهابطين من عوالم أخرى ليتطلعوا. تشرئب أعناقهم ويتطلعون نحو كل ما هو فاره، يحلمون بما هو مبهر وباهظ ويستيقظون على فداحة التكلفة. الحلم باهظ الثمن وأمامك إما أن تدعي أنك تسكن فيه بينما أنت في الحقيقة على حافته، أو أن تكف عن الادعاء وترحل.

مدينتي الأثيرة التي صارت مرادفًا لي أينما ذهبت. "مجنون دبي" التصق اسم دبي بي في شراكة تشبه مسميات العلامات التجارية. لقد قال لي مايو الفيلسوف إن هذا الاسم هو لعنتي الكبرى، أين مايو الآن ليشرح لي كيف حدث كل هذا ومتى ولماذا؟ عقلي يوجعني، أريد أن أنعتق من كل ما فيه من ضجيج.

كاميليا، تلك الفاتنة، عيناها تلمعان ببريق مجرة تحتوي على بليون نجم، لا شيء يضاهي بريق عينيها. أفكر في كاميليا الآن وأنا ثابت في ظلام المكتب أتطلع نحو العالم، أستطيع أن أظل هكذا لسنوات، أنا حجر ضربته عاصفة مطر استوائية ثم حمله السيل نحو مجرى النهر وظل يتحرك آلاف الأميال حتى المصب، أنا الآن ذلك الحجر المتعب.

***

أتذكر ملامح الدكتور الحيادية وهو يطالع الملف ويتناقش مع الشريكين المتحذلقين، الملف الضخم يحتوي على أوراق تلو أوراق من الصعب على أمثالي فهمها. غطست برأسي طويلًا في الملف ثم تطلعت حولي بكثير من البلاهة، نظرة ترسم ملامح لرجل في محطة قطار طوكيو المركزية وهو يتابع جحافل البشر وهم يتحركون في كل صوب واللافتات باللغة اليابانية التي لا يفهم منها حرفًا.

"الآن ماذا؟" انطلقت مني هكذا ثم فغرت فمي كالعبيط.

تكفلوا بتبسيط الأمر مشكورين. لقد كانت المهمة الموكلة لنا أن نتواصل مع شركة استشارات آسيوية قامت بالمماطلة بعد حصولها على تحويلات مالية كاستشارات مباشرة في مشروع برج إداري بقلب سنغافورة سيعقبه مشروع آخر لمركز تجاري في دبي. تلك المشروعات المزعومة قد تعثرت مما ترتب عليه قلق المستثمرين وانسحاب شركتنا.

عظيم جدًّا! وماذا الآن؟ أنا والدكتور علينا أن نقوم بعمل تقصٍّ شامل حول الوضع المالي للشريك الآسيوي واستشاراته ثم الشروع في طلب تسوية واسترداد باقي حصتنا. بحسب تعريفهم ستمنحنا الشركة تفويضًا رسميًّا للتعامل مع الأمر رغبة في عدم اللجوء للتقاضي، المستشارون القانونيون للشركة أشاروا بأن فض النزاع بالطرق القانونية سيطول أمده نظرًا لوجود ثغرات في الاتفاق. شركتنا المتخصصة في إدارة محافظ الاستثمار تحاول تجنب أي لغط حول الأمر لأنه سيُلحق الضرر باسم الشركة ووضعها في سوق دبي المالي.

الوقت ليس في صالحنا، هكذا أكد الشريكان مرارًا وتكرارًا. وقعنا على الأوراق التي تثبت صفتنا الجديدة كمفوضين للشركة. بالطبع كان العرض مرصعًا بمنحة مغرية تبلغ قيمتها خمسة وعشرين ألف دولار لكل منا، بالإضافة لحساب بنكي مفتوح لتغطية كافة نفاقات المهمة.

أنا كنت قلقًا منذ اللحظة الأولى، قررت أن ألقي ببعض الأسئلة المحورية التي تفتق عنها ذهني. كل الإجابات جاءت جيدة. بعد سنوات مما حدث عرفت لماذا كانت الإجابات جيدة؟ هذا يشبه المشهد الذي تقوم فيه المراهقة بسؤال الشاب إن كان سيظل يحبها للأبد ويومئ بنعم، إنه ذلك المشهد الأبله المعروف، الإجابات جيدة لأن الأسئلة كانت ساذجة، هذا كل ما في الأمر.

انتهى الاجتماع بعبارات فخمة ورنانة تتمحور حول أننا يجب أن نكون محل الثقة وأن نثبت قدراتنا إلى آخر القائمة الذهبية المملة. خلطة التحفيزات الشهيرة التي يصفها المديرون في كل مكان. عليك أن تثبت جدارتك، سيكون مستقبلك مشرقًا معنا، لا شيء اسمه مستحيل، لقد انتقيتك أنت لتحصل على هذا الشرف الرفيع، سلم النجاح يبدأ من هنا والمصعد متعطل للصيانة، الترقيات تنتظرك بالأعلى، النوتيلا بالآيس كريم هناك وكل الأشياء الحلوة!

تلك الفياجرا الشفوية كان كل ما حصلنا عليه في ذلك الاجتماع مضافًا إليه خلطة بهارات مؤلفة من مقدار من الود ومقدارين من الحزم مضافًا إليهم شوربة العجرفة التي يمتاز رجال الأعمال بامتلاك غدد خاصة لإفرازها

طيلة الوقت، تجرع الدكتور الخلطة وخرج متحمسًا بينما أنا بكل تأكيد كانت معدتي لا تفهم شيئًا مما تجرعته للتو، لم أفهم ماذا يجب أن نفعله تحديدًا؟ ما المطلوب؟ عمَّ سنبحث تحديدًا؟ علامَ سنتفاوض؟ كيف لاثنين مثلنا أن يجدا مخرجًا لنزاع استثماري معقد كهذا؟

***

"هكذا؟" تسأل وعيونها مفتوحة كطفل متلهف على معرفة الحكاية.

وبينما أنا صامت أراقب البشر العالقين في محطة المترو الواقعة بشارع سبرنج ستريت، هتفت كاميليا:

"ما زلت لا أفهم سبب اندهاشك!".

توقفت وسط جموع المارة المهرولين ونظرت نحوها:

"فكري قليلًا في الأمر. مهمة أوكلت لموظف جديد لم يدرس سطرًا في علم الاقتصاد أو إدارة الأصول أو قوانين الاستثمار الدولية والدكتور.. ربما عليَّ أن أشرح لك من هو الدكتور في ذلك الوقت... أيرلندي سكير يعاني من مشكلات لا تحصى ومشهور في السوق كله بأنه شخص ثرثار وعنده مشكلة كبيرة في القدرة على التركيز.. باختصار لقد انتقيا أسوأ اثنين في الشركة.. هذا هو الأمر الذي لم أستسغه.. وقف في بلعومي ولم يمر".

"إذا كان لديك مخاوف فلماذا قبلت إذًا؟".

فكرت قليلًا وسرحت محاولًا تذكر الأمر، لماذا قبلت المهمة بالرغم من يقيني بأن هذين الشخصين يعلمان أننا لا نصلح لأمر كهذا؟ ربما كانت تلك النقطة هي ما استفزتني وشحنت الأدرينالين في عروقي، لقد دخلت

تلك المهمة بقدمين مفلطحتين وابتسامة عريضة ورابطة عنق حمراء غبية، لا لشيء إلا لأفهم لماذ أوكلا لنا المهمة؟

بالطبع لم يخطُر هذا على بالهما قط ساعتها، لقد ظنا أن المنحة المغرية هي السبب، الشكل الذي رسموه للأمر كان مقنعًا لهما، إنه الشكل أو من الممكن أن تسميه بالإطار الذي يحاك دومًا في تلك المدينة ويقاس به الوافدون والوظائف. أعلم أن أول إطار تم تصنيفي تحته هو "مهندس كمبيوتر"، مما يعني أنني لم أكن ذا خبرة أو قيمة وسط عالم المال، سبَّاح يقف في ملعب كرة قدم، أضف إلى ذلك تصنيفي كعربي ومصري. الخلاصة، لم أكن ذا أهمية تذكر. أليس من الغريب أن يكون هذا هو الإطار المناسب لهم؟ أما الدكتور فقد بدا أنه هو أيضًا مهم لسبب ما، ربما كان يجب أن يضعاه على رأس الأمر ليبدو في ظاهره منطقيًّا. الدكتور موظف قديم في الشركة ومختص في سوق المال ولكن من يعرف ببواطن الأمور سيفهم أن الدكتور لا يملك أي مقومات تفيد في تلك المهمة.

كل ما فعلا خلال الاجتماع كان يستفزني، يمارسان معنا لعبة المديرين المملة، لعبة طرفي الحبل الشهيرة، لعبة مستهلكة تقليدية كشفتها نظراتهما المتبادله وسوء اختيارهما للأدوار، أبو وليد كان يستطيع تمثيل دور الطيب بطريقة أكثر إقناعًا. لا يهم، فقد كان الاثنان مكشوفين بالرغم من اقتناعهما الشديد بأنهما بارعان، مشكلة المديرين الأبدية، إنهم يصدقون أنفسهم فقط.

سنوات العمل الأولى كموظف في مدينة مثل دبي، عرفتني على مهارات

التعايش مع المديرين. المتطلبات الوظيفية اليومية في دبي ستعلمك كيف تصبح نموذجًا للموظف النصاب. كيف تكذب جيدًا في المقابلة الشخصية، كيف تبيع نفسك لمديريك، كيف تبيع نفسك للشيطان، وكاش، كيف تتملق بذكاء ودون أن يعتبرك الآخرون منافقًا متملقًا، كيف تمتص توجهات مديريك وتقنعهم بتوجهات أخرى لتوفر على نفسك الشقاء اليومي في تحقيق مهمات هيسترية وفارغة.

هكذا كانت دبي في تلك الأيام، لم يكن أحد يهتم ببراعتك وسط ألوان وأشكال من الوافدين. الشركات كانت تجتهد من أجل وجاهة العروض والصور التي تبرز أسرة خليجية سعيدة تعيش في رفاهية مطلقة، وتقارير شهرية تبرز نموًّا لكل شيء وأي شيء، حتى ولو كان نمو نبات الظل الموجود في مدخل المبنى. هذه هي دبي، يجب أن تعتلي قمة كل تقارير "الأي شيء" العالمية.

علمتني دبي في سنوات وظيفتي الأولى قاعدة واحدة ذهبية لفنون العمل في بيئة مجحفة للتنفذيين من أمثالنا. تلك القاعدة لم تكن موجودة في أطنان الكتب المتراصة في قسم تنمية المهارات بمتاجر الكتب ولا في برامج ماجستير إدارة الأعمال الفارغة، القاعدة الذهبية تتلخص في إستراتيجية: "اشغل مديرك حتى لا يشغلك"، أو بمعنى آخر، الوقاية خير من العلاج. لا تترك صندوق بريده فارغًا أبدًا، لا تترك مساحة في رأسه ليفكر في عمل يوكله إليك، أغرقه في كل التفاصيل الساذجة، اختلق تقارير فرعية تشرح فيها التقارير الرئيسية، تحدث كثيرًا عن الوضع الإستراتيجي وضع مقدمة رنانة

ونقاطًا طويلة ومرفقات وكل ما في جيبك، اجعل الطاولة مزدحمة أمامهم دومًـا ولا موضع فيها لكوب ماء. فقط إيـاك وأن تتركه خاليًا. إذا طلب مديرك معلومة بلهاء عن أحد الأسـهم فلا تتوانَ عن إرسال تاريخ تلك الشركة كاملًا والبيانات الصحفية المنشورة عنها وقياسات السوق للسهم ونوع الملابس الداخلية التي يرتديها الشركاء وحاملو الأسهم.

في دبي وعالم الشركات متعددة الجنسيات لا يتطلب منك الأمر أن تكون مجتهدًا. الشركات الكبرى تكبر تعقيداتها مع الوقت حتى تصير ثقيلة وباهظة التكلفة. مساحة الاجتهاد تعلق دومًا في القاع. المديريون لا يأتون من الأسفل، سيهبطون من الأعلى بالبراشوت قادمين من مناصب إدارية عليا في شركات منافسـة. أنت تدور في حلقة المرتـب والإيجار والنفقات ولن تخرج منها. كل ما سوف تحصل عليه في النهاية هو راتب مفخخ بإيجار شهري يرتفع ومسـتوى معيشة يفرض عليك بذخه. لا يجب عليك هنا أن تهتم بمقدار مـا تفعله، ما يهم هو كيفيـة تقديمه بصورة براقة. دعك من كتب الكفاح وتنمية المهارات وتعلم كيف تعيش في هذا العالم وكيف تبيع نفسك بسعر جيد. الشركات المجتهدة تخسر دومًا المنافسة أمام الشركات التي تجيد صنع البروبجندا، أما فكرة النمو والارتقاء في سلم التطور الممدود بطول وعرض الشركات المتعددة الجنسيات فهي أكبر دعابة ستفهمها وستضحك عليها بعد فوات الأوان. السلسلة المكونة لهذه الشركات تتلخص في مجموعة من المستثمرين الشرهين للمال ومضاعفة الأرباح.. يتربعون على القمة. هؤلاء هـم من يتنعمون برحلات الدرجـة الأولى والقصور الفخمة والأرصدة

البنكية المرعبة التي تنمو كالسرطان. لا يأتون لمقر الشركة سوى لساعات محـدودة يقومون فيها بتمزيق المديرين التنفيذيين إربًا وضغطهم بقوة تجاه مضاعفـة الأرباح. ومن ثم يصب المديـرون التنفيذيون هذا الضغط على رؤوس مرؤوسيهم ومنهم إلى باقي الموظفين وهكذا. بخار الضغط يمتد عبر أنابيب السـلم الوظيفي حتى يصطادك أينما كان موقعك الوظيفي في الشركة. ستضاعف ساعات عملك وستصدق مديريك الذين سيمنحونك وعودًا بالترقي وزيادة المرتب في حالة مضاعفة الأرباح والمبيعات. اعمل كالحمار ليل نهار ومنِّ نفسك ببضعة آلاف تسدد بها أقساط سيارة أحدث بينما المسـتثمر يضاعـف ملايينه ويبتاع يختًا باهظًـا أو قصرًا بإحدى جزر الكاريبـي. هذا هو السـلم الوظيفي الذي باعوه لـك عندما تخرجت في الجامعة واجتهدت لتحصل على وظيفة محترمة في شركة كبرى.

مرحبًا بك في العالم الرأسمالي والشركات التي تبيع أحيانًا الهواء للبشر. انضم للآخرين واسترخِ، لا تشغل بالك بكل التحفيزات والخرافات. أبدع في المقابلة الشخصية واجتهد في تصفيف شعرك وتلميع حذائك وإحكام رابطة عنقك لتأخذ دورك في منتصف السلم. هناك طابور من ملفات السير الشخصية يمتد من أستراليا والهند شرقًا حتى كندا غربًا ليصب في دبي. الكل يستميت من أجل اللحاق بمؤخرة الوضع المالي المنتفخ. دبي مدينة الوظائف ترحب بكم.

***

تنفجر كاميليا ضاحكة ويتطلع نحونا الجميع بينها المترو يقطع المسافة المتبقية من رحلتنا لبروكلين.

"لديك أفكار غريبة ومقلوبة. تقريبًا نصف الشباب على هذا الكوكب يحلـم بالعمـل في دبي. ولكن... أممـم ما زلت لا أفهم. هـل تحب دبي أم تكرهها؟".

تطلعتُ أمامي مشدوهًا وكأن المفاجأة كانت صادمة. مجرد سؤال عابر جعلني أغرق في حيرة لا نهائية.

"وهنا عجز المجنون عن الإجابة".

تقول كامليا قبل أن تمضي وسط الزحام.

6

الغوص في الماء الساخن.

"لو كنت تملك مليار دولار ماذا كان سيبقى حالك؟".

زفر غير مكترث:

"لا شيء مختلف عما هو الآن".

"كيف هذا؟".

"لأن هذا المال لديّ بالفعل ولم أفعل شيئًا".

إنه يمازحني! لم يغير قبعته منذ عرفته ولم أرَ عليه أي أثر للثراء قط. ربما كان أحيانًا يجلس مع أثرياء ومشاهير في أفخم الأماكن ولكنه كان يفضل أن يتسكع في أفقر الحانات عندما يكون وحده، يتنقل بين أقبية أو بيوت قديمة بضواحي المدن وأحيانًا يخيم في العراء، يمضي كرجل

بلا وطن يعود إليه أو وجهة تنتظره، خفيفًا وكأنه لا يقتني شيئًا، وغريبًا كأن الزمن لا يعرف له طريقًا.

لا يمكن أن يملك كل هذا المال، لعله يريد لخبطة عقلي كالمعتاد، ألاعيبه الذهنية لا محدودة الاستنتاجات، في كل مرة يغيرها كالساحر الذي يغير خدعته كلما شعرت بأنك قريب من كشفها.

يضع منديلًا مبللًا على رأسه ويغطس برأسه في الماء الساخن. أراقب جبال الثلوج من حولنا قبل أن أستسلم بدوري وأغطس برأسي في العين الدافئة المسماة بالأونسين. بعد قليل تأتي فتاة بأقداح الشاي الأخضر فيرتشف قليلًا منه ويتساءل:

"هل وجدت علاجًا لحالتك؟".

"الوضع يتأزم.. لقد بدأت أعمل مع القروش الكبيرة".

"هل تقصد الساسة؟".

"وعائلاتهم وأصهارهم وعائلات عائلاتهم وحاشياتهم وقوّاديهم.. ولكن!".

لا يعلق ولا يحرك ساكنًا.

"هؤلاء ثيران وليسوا القروش! هؤلاء مكتظون، بطيئو الحركة وأغبياء.. ضربة قرن واحدة قاتلة ولكنهم لا يجيدون الحركة أو المناورة.. أينما تلوح لهم بالأحمر يندفعون.. من الصعب عليهم أن يكتشفوا من نكون.. أما القروش.. القروش الشرسة التي تبحر هناك في ظلمات المحيط.. تشتم الرائحة عبر المسافات البعيدة.. لا تتوقف ولاتشبع ولا تأتي فرادى.. المصارف الكبرى هي عمق اللعبة".

"أنت في الوسط بلا غطاء مثل الجميع.. الساسة تحميهم مواقعهم والمصرفيون تحميهم القوانين.. أما أنت فسيهلكك طول اللعب.. ثم ماذا بعدها؟!".

يقتلني بسؤال ليس له إجابة. هذه هي لعبة الفيلسوف المعتادة، يزرع البذرة ويتركها تطن في رأسي بلا توقف. هذا كان لقاؤنا بجبال هوكايدو في العام 2013 بعد أن تجاوزت أعمالنا مئات المليارات. كنت ساعتها قد بدأت أفيق على حقائق غريبة لم أتخيلها من قبل.

يدخن البايب ويبدأ في الحكي:

"المدن التي تعلو نحو السحاب ليست سوى أموال ليس لها مكان. إنهم يصفونها في أبذخ الصور لا كي يسكنها أحد.. ناطحات السحاب المبنية من الألمونيوم من الزجاج ومدججة بأفخم المفروشات والشقق الفندقية التي تعلو السحاب والمكاتب التي لا أحد يعرف ما طبيعة عملها تحديدًا ليست سوى أصول يخزنون فيها التريليونات التي ليس لها مكان آخر.. كل ما تتطلع نحوه ليس سوى واجهات لصناديق حفظ القيمة.. الثروات المتنامية يجب رصها في بقاع ضيقة بالمدن العالمية التي صنعوها ويروجون لها ليل نهار.. إنها خزائن أموال تأخذ شكل ناطحات أسطورية بنيت ببذخ لصيانة عملية تدوير الثروات".

كيف لمايو أن يعـرف كل هذا؟ أنا أعرف كل هذا لأني كنت أحدهم. الأموال كانت تودع في مدن بعينها ويتم تحويلها من صيغة لأخرى، الأرباح السائلة كانت تحول لعقارات فارهة يتم بناؤها بسرعة هيسترية أو شراؤها

بأسعار مبالغ فيها، إنها حسابات ادخار آمنة. نعم يا مايو، كل تلك المباني ليست سوى حسابات بنكية تأخذ صورًا مختلفة، هذا العالم الساذج من حولنا لا يعرف ما يدور خلف الواجهات، نحن نتلاعب بكل سعر يعرض عليه أو يشترى به، نحن نضارب على كل شيء ليرتفع سعره في صالحنا.

يقول لي الدكتور:

"القاعدة الأولى هي أن كل سعر يجب أن يتحرك. وإن تحرك فيجب أن تجعله يتحرك في صالحك".

كنا نضارب بلا رحمة. نحن مدمنون على اللعبة.

"أحد من عملت معهم ذات يوم حكى لي قصة؛ عندما ضربت الطائرة الطابق الذي يكمن فيه مكتب شركته ببرج التجارة العالمي في نيويورك يوم الحادي عشر من سبتمبر.. كان هو يجلس في فرع الشركة في لندن.. بينما كان زملاؤه يموتون لم يجد نفسه يفعل سوى شيء واحد.. أخذ يضارب على هبوط أسهم شركة الطيران.. وجنى ملايين في ساعات معدودة.. إنه جنون اللعبة".

يصمت ثم يهمس بينما يغيب وجهه خلف البخار المتصاعد من الماء الساخن:

"هذا العالم الذي من حولك ليس سوى كازينو قمار كبير".

يغطس في الماء وكأنه شبح وكزني الضربة القاتلة وتلاشى. هنا ونحن في قلب الوادي المغطى بالثلوج والمحاط بأشجار الصنوبر وأضواء البيوت اليابانية الغامضة، أعود للوراء برأسي وأذهب إلى دبي، أفكر في العالم الغريب.

لا أحد يعرف إلى أين تمضي تلك الرحلة. إن كل شيء كان يتسرب من وراء جب عميق في الزمان، لا صرت أنا الذي كنت عليه منذ سنوات، ولا الطريق الذي ذهبت فيه قادني لمكان، أشبه زائرًا هبط من القطار في محطة خاوية وعندما أراد أن يخرج لم يأته القطار ثانية.

7

أفاق الدكتور بعد أن سكبت على رأسه زجاجة ماء من الحجم الكبير. يعاني آثار الليلة الماضية. يعاني صداعًا وصعوبة في تحريك رأسه. هو معطوب هكذا وعليَّ أن انتظر حتى يستعيد وعيه التام. جلسنا في مقهى 18 جرام بشارع وينج لوك نحتسي القهوة بينما أنا في انتظار أن يفيق. رفع الدكتور رأسه قليلًا بعد فنجان القهوة الثاني ثم تلفت ببطء يمينًا ويسارًا قبل أن يهتف:

"واو.. إن الآسيويين قد غزوا دبي تمامًا.. إنهم في كل مكان".

"أفق أيها الأحمق! نحن في هونج كونج!".

انتبه فجأة وكأنه قد أفاق من غيبوبة ثم هتف محتدًّا:

"ما الذي نفعله في هونج كونج بحق الجحيم؟!".

"دعك من هذا الآن.. أريد أن تشـغل رأسـك الفارغة قليلًا فأنا في حاجة إليك".

"ما الذي تخطط له؟".

"لديّ سؤال هام.. ما الذي يفعله سمسار في البورصة عندما يريد الحصول على معلومة عن شركة ما؟ إلى أين يذهب؟".

"عادة نبحث عن سمسار زميل لديه المعلومات".

"عظيم جدًّا.. أريدك أن تفتش في ذاكرتك الفاشلة عن سمسار صديق يعمل في سوق المال هنا.. هل تعرف أحدًا منهم؟".

"ربما".

"ركز يا دكتور.. حاول التذكر..".

رفع أصبعه وكأنه تذكر شـيئًا فطالعته بلهفة متسـائلًا. التمعت عيناه وهو يهتف:

"بريدي الخاص!! أريد إنترنت".

فتحت له جهازي الجديد وتركته يغوص في ملفات بريده القديمة ولم تمضِ سوى دقائق معدودة قبل أن يهتف:

"هـذا.. لا ليس هذا.. هذا.. أوه جـون ابن عمي!! إنه يضارب في بورصة هونج كونج".

"يا إلهي.. أنت عاجز عن حتى تذكر ابن عمك؟! عظيمٌ جدًّا!".

اتصلنا بجون ولكنه أخبرنا بأنه في مكاو وسيحضر غدًا لهونج كونج، عرضنا عليه الأمر فأبدى اندهاشًا كبيرًا ولكنه لم يعلق. طلبنا منه أن يدلنا

على أحد يستطيع المساعدة فمنحنا رقم صديق له يدعى "زيهان يونج". هذا الصيني عندما قابلناه في مكتبه بعد الظهيرة بدا متحفظًا جدًا ولم يعلق، ظل صامتًا لبعض الوقت وكأنه يعتصر ذهنه. قام من مقعده وهاتف كثيرين ودار بينهم أحاديث بالصينية التي لا نفهم منها شيئًا، في النهاية بدا متوترًا قبل أن يقول:

"أنا أثق بجون وأعتبره صديقًا مقربًا ولذلك سأنصحكما بمحاولة تناسي الأمر برمته والعودة.. هذا الشخص سيورطكما في شيء ما".

من؟ وما الذي سنتورط فيه؟ ضغطنا عليه بكل الطرق ولكنه لم يعطنا إجابة قط. خرجنا ساعتها من مكتبه نتلفت مثل أرنبين تائهين في غابة البراري الموحشة. بدأت الأمطار تسقط بغزارة وغامت الطرقات، الكل أخرج مظلته بينما أنا والدكتور نخوض في المطر بلا غطاء، نمضي في الطريق إلى الفندق، صامتين ومطرقين. لم نبارح الغرفة ولم نتحدث سوى ببعض الغمغمات. أراقب المدينة التي ضربتها عاصفة استوائية عبر زجاج الغرفة، غيوم رمادية ثقيلة ومطر مستمر وبرق ينطلق عشوائيًا في خط السماء. غفوت قليلًا قبل أن أستفيق على صوت رنين متواصل لهاتفي، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل وأتاني صوت سوزانا مديرة المكتب على الطرف الآخر، سوزانا التي ترتدي دومًا حمالات صدر ضيقة، أخبرتني بأن أبو وليد يريد التحدث إليَّ ودون مقدمات تذكر قال لي إنه قد حصل على رقم مدير الشركة الوسيطة وأنه مستعد للتعاون معنا. في الصباح هاتفت

المدعو "كاك شين" الذي لم يسألني من أكون ولا ماذا أريد، في التو أعطاني اسم حانة وموعدًا في التاسعة مساءً.

***

في إحدى الحانات الشعبية المزدحمة بشارع "كولون" جلسنا أنا والدكتور ننتظر الرجل المنشود، بينما نحاول قدر الإمكان الإفلات من فتيات الليل. التزمنا الصمت وتبادلنا النظرات طويلًا، شيء ما كان يبدو غامضًا لكلينا ولكننا لا نستطيع تحديد ما هو!

الآن أتذكر تلك الجلسة بكل وضوح. كم من الغريب أن تشعر بأشياء ستحدث دون أن تدري كيف؟! ولماذا ستحدث؟ كان لدينا إحساس ما بأن هناك شيئًا خطأ ولكن ربما ساعتها لم نستطع أن ندرك أبعاد هذا الشعور أو حقيقته الخفية، لقد كنا صامتين في انتظار شيء ما قادم، شيء مبهم لا نستطيع وصفه.

قطع الصمت الطويل ظهور شاب صيني نحيل وطويل القامة على غير العادة، يرتدي قميصًا أبيض ورابطة عنق دون سترة وكأنه قد غادر للتو اجتماعا مهمًا، عرَّفنا بنفسه وطلب بيرة ثم تتطلع نحونا مبتسمًا، ملامح وجهه محايدة وكأنه قد كساه بطبقة من الشمع الباهت، لم يدع الدكتور الفرصة لي وباغت الشاب على الفور بالسؤال الذي جئنا من أجله.

***

قد يكون من العجيب أحيانًا أن تعتقد أنك في موقع آمن من تقلبات الحياة، أو ربما في أوقات معينة قد تعتقد أنك مسيطر على مقاليد الأمور

ثم يظهر أحد ما في توقيت ما ويخلط لك كل الأوراق. في رحلتنا إلى هونج كونج كنا نبحث عن الأشياء الخاطئة في المكان الخطر، لم نفهم هذا إلا متأخرًا.

اللقاء مع المدعو "كاك" كان ظريفًا ولطيفًا ولا يحمل أي صعوبات تُذكر، لقد أخبرنا ببساطة أننا سوف نلتقي بوفد من الشركة في اليوم التالي وأنه قد رتب كل شيء معهم بهذا الخصوص وهم مستعدون للتفاوض. تناول زجاجة إضافية من البيرة قبل أن يتطوع ببعض النصائح عن المعالم السياحية التي يجب أن نزورها في المدينة ثم رحل. تنهد الدكتور بارتياح ثم اكتسى وجهه بنظرة شماتة. أشعر بأني سطل فارغ قد ركله طفل وهو يمر.

تلك الليلة التي بدت في بدايتها رتيبة ولا تحمل شيئًا ما، تحولت فجأة إلى ذكرى لا تُمحى مع الزمن، تلك الليلة التي ألقى فيها القدرُ الفيلسوفَ في طريقنا. ما إن رحل المدعو "كاك"، حتى بادرنا صوت من خلفنا يتحدث الإنجليزية بلكنة غير معتادة وقال:

"لقد وقعتم في الفخ".

من هذا؟ التفتنا نتطلع نحو مصدر الصوت، كانت تلك هي أول مرة تقع فيها أعيننا على ذلك العجوز القصير ذي القبعة الغريبة والشعر الأسود المنسدل على جبهته، يمتلك شاربًا طريفًا، مؤلفا من طرفين خفيفين غير متصلين من المنتصف، يرتدي قميصًا طويلًا من المربعات يكاد يصل إلى ركبتيه، يجلس في الركن وحده تحت ضوء أخضر باهت ينبعث من البار، غارقا تماما في التطلع لأسفل وكأنه سينزلق في هوة أسفل قدميه. أول

مرة رأيته، خالجني شعور بأني أمام شخصية "مانجا" مستوحاة من كتاب رسومات يابانية.

عندما قال إننا قد وقعنا في الفخ، ونظرًا لغرابة شكله، تجاهلناه معتقدين أنه شخص مخمور يحدث صديقًا خياليًا، ولكن بعد وقت قصير، دفعني الفضول لأتطلع نحوه، وما إن وقعت عيني عليه، حتى أشار بأصبعه نحو شخص يجلس عند البار. في البداية لم أفهم، ولكني بعد برهة بدأت أتفحص الشخص الذي أشار نحوه. لم يكن هناك شيء ما يثير الريبة ولم نُعر الأمر اهتمامًا ولكن عندما غادرنا الحانة كان ذلك الشخص يتبعنا، لم يكن وحده بل كان هناك شخص آخر في انتظارنا بالخارج. لقد تأكدت من الأمر عندما توقف الدكتور فجأة في الطريق وهمس وهو يرتعد:

"هناك شخص يسير خلفنا مباشرة".

عندما ينتبه الدكتور نصف الثمل لأمر كهذا، فإن الأمر لم يعد إرهاصات اختلقها عقلي ولا إشارات مبهمة من عجوز. الدكتور أصابه هلع شديد ومضى رأسه يدور فوق كتفيه وكأن عنقه انفلت من موقعه. أمسك بذراعي وأخذ يجذبني لأسفل وكأنه يريد جوابًا شافيًا لما يحدث. لم أكن ساعتها أفهم ما يدور فقد كنت أتطلع نحو الشخصين وهما يمضيان في اتجاهنا مباشرة، لم يكن وجهيهما ينذران بالخير. هتفت في الدكتور:

"اعدُ.. اعدُ".

هل تعرف مقدار سرعتك الحقيقية عندما يداهمك الخطر؟ لقد سبقني الدكتور البدين وكنت أجاهد للحاق به. لا أعرف كم من الوقت مرَّ علينا

ونحــن نعــدو كالمخبولين في طرقات هونج كونــج، ولكني كنت أحاول اللحاق بالدكتور الذي يرمح بين السيارات والأزقة بلا توقف.

لم تكن العودة للفندق فكرة جيدة ولم نعرف إلى أين نذهب. توقفنا نلتقط الأنفاس ونحن نتطلع حولنا بتوجس. ما الذي سنفعله الآن؟ لم أستطع أن أنزع من بالي الرجل الغريب في الحانة ولذلك قررت أن أعود إلى هناك. اعترض الدكتور بشدة واتهمني بالجنون ولكني كنت قد حزمت أمري. عاد بنا التاكسي ودخلت بمفردي إلى الحانة وأنا أتلفت حولي متوجسًا، بينما وقف الدكتور على ناصية الشارع رافضًا الاقتراب. لم أجد العجوز هناك في مكانه ولكن عندما سألت النادل عنه تردد قليلًا ولكن الورقة المالية التي أظهرتها له كانت كفيلة بأن يعطيني رقم هاتفه.

عندما هاتفت مايو ليلتها، أعطاني عنوانًا لمقابلته. جاوزت الساعة منتصف الليل بينما كنا نقف عند العنوان الذي لم يكن سوى محل مغلق. تطلعنا حولنا لدقائق قبل أن يظهر مايو وهو يسير ببطء. في تلك الليلة لم يجب مايو على أي أسئلة طرحناها عليه ولكنه جرنا إلى عالمه وذهبنا خلفه.

أشار نحو الشارع وقال:

"إنهــم في كل مــكان! لا تدخل حقــل البطيخ وتنتظر تحت شــجرة الخوخ". لم نفهم شيئًا فتابع قائلًا:

"إنه مثل ياباني قديم يعني أن عليك أن تتجنب الأفعال التي تفهم خطأ".

توقــف مايو عند إحدى النواصي، وظــل يتطلع نحو الطريق دون أن

يقول شيئا. على الجهة المقابلة منا كانت هناك مجموعة كبيرة من رجال ذي أجسام ضخمة من المافيا الروسية تقف أمام حانة ليلية، يغطون أذرعهم بالأوشام ويلف أحدهم ذراعيه حول فتاتين ملامحهما صينية. يتسكع حولنا بطول الشارع وعرضه الكثيرات من العاهرات الآسيويات والشقراوات في ليلة بدا فيها البحث عن عميل سكير مهمة ليست بالسهلة. الشارع يثير توترنا بينما العجوز كان هادئًا تمامًا في انتظار شيء ما قادم من وراء الحوانيت الصينية التي كانت تغلق أبوابها.

بعد مرور وقت طويل اقترب شاب صيني يرتدي حلة ماركة جوتشي باهظة الثمن وسلاسل ذهبية. ابتسم عندما رأى العجوز فأنقده على التو مبلغًا من المال قبل أن يدس العجوز في يده لفافة صغيرة. يرحل مبتعدًا بعد انحناءة قصيرة من العجوز الذي التفت إلينا معتذرًا:

"أنا أسف على هذا التأخير".

هتف الدكتور:

"هل هذه مخدرات؟".

"نعم هي كذلك".

تلفت الدكتور حوله قبل أن يهتف مجددًا:

"أنت إذًا تاجر مخدرات!!".

"ليس بالظبط.. أنا فيلسوف.. المخدرات فقط للتمويه.. أنا لا أفعل هذا الأمر إلا للتمويه.. اسمي مايو ويسعدني معرفتكما".

انحنى لنا بأدب شديد. تلك كانت بحق لحظة يصعب وصفها. اعترتنا

دهشة وشعورا بأن هناك خللًا ما في كل ما يدور حولنا. نحن مطاردان من أشخاص لا نعرف من هم؟ ولا ماذا يريدون؟ والآن نحن بصحبة تاجر مخدرات عجوز ضيق العينين، نصف رأسه تغيب داخل قبعة، واثق بنفسه وكأنه يضرب العالم بحذائه كل مساء، يدعي أنه فيلسوف. هل يوجد فلاسفة باقون في هذا العالم المجنون؟ ربما من تبقى منهم لكان يتاجر في المخدارات. أنا لا أفهم والدكتور يرسم على وجهة ابتسامة بلهاء ويتطلع نحو العجوز بعينين مفتوحتين على آخرهما. هل علينا أن نعدو مجددًا؟ هل نهرب؟ ولكن إلى أين؟ مرهقان تمامًا، ومايو لم يكن سوى جنون أغرب يضاف لتلك الليلة. حاصرنا مايو ليلتها بالأسئلة عما حدث في الحانة، ولم حذرنا؟ ولكنه لم يعطنا إجابة واحدة مفهومة. ملامحه العجوز وكلماته المقتضبة، تشع منها أشياء وأشياء لا يستطيع العقل حصرها في تعريف واحد. أتطلع نحوه ونحو صديقي ولا أعرف ماذا أقول. أظهر له بعض المال طالبًا منه أن يدبر لنا مكانًا آمنًا، ولكنه يرفض بأدب ويدعونا لقضاء الليلة في منزله.

تنفث طرقات هونج كونج رائحة الليل في الطريق أمامنا، خليط من بخار الرطوبة الممزوج برائحة الطعام الصيني القادمة من عربات طعام مصفوفة على جانبي الطريق، عجائز صينون يطلون نحونا بعيون متوجسة وهم لايكفون عن احتساء زجاجات البيرة. تحيط بنا ألوف اللافتات الصينية والمئات من الأبنية العجيبة التي تشبه عنابر السجون وتضج بالأصوات الصاخبة. نسير إلى جوار مبنى يمتد قرابة المائة متر ويرتفع تسعة طوابق

ومقسم لما يشبه الزنازين الفردية الصغيرة، ألوف منها تضوى نوافذها في الليل الصيني الغريب. مبانٍ تشبه مدنًا يشير نحوها مايو بأصبعه ويقول بنبرة متأملة "هنا كل الاحتمالات الواردة". يأخذنا خلفه مخترقًا بنا الدروب نحو حي "شام شوي بو" الفقير، الحي الذي لا يشبه الجانب الباهظ من هونج كونج. يذكرني الأمر بالفارق بين سوق نايف ودبي مارينا، نفس المدينة ولكن العالمين مختلفان. في سوق نايف تهبط نحو الجانب الآخر لدبي حيث الأسواق الرخيصة والأزقة الضيقة وتتلاشى في زحام العمالة الكادحة. إنها دبي التي لا تراها في بطاقات البريد والأفلام الدعائية.

من الصعب أن تفهم المدن العالمية الجديدة، لقد نبتت معقدة منذ يومها الأول وتمددت بتفاعلاتها حتى صارت ملتبسة هكذا. في تلك الليلة كل شيء كان يبدو غريبًا عليَّ، حتى أنا. لقد نسيت تمامًا كل هواجسي وأنا أسير إلى جوار مايو وانشغلت بحديثه العجيب. الدكتور يتطلع نحو مايو وتكسو وجهه غبطة عجيبة وكأنه طفل قد ذهب إلى مدينة الملاهي لأول مرة. يتحدث مايو طيلة الطريق بعبارات غير مفهومة مثل:

"هل تفضلون المانجو؟ ليس لدي مانجو اليوم للأسف".

يهتف الدكتور بسعادة وهو ينظر نحو مايو:

"بطيخ وخوخ ومانجو.. ربما كان فكهانيًّا! هذا الرجل لا يقول أشياء مفهومة على الإطلاق ولكني بدأت أحبه".

لقد وقعنا في غرام مايو وصار صديقنا المفضل منذ هذا الحين. كنا نفترق ونلتقي في أغرب الأماكن والأزمنة.

في قبو صغير مكدس بالكتب والتحف الصينية العتيقة قضينا الليلة. تمدد الدكتور على الأريكة وفي يده زجاجة ويسكي يناجيها وكأنها حبه القديم. ينام مايو على كرسيه والبايب ما زال في فمه. تركاني للأرق ليستبد بي.

***

في الصباح التالي قابلنا جون ابن عم الدكتور، أحد الإبداعات الجديدة التي أطلقتها عائلة مكنمهان الفريدة في وجهي. بالرغم من ثرائه فقد كان مهلهلًا كالدكتور. البدلة الهوجو بوس ضيقة عليه ورماد السيجار الكوبي يتساقط على قميصه وفي كل مرة يطلق حرف "أوه"، تكاد تظن بوجود ثقب كوني انفتح أمامك وسيبتلعك. حك رأسه بقوة بعد أن سمع القصة كاملة ولم يقل أي شيء يخص الأمر، لقد قال شيئًا مختلفًا تمامًا وبلهجة صارمة:

"أبوك لم ينسَ الأمر بعد.. ربما عليك ألا تزر لندن أبدًا".

أحمر وجه الدكتور واكتسى بغضب غريب لم أعهده من قبل:

"عندما تراه أخبره بأن عليه أن يذهب إلى الجحيم.. وليقبل مؤخرتي الكبيرة.. ول".

ظل الدكتور يسب ويسب بشتائم لم أسمع بها من قبل، ولكننا فيما بعد وللأسف عرفنا أن جون محق فيما قاله. لم نوقن هذا إلا بعد عدة سنوات.

***

لقد قررنا أن نذهب للاجتماع في الظهيرة بالرغم من كل شيء. بالرغم مما حدث في الليلة السابقة، وكل لقاءاتنا التي لم تصل بنا إلى شيء، من أول الضابط الذي أبلغناه بسرقة الحقائب حتى جون مرروًا بزيهان وكاك ومايو، قررنا المضي قدمًا. وقفنا أمام المبنى الذي ذكره كاك نراقبه مليًّا. لم نجد شيئًا مثيرًا للاهتمام، مبنى تجاري يحوي فندقًا وعددًا من الشركات. سألت الدكتور الذي بدا متحفزًا:

"هل أنت متأكد؟".

"فليكن.. أنا اكتشفت أني عداء جيد بالأمس".

"هذه ليست مزحة الآن.. والأمر لم يعد متعلقًا بالشركة في دبي ومهمتنا فقط.. إن حدسي يقول لي بأن الأمر أكبر بكثير".

"أعرف.. ولكني صرت متحفزًا لفهم الأمر وما يدور.. لماذا لم يخبرونا عن كاك منذ البداية؟".

"ولماذا يراقبنا كاك؟".

"وكيف هو شخص معروف إلى هذا الحد ولكن لا أحد يريد التحدث عمن يكون؟".

"هل تعتقد أن الشركة المزعومة التي من المفترض أن نقابلها هي بالفعل شركة حقيقية؟".

"ربما يكون هذا واردًا ولكن السبيل الوحيد لأن نكتشف".

"أن نذهب لنكتشف!".

دلفنـا بخطى واثقة وسريعـة إلى المكان في موعدنـا المحدد. كاك كان

في انتظارنا ببهو الاستقبال الخاص بالشركة. كل شيء في الشركة يبدو طبيعيًّا كأي شركة. موظفون مهمومون ومشغولون، شاشات كمبيوتر، مكاتب وأروقة مزدحمة، موظفة استقبال تنحني لنا، ثم قاعة اجتماعات كبيرة تطل على ناطحات السحاب.

جلس كاك أمامي ولم يبد على وجهه أية تعبيرات. يبدو وكأنه ذاهب للتريض وليس لاجتماع ما. لم يحضر ممثلو الشركة بعد وجلسنا أنا والدكتور وكاك وحدنا في الغرفة الكبيرة. كان يجلس أمامي مباشرة إلى الطرف الآخر من الطاولة. تلاقت أعيننا فتطلع نحوي بفضول. ثبت عينيه في عيني محدقًا لدقيقة كاملة دون أن أقول شيئًا. لم يهتز وظل يتطلع في عيني. مرت تلك الدقيقة عليَّ وكأنها شهر كامل. عقلي كان يدور بسرعة مجنونة. لقد دار بيننا شيء ما. لقد فهمت ما أريد أن أفهمه بينها هو قد بدا وأن فضوله قد انطلق. عيناه فضحتاه بالرغم من كل شيء حاول إخفاءه عني.

كاك، الهونج كونجي المنحدر من أم تايوانية وأب فرنسي، لو أطبقت السماء على الأرض لنجا. لو ضرب تسونامي المدينة سيكون قارب النجاة الوحيد من نصيبه، سيطفو فوقنا جميعًا وهو يبحر ويغني. كاك، لا يظهر لأن عليه أن يظهر. إنه حاضر دومًا لتنفيذ خطط لا أحد يعرفها سواه. يظن الجميع أنه يعمل لحساب الجميع ولكنه عازف منفرد. زئبقي، يعرف كيف يمر من أدق ثغرة ممكنة ودون أن يترك وراءه من أثر. كاك دائمًا يسبق بخطوة. لن تعرف عنه سوى ما يريدك أن تعرف عنه وفي الوقت الذي يحدده.

عند كاك سيتوقف الزمن طويلًا، إنه بطلي الكبير. لقد فعل لي كل شيء تقريبًا. لقد كان رجل المهمات كلها.

***

دلف تسعة صينيين وتحلقوا حول الطاولة الكبيرة. بعد لحظات صمت بدأوا يحدقون فينا بعيونهم الضيقة متفحصين وكأننا اثنتان من الفتيات بالبكيني. ظل الأمر هكذا لبعض الوقت حتى قطع الرجل المهم الصمت الثقيل. شانج لي الرئيس التنفيذي للمجموعة ومستثمر من العيار الثقيل. ليس هناك من مجال للشك بأنه حقيقي وبقليل من البحث عن اسمه ستعرف أنه ذو مكانة في عالم الأعمال. يتحدث الإنجليزية بطلاقة ورأسه ضخم ومربع ولا يحب المقدمات. بادر على التو وألقى في وجهنا أول مفاجأة.

بحسب المهمة الموكلة إلينا كان علينا أن نتفاوض من أجل استعادة أموال شركتنا ولكن شانج لي سألنا عن أمواله!! تطلعت أنا والدكتور لبعضنا بعضًا بحيرة ثم ألقينا إليه بالمعلومات التي في حوزتنا، أخرجنا ملفنا ووضعناه بين يديه. طالعه بتمعن ثم مرره لمساعديه. بعد أن طالعوا أوراقنا بدا وكأن الأمر طريف وبدأت الابتسامات تكسو وجوههم. الكل ابتسم حتى أنا والدكتور إلا كاك، لم يحرك ساكنًا. تبادل النظرات معي ثم تتطلع نحو شانج لي الذي بدوره بدأ في شرح موقفهم. أشار إلينا بهدوء، إن العكس هو الصحيح. أخرج أوراقه وعرضها علينا. حسب أوراقه، وقعت شركتنا اتفاقًا تمويليًّا مقابل حصة في المشروع العقاري. نالت الشركة حصتها ولم تسدد المبلغ. تشير الخطابات المرفقة لمحاولات من جانبنا لتأجيل

الدفع أو تقسيط المبلغ وهو ما رفضوه هنا في هونج كونج وتأزم الموقف. الاتفاق يحوي إمضاءات مديرينا والمراسلات صادرة عن مكتبنا في دبي. بحسب شانج لي المنتفخ الوجه، لقد حصلت شركتنا على حصة لم تسدد ثمنها للآن والمشروع متوقف نظرًا لتعثر السيولة، والخسائر نالت من الشركة وأسقطت أسهمها في دوامة الهبوط المتسارع. لإنقاذ الموقف باعوا غالبية أسهمهم في إطار اتفاقية اندماج ليخرج كيان جديد باسم جديد معلق على واجهة المبنى الذي نجلس في إحدى غرفه الآن. الملف كامل بين أيدينا نقلب في أوراقه وكأننا نشوي كيزان الذرة على الفحم. كيف انقلبت الطاولة هكذا؟ لم يكن هذا ما توقعناه على الإطلاق. كنا نظن أننا سنقابل أشخاصًا سيحاولون تسويف الأمور وإخفاءها وليس أشخاص يبرزون ملفًّا متخمًا بالأدلة والأوراق الرسمية. أهلًا بك في دروب الحيرة المكيرة.

بينما أقلب الكيزان.. أقصد الأوراق بحرص، سحب الدكتور ورقة صغيرة من الملف وحملق فيها طويلًا. سألته هامسًا إن كان قد وجد شيئًا ما. لم يرد وطرق للحظة قبل أن يهز رأسه نافيًا. الجالسون من حولنا صامتون ولكن عيونهم حادة وعصبيتهم متأهبة كعادة الصينيين. قرر شانج لي أن ينهي الاجتماع بتهديد صريح وحازم: إذا لم تدفع شركتنا المبلغ سيكون عليها تحمل العواقب الوخيمة لدعوى التحكيم الدولي. ستطالب الشركة بتعويضات طائلة للخسائر التي تكبدتها نتيجة نقض التعاقد. لم ينبس كاك بكلمة طيلة الاجتماع ولم يرمش له جفن. يجلس وظهره مستقيم ويداه مسترخيتان على الطاولة. يتطلع نحونا بهدوء بعد أن انتهى الاجتماع وكأنه

يريد التأكد أن الرسالة قد وصلت وغاصت فينا. فجأة يهب واقفًا وبإشارة من يديه عبر عما يريد أن يقوله دون كلمات "هذا كل شيء". التقط معطفه وسار أمامنا حتى خرجنا من المبنى. بعد أن صافحنا، رمقني بطرف عينيه ثم ألقى بحقيبته داخل سيارته البورشيه الحمراء وانطلق.

الآن من الذي أخذ الملايين المفقودة؟ نحن ببساطة لسنا محامين لنستطيع أن نتحقق من أي شيء. إذًا من الذي على حق؟ أي منهم يملك الحقيقة؟ لا يهم على الإطلاق. لقد دار عقلي في اتجاه مغاير تمامًا، انطلق بتهور في مسار آخر ودون مقدمات. هذه إحدى صفات المجانين ربما، لا يسايرون السياق المحيط بهم، يقلبونه. عقلي يطن ويدبدب وكأن شيئًا سيحدث داخله. فلنفترض جدلًا أن كل الأوراق صحيحة، ولنودع تلك المرحلة الآن ونخرجها من الحسابات. بخروج الشركتين من الحسابات من سيتبقى في اللعبة؟ أنا والدكتور الواقف إلى جواري و... كاك! لمحت سيارته الحمراء عند التقاطع هناك ما زالت عالقة في الإشارة. أشرت إلى أول تاكسي يمر ودفعت بالدكتور داخله ثم حشرت نفسي معه. أمرنا سائق التاكسي أن يتبع السيارة الحمراء. تبادلت أنا والدكتور النظرات.

"ماذا تريد من هذا الصيني الطويل؟"، سأل الدكتور مضيقًا حدقتيه.

"أنا وأنت هنا بلا قيمة في تلك اللعبة.. هل تعتقد أن الطرفين أقحمانا في الأمر لنطلع على تلك الأوراق؟".

"بكل تأكيد لا".

"ربما لسبب آخر لا أستطيع فهمه الآن.. ولكن لنفترض جدلًا بخروجنا نحن الاثنين من تلك المعادلة من يتبقى؟".

"هذا الطويل ذو البورش الحمراء".

مضينا خلفه نحو حي تاي بو المزدحم حتى آخر شبر، عالقين بين أكداس من السيارات والبشر والمباني الصينية القديمة. ركن سيارته أمام إحدى الحانات الرثة وترجل مخترقًا الأزقة الجانبية. ترجلنا خلفه ولكن ما أن ظهرنا في الزقاق حتى صرنا محاصرين. قبل أن نستوعب الأمر، أظلمت الدنيا تمامًا.

8

"عندما كنت في العاشرة من عمري، أطلق أبي عليَّ النار وقتلني. أخرج مسدسه وصوَّبه نحو قلبي مباشرة وغادر بعدها في سيارته الرولز رويس البيضاء. ذهب ليعيش مع امرأة شقراء طويلة تدعى جليس. أمي أمرتني ألا أموت ساعتها. أخذتني إلى البرتغال ثم إسبانيا ثم فرنسا وإيطاليا حتى ننسى أبي الذي تركنا من أجل امرأة أخرى. قابلت أبي صدفة بعد أربعة عشر عامًا عندما كنت أدرس بالجامعة واكتشفت أنه هو الذي كان يدفع لي مصروفات الدراسة وليس جدي. أمي خدعتني مرتين، المرة الأولى عندما أمرتني ألا أموت والثانية عندما أقنعتني بأن أبي انتهى دوره في حياتنا. لقد كانت تتلقى منه المال طيلة الوقت. قبل أن يموت جدي بأيام قليلة، طلب مني أن أتعلم كل شيء من أبي. رفضت بشدة ولكن هذا كان

رجاءه الأخير وأنا كنت أحب جدي.

جدي كان قد علَّم أبي كل شيء عن أسواق المال وفنون المضاربات وأبي كان عليه أن ينقل كل خبراته لي. كان هذا هو ميراث العائلة الذي يجب تناقله جيلًا بعد جيل. أبي أضاع كل ثروة جدي وأنا تكفلت بإضاعة ثروة أبي حتى آخر سنت. نحن عائلة عريقة ولا نتخلى عن تقاليدنا أبدًا.

لقد انتقمت من أبي وبددت ثروته كلها في السوق. لقد منحني حق التوقيع على القرارات، فتكفلت بإفلاسه. لا أعرف ما الذي يفعله الآن، يقولون إنه هرب إلى إحدى جزر الكاريبي بعيدًا عن بنوك المملكة التي حجزت على كل ما يملكه، ناهيك عن المئات من حملة الأسهم والمستثمرين المطالبين بدق عنقه. لقد كانت فضيحة كبرى تحدثت عنها بورصة لندن لشهور.

أنا عبقري فلا تحدق فيَّ هكذا.. إنه فقط سوء الحظ".

كانت هذا أول مرة يحكي لي الدكتور شيئًا ما عن حياته. تتناهى إلى مسامعنا أصوات الصينيين وهم يصيحون في الخارج وكأنهم يتعاركون. يتابع الدكتور:

"لا بد أن لديك إستراتيجية عظيمة هذه المرة.. أنت تبدو هادئًا تماما".

"ليس لدي أي شيء بالمرة".

"إذًا سيصنعون منا حساء النولدز... عليَّ أن استسلم لمصيري.. كم كنت عظيمًا يا دكتور.. كم كنت دكتورًا يا دكتور".

"كُفَّ عن النواح".

"أريد شيئًا واحدًا فقط الآن.. هذه أمنيتي الأخيرة قبل أن يطبخونا مع حساء النولدز".

"ماذا".

"سيجارة".

نظرت إلى كلينا، أيدينا موثوقة خلف ظهورنا وأرجلنا مكبلة في الكراسي. أشعر بالتأثر حيال الدكتور وأقرر تنفيذ رغبته، ربما قصته التي كان يحكيها لأول مرة قد دغدغت مشاعري.

"انبطح على وجهك".

"عذرا؟!!".

"لا تقلق لن يغتصبك أحد.. فقط انبطح".

دفعت نفسي للأمام وانبطحت على وجهي. نظر لي الدكتور مندهشًا ثم سرعان ما استسلم. دفع بنفسه للأمام كمن يلقي نفسه في حمام سباحة في منتجع سياحي فاخر. صوت ارتطامه بالأرض كان مدويًا فأغلقت عيني جزعًا. بعد لحظات فتحتها ببطء متطلعًا. يطل بجانب وجهه نحوي من على أرضية الغرفة مادًّا شفتيه وكأنه ينتظر قبلة. الآن نحن منبطحان وفوقنا الكراسي التى تم ربطنا بها نتطلع نحو بعضنا بعضًا. قلت له:

"ازحف إلى الخلف والتقط علبة السجائر من جيب سترتي الجانبي بفمك".

رد متهكمًا:

"لقد ظننت لبرهة أن لديك خطة للهرب".

زحزح نفسه للخلف حتى وصل بفمه للجيب وأخرج علبة السجائر. زحف إليَّ والعلبة في فمه ثم بدأ يحاول إخراج سيجارة. دحرج إليَّ سيجارة فالتقطتها بفمي ثم نظرنا إلى بعضنا بعضًا. كلا منا لديه سيجارة ولكن كيف سنشعلها؟ مرت دقيقة كاملة من الصمت ونحن منبطحان على وجهينا قبل أن نضحك فجأة. ضحكنا طويلًا وتدحرجنا بالكراسي من شدة الضحك ولم نكن ندري على ماذا نضحك. يتهدج صوت الدكتور وهو يضحك قائلًا:

"على ماذا تضحك؟".

"لا أعرف".

"الغريب إنهم قالوا سبعة ملايين.. الورقة كانت تشير إلى تحويل واحد فقط ولم يتم".

"لا أفهم.. أتعني الورقة التي كنت تحدق فيها".

"نعم.. ولكن أين ذهبت التحويلات الأخرى؟".

"هل كان هناك تحويلات أخرى؟".

"نعم.. توني زميلنا في المكتب.. لقد كان يقوم بتحويلات كثيرة لتلك الشركة عندما بدأنا الشراكة معها".

"لقد كنت تعرف بأمر تلك الشراكة من قبل؟".

"نعم كانوا يتحدثون عنه كاستثمار واعد ولقد حولت بعض عملائي لتوني ليقنعهم بالاستثمار في الأمر".

"ما الذي تذكره أيضًا؟".

"ليس بالكثير.. فقط ما كان يتادوله الموظفون في الشركة خلال وقت الاستراحة.. لقد كان مشروعًا واعدًا نجح في استقطاب الكثير من صغار المولين ثم في عشية وضحاها بدأوا يعيدون لهم أموالهم نتيجة تعثر المشروع.. لم أكن منخرطًا في الأمر فأنا مختص بالبورصة والسندات.. والاستثمارات العقارية ليست تخصصي".

"إذًا لقد كانت هناك العديد من التحويلات ولكن... كلا الطرفين يتحدث عن تحويل واحد فقط لا غير".

"بالضبط وهذا الذي أصابني بالحيرة ولم أفهمه".

خيـم علينا صمت طويل قبـل أن يظهر كاك ومعه قداحة. حل وثاقنا بهدوء ثم أشعل لنا السجائر بقداحته دون أن ينبس بكلمة. وضع كرسيه أمامنا واستوينا نحن الاثنين على مقعدينا. ندخن وعلى وجوهنا ابتسامة نحاول أن نثبت بها عدم خوفنا مما قد يدبره لنا. لم يأبه لذلك على الإطلاق وبدا هادئًا وكأنه مرَّ من هنا مصادفة. تناول حقيبة كانت معه وسلمها إليَّ. لقـد كانت تحتوي على جهاز اللاب تـوب الذي سُرق منا عندما وصلنا. تطلعت داخل الحقيبة مندهشًا فابغتني قائلًا:

"أنتم أحرار يمكنكم أنت تذهبوا الآن".

أرفع حاجبي متعجبًا:

"هكذا؟".

"آسف على هذا الأمر ولكني أحب أن آخذ حذري.. لقد توقعت أن تتبعاني.. أنا أحب تأمين الأمور من جانبي".

انفجر الدكتور في وجهه:

"أنت أيضًا كنت تتبعنا عند خروجنا من البار.. ولقد.".

قاطعه حازمًا:

"كنت أريد التأكد من أنكما اثنان فقط.. كما شرحت أنا أحب التأكد من الأمور وعلى طريقتي الخاصة".

لم يكن الأمر غريبًا كما كنت أظن في البداية. كاك كان يعرف بالضبط ما يجب عليه فعله، لقد أوصد أبواب هونج كونج بإحكام، ولم يترك شيئًا ليمر. تطلعت نحوه مبتسمًا قبل أن أقلب كيانه كله رأسًا على عقب لشيء لم يكن ليتوقعه قط:

"أريدك أن تعمل لحسابي".

لأول مرة يندهش كاك. تراجع قليلًا قبل أن يحدق فيَّ مباشرة، ثم تجمد لدقيقة وبدا هذه المرة وكأنه هو من يفكر بسرعة جنونية. لقد قرأ الأمر ثم رحل بعدها. لم أكن على يقين بما سيحدث بعدها معه. الآن وبعد سنوات لا أستطيع أن أفهم كيف فعلت هذا؟ كيف قرأت كاك؟ كيف أيقنت أنه رجل الأشياء التي لم أعرف ماذا ستكون؟

***

9

أتطلع نحو ساعتي وأحسب برأس ثقيل كم ساعة تبقت. يا إلهي، لم أكن أعرف أن في لحظة واحدة يقرر الإنسان أن يستعيد كل ما فعله عبر حياته ويواجه به نفسه. كل ما حدث في سنوات مقابل ساعات، مواجهة قاسية لا يعرف فداحتها سوى من وصلوا للحافة. الآن فهمت ما الذي يفعله البشر كل يوم، إنهم يسعون خلف النسيان. ما أثقل حياتك عندما تتوقف كلها أمامك وتتطلع نحوك، تصيدك بضربة حقيقية لا تستطيع تكذيبها. تخدع الجميع ولكنك لن تعرف كيف تفر من نفسك. من أنت؟ ها هي نفسك تجيب السؤال وها هي تهرب من قسوة الحقيقة وتفتش عن شيء جميل. أفتش عن ذكرياتي مع كاميليا. أعود بالزمن وأبحث عن نفسي في الأمكنة.

***

أنا في مانهاتن، أسير على رصيف طويل في مواجهة الريح. إنه نوفمبر. إنه الخريف. إنه أنا وحدي وصورة كاميليا تنعكس على الأشياء من حولي. على برك ماء المطر فوق الأرصفة وعلى واجهات المتاجر الزجاجية. تلاشت بعيدًا كل صراعات المال وعمولات الأوغاد وزحام المطارات وأرق الليالي وصداع الحسابات المعقدة. ذهني يتفكك مع الهواء البارد ويصير ورقة شجر مجهولة تحلق في طرقات نيويورك. إنه نوفمبر، يأتيني بلا مقدمات دافعًا أمامه كونشيرتو الرياح والأمطار.

لعلها الآن تشرب قهوتها على مهل وتطل من نافذتها فوق المدينة وتفكر في الوغد الذي رحل بلا كلمات. لعلها الآن حائرة أو غاضبة أو ربما قد نسيت كل شيء ومضت تشق الطرقات وسط الزحام بتنورتها السوداء القصيرة وقميصها الحريري الأبيض وكاميرتها، تلاحق أحلامها المبعثرة في سماء المدينة.

أمضيت ثلاثة أيام متسكعًا في طرقات نيوريوك. أعبر جسر بروكلين على مهل عدة مرات في اليوم الواحد، لعل الجسر العتيق سينقلني إلى زمن آخر. أتنقل بين متاجر الكتب المستعملة وأدفن رأسي في رفوف الكتب القديمة بمتجر ستراند في شارع برودواي محاولًا ترك رائحة الكتب تخدرني. أمضي الليل بين نوادي موسيقى الجاز تاركًا نفسي للعازفين، لدفقات الإيقاع وشدو المغنين وأخرج وفي رأسي صدى بعيد يناديني ولا أعرف من أين يأتي وإلى أين يذهب؟ أغوص في زحام سوق الأنتيكات بين الجادتين السادسة والسابعة وعندما ألمح صفًا من كاميرات التصوير الفوتوغرافي

القديمة، أقترب وأتحسس آخر كاميرا برفق. لايكا سوداء تشبه تلك التي تملكها كاميليا.

"من أنت؟".

تضع يدًا على وسطها واليد الأخرى ممسكة بالكاميرا وتسألني بشغف. عيناها تستطيعان كشف أسرار الكون عندما تضيِّق حدقتيها وتطيل النظر. الجبال تتهاوى والبحر يتراجع والنجوم تتبعثر من جديد عندما تحدق كاميليا بعينيها وترنو نحو ما تريد. تقترب وتضع الكاميرا أمام وجهي مباشرة وتطلق الصورة تلو الأخرى. أصبعها يلف البكرة وتواصل التصوير وكأنها تلف عجلة الزمن لتعرف أين أنا. تنزل الكاميرا وتمط شفتيها ثم تحدق فيَّ مجددًا قبل أن تسأل ثانية:

"من أنت؟".

الآن أشعر بأني أغوص تحت جلدي. تمر حياتي كلها أمامي وكأنها خيال ولا أتذكر عن نفسي شيئًا سوى صبي صغير يحمل عدة الشغل لأبيه، يعود من المدرسة إلى الورشة ويضع كتبه على منضدة العمل، يفتح الكتاب ليقرأ وهو يعمل. لا أذكر دبي، لا أذكر الحسابات، لا أذكر الدكتور ولا حتى مايو. لا أعرف الشخص الذي أصبحته. عندما تسألني كاميليا عمَّن أنا لا أذكر سوى شرفة منزلنا في حي المنيل والشجرة الكبيرة التي تظللها، رائحة طبيخ أمي، أبي في الورشة وأنا أعمل إلى جواره، النيل. النيل في الليل يضرب كل شيء في ذاكرتي ويفرد نفسه في المدى، مهيبًا ومتدفقًا وعظيمًا. من أنا؟ لن تفهمي يا كاميليا أبدًا. كل تلك الطرقات التي مضيت فيها

لن تعود بي أبدًا لهذا الطفل الذي أذكره جيدًا، لن تعود بي لمنزلنا، لن يعرفني النيل ولن يحكي لي كما كان يفعل. لقد ذهبت بعيدًا.. بعيدًا!

تضرب أصبعيها أمام وجهي لأفيق وتهتف:

"هنا.. هنا!!".

"أنا أهرب المليارات التي يسرقها لصوص العالم الكبار من الفقراء.. أهربها وأمحو أثرها بطريقة شرعية".

"تشرفت بلقائك هل نأكل آيس كريم إذًا؟".

"أعرف أنكِ لن تصدقي ولكن هذا هو أنا بما أنك سألتِ".

تقترب مني أكثر بابتسامتها الواسعة وعينيها الواسعتين وأهدابها الأنيقة ثم تهمس:

"أنا أصدقك".

تلف لتلتقط حقيبتها وتمد يدها وتجرني وهي تهتف:

"هيا أيها البطيء.. يجب أن نلحق بمحل الآيس الكريم قبل أن يغلق".

نهرول نحو بائع الآيس كريم ونتوسل إليه عندما يخبرنا بأنه أغلق بالفعل. نلعق الآيس كريم والثلج يبدأ في السقوط. أحاول الاحتماء تحت مظلة إحدى الحانات المغلقة ولكن كاميليا ترفع قبعتها وتقف تغني وترقص تحت الثلج. أكاد أتجمد وهي تضحك وتلعب وكأنها روح انطلقت من قنينة سحرية وتعلقت بهواء الحرية تمضي معه أينما ذهب. تضرب الطرقات الليلية وكأنها باليرينا ترقص مشهدها الوحيد.

تغلق حوانيت مانهاتن أبوابها أمام التائه الذي يجوب الطرقات بلا هدى كل يوم. كاميليا تسطو على عقلي وترقص فيه رقصتها الشهيرة على مسرح

خالٍ تمامًا. دائرة الضوء تتبعها على المسرح المظلم وهي تحلق كالفراشة في المكان.

يقول مايو:

"لن تستطيع أن تعود من وراء عقلك إذا عبرت إلى الضفة الأخرى. تيار النهر سيفصل بينكما.. سيجزم الجميع أن المسافة بين الضفتين ضيقة.. لكن الزمان والمكان بعيدان.. لو ذهبت ما وراء عقلك لن تعود".

أنا الآن أطل على نفسي من الضفة الأخرى.

***

"ماذا تتمنى الآن؟".

"أن أتجول في هذا العالم دون أن يعرفني أحد".

"كالشبح؟".

"لا.. كمايو".

"لماذا مايو؟".

"مايو الفيلسوف لا يمكن وصفه.. كل ما أستطيع أن أقوله إنه يمتلك ركنًا خاصًا به في كل مكان بهذا العالم الكبير".

"تريد أن تتبخر مثل صديقك الفيلسوف هذا؟".

"أجل".

"لكني سأصل إليك".

تقولها بثقة دون أن يرتد لها طرف. كيف تكون عيناها هكذا؟ إنها تحرك الأشياء بحدقتين سوداوين دون عناء. تطل فتمحو وترسم كما تشاء. لقد

قالتها وكأنها تعرف أين سينتهي بي الحال.

"لا تهرب.. أكمل قص حكاياتك.. ماذا فعلتها بعدها؟".

أواصل حكي قصتي لكاميليا، الصحفية الأمريكية التي قابلتها ذات مساء غريب في دبي. كنت أتحدث لرجل عجوز خسر أمواله في السوق عند البار في حفل ليلي بينما كانت هي إلى جواري مصغية. كنت أتحدث مع الرجل عن الحياة والمال ودبي مدينتي، حديثا عابرا بعد منتصف الليل آثار فضولها. فتّشت عني بعدها وتقصت مصادرها فلم تجد شيئًا سوى لقب "مجنون دبي"، لم يعجبها ما توصلت إليه وقررت أن تقتحم حياتي.

إن تملك الفضول من امرأة فعلى الدنيا أن تتآمر معها. تجرني من يدي وتهتف:

"أكمل حكايات المجنون".

"عندما عاد المجنون وزميله الدكتور كان في انتظارهما أول خطيئة".

10

دبي مجددًا، مرحبًا بالعودة التي حملت معها ملفًّا كبيرًا سيلقى بين يدي المديرين. ترى ماذا سيقولون الآن؟ لم يعد يعنيني الأمر برمته. لم يكن كل ما دار يشغلني. كنت أشبه بأعشاب بحرية لبحر متجمد. في كل مرة أحط فيها على أرض دبي، كنت أشعر بأن العالم ليس سوى صورة عملاقة لمجرة درب التبانة وأنا نجم صغير من المستحيل أن تلاحظه في منتصف الصورة.

تبتلعنا دبي وسط طرقاتها كما تبتلع كل ثانية أطنانًا من الأسمنت والحديد. تتغذى على الجميع بلا استثناء لتتضخم وتعلو وتنطح السماء. كان ذهني خاويًا عندما سألني الدكتور:

"ماذا الآن يا أيها عبقري؟".

لم أجد شيئًا أقوله له، رنوت نحو المباني ونحن منطلقان بسرعة 120 كيلومترًا في الساعة. حملنا أذيال الحيرة إلى مسكننا الذي تركناه رثًا. تمدد الدكتور على الأريكة يدخن بصمت بينما ظللت أنا أفكر في قصته التى حكاها لي عندما تم احتجازنا. نظرتي تغيرت تجاهه وأصبحت أشعر بأني أحبه. رغم كل المؤرقات التي كان يبتليني بها ولكن قصته تركت في نفسي أثرًا ما عميقًا. كم تتغير نظرتنا تجاه أي شيء بمجرد أن نعرف قصته. تكلم الدكتور بعد طول صمت:

"أتعرف؟ لقد افتقدت مايو".

أفلتت مني ابتسامة واسعة ثم بعد حين أطلقت ضحكة طويلة متذكرًا مايو بهيئته قبل أن أعلق:

"كيف يكون فيلسوفًا ويتخذ من تجارة المخدرات تمويهًا؟ ما الشيء الذي قد يهدد فيلسوفًا؟ إنه بحق رجل عجيب".

"بالفعل ولكنه لا يشبه أي شخص مر عليَّ في الحياة من قبل.. لولا أنك كنت معي لتخيلت الآن أن الأمر لم يكن سوى من فعل الإسراف في الكحول".

ابتسمنا لبرهة قبل أن يتابع الدكتور:

"هل تعتقد أن هناك خدعة ما؟".

"لم أعد أعرف.. ربما ليس علينا سوى الانسحاب من الأمر برمته".

"معك حق".

بعد برهة من الصمت سألني:

"لماذا تركتك نادين؟".

"لم تركك أبوك؟".

أطرق حزينًا وبدا وكأن ردّي عليه كان قاسيًا.

"معك حق مجددًا.. هناك الكثير من الأشياء في الحياة لن نفهمها.. فقط علينا أن نبتلعها مع الوقت".

قالها الدكتور وهو يسلم نفسه لدبي ومضى في غياهب المدينة. ها نحن نعود من حيث بدأنا. لا تبدو دبي وكأنها مدينة تريد أن تفهم أحدًا على الإطلاق، تريد فقط التحكم في الجميع.

***

في الصباح التالي كانت سوزانا تطالعني بابتسامة لعوب كافية لتُذهب وقار قمم الألب وتذيبها. تجري نحو تحياتها الأوروبية المعهودة من قبلات وأحضان ولكني أتفادى الضربة الرومانسية الموجهة بخفة ملاكم محترف يفلت من خطافية. سوزانا لا تستسلم، مالت بخصرها نحوي كاشفة عن فتحة أعمق من بئر بترول في مياه الخليج وهي تقول:

"اشتقت إليك".

"سوزانا!! اهدئي".

"كيف كانت هونج كونج؟".

"أتمنى لو أعرف".

"الشريكان كانا يطلبان الكثير من المعلومات عنكما".

"معلومات؟! أي نوع من المعلومات؟".

"لا أعـرف ما يبحثان عنه تحديدًا ولكنهما طلبا عقود العمل الخاصة بكليكما وملفًا كاملًا عنكما من قسم الموارد البشرية".

مضت تلعب بخصلات شعرها الشقراء في دلال وكأنها لم تقل شيئًا ذا قيمة. ألقت بالمزيد قبل أن تغادر:

"هناك شيء آخر لا أعرف إذا كان مهمًا لك أن تعرفه.. لقد اجتمعا بالأمس مع المستشار القانوني لمدة ساعتين".

أرسلت قبلة في الهواء وانطلقت تمشي بدلال فج يستحق أن يوضع كمقدمة إعلان لعقار الفياجرا السحري. أحاول أن أركز في ما قالته متجنبًا النظر نحو مشيتها المربكة لتفكيري. ما الذي يبحث عنه هؤلاء الأوغاد؟ اللعنة على سوازنا، لقد أصابت ذهني بالشلل.

لم يمض الكثير من الوقت قبل أن نجد أنفسنا على طاولة واحدة مع الشريكين. قبل أن يبدأ الكلام أخرجت نسخة من الأوراق التي منحنا إياها مدير الشركة في هونج كونج وحدقت فيهما. هذه المرة لم أدع لهما الفرصة ليديرا الحديث وبدأت بالقصف:

"كاك دبر لنا الاجتماع كما طلبتما منه وهذا ما حصلنا عليه. الشريك الآسيوي يدَّعي أن شركتنا هي التي أخلَّت بشروط الاتفاق ولم تقم بالتمويل.. وهذا الورق الذي بين أيديكما هو ما حصلنا عليه".

صمت.. ابتسـامة لأبو وليد.. أبو حمدان يدخن سـيجارة.. الدكتور يعبث برابطة عنقه وهو يطل بفخر على كرشـه الكبير.. صمت.. لا شيء لمدة دقائق.

أكمل تمثيل دور الأهبل حتى النهاية:

"لم أتخيل أن يكون هؤلاء الصينيون مخادعين لهذة الدرجة.. لقد لفقوا لنا أوراقًا".

نظر الاثنان كل منهما نحو الآخر كأنهما يؤكدان شيئًا ما. هدأت ملامحهما وقال أبو وليد:

"هذا كل ما حدث؟".

نظر نحوي الدكتور وبدا لأول مرة بأنه يفهمني ثم انطلق:

"في الحقيقة هونج كونج مدينة رائعة.. هناك الكثير من المطاعم وناطحات السحاب.. ونساء و..".

قاطعه أبو وليد:

"نساء!".

"بكل تأكيد سيدي و..".

قاطعه أبو وليد مجددًا:

"مفهوم.. شكرًا يا حضرات.. وشكرًا على الأوراق.. سوف أقوم بتسليمها للمستشار القانوني".

مرر إلينا أوراقًا كانت بحوزته قبل أن يتابع:

"هل من الممكن أن توقعا على أوراق المصروفات والمبلغ المصروف لكما من الشركة؟ أعتقد بأن مهمتكما انتهت عند هذا الحد والشركة سيكون عليها البحث عن حل قانوني".

ذيلنا الأوراق بتوقيعنا وتركنا المكتب. قضينا بقية اليوم نتسكع بمول

الإمارات أيدينا في جيوبنا وشبه صامتين. من متجر ساعات، لمتجر ملابس، لمقهى، لا نتبادل سوى كلمات قليلة ونحاول أن نغالب شعورًا بالملل اجتاحنا. من الصعب أن تتجاهل قصة استحوذت عليك يومًا ما. بيد أن الدكتور كان يحاول أن ينسى الأمر عبر محاولات مستمرة في إنفاق المال الذي حصل عليه. ابتاع ساعة سويسرية ماركة رولكس ودستة قمصان فاخرة من ماسيمو توتي وزوج من الأحذية من مارتن دينجمان. أما أنا فدفعت مقدمة لسيارة أودي جديدة وأرسلت مبلغًا لحساب أبي في مصر، الذي على الفور أرسل رسالة عبر أخي الصغير تفيد بأنه مصاب بالحيرة. لم أجب عليه لأنني كنت مثله، لقد كنت حائرًا في نفسي. كنا نوزع ما حصلنا عليه ولم نكن نعرف ساعتها أننا حصلنا على أكثر بكثير مما كنا قد ظننا، لم نكن نعرف حجم المأساة!

***

بزاتي السوداء وقمصاني البيضاء الأنيقة، سيارتي الأودي الفضية ذات الطراز الرياضي، مؤشرات سوق المال المتحركة على الشاشة أمامي، وبعض التقارير التي كانت تصل مكتبي في مناسبات قليلة، هذا ملخص ما كان موجودًا خلال الأيام التي قضيتها بعد عودتنا. أضف إلى ذلك بعض السهرات القليلة مع أصدقاء عرب في مطاعم دبي. في تلك الأثناء كان الدكتور يخرج من المكتب إلى بار القرية الأيرلندية في الجرهود ولا يعود إلا في الثانية صباحًا، يسكر حتى الثمالة مع أصحاب الوجوه الحمراء السكيرة من المدراء الإنجليز والأستراليين.

أسبوعان من التعاطي مع دبي مجددًا. دبي كفيلة بأن تنسيك أسماء أبويك وحبيبتك الأولى والأخيرة. لا تستهن بتلك المدينة فهي قادرة على إعادة تدويرك وتغيير خصائصك في غضون فترة قياسية. لكي تنسي كل ما قد مر بك فعليك القدوم إلى هنا لتولد من جديد. في مدينة تسابق الزمن لا يوجد شيء أقرب من الزمن ولا من مفاجآته. الشيء الوحيد الذي كان جديرًا بالملاحظة خلال الأسبوعين، كان ذلك اليوم الذي رأيت فيه أبو حمدان يلوح لي من خلف زجاج أحد مكاتب الشركة. لم أعرف لماذا كان يلوح لي بسعادة وحميمية لم أعهدها منه من قبل. كان يشبه طفلًا يلوح لأبيه من خلف زجاج صالة الاستقبال في المطار. ثم حدث ما حدث!

هاتفتني سوزانا بعد ساعات العمل عدة مرات. تجنبتُ الرد على مكالمتها ظنًّا مني بأنها ما زالت متشبثة بمحاولتها لاستدراجي نحو لقاء غرامي. وصلتني رسالة منها ثم رسالة ثانية ثم ثالثة. أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أفتح أول رسالة لأجد المفاجأة. الرسالة لم تكن تحوى سوى كلمة واحدة، وكذلك الثانية والثالثة، كل الرسائل تقول:

"اهرب!!".

هاتفتها لأستفسر عن الأمر فأتى صوتها ملتاعًا وصرخت وبكت. حاولت تهدئتها حتى أستطيع أن أفهم ولكن كل ما كانت تقوله أن علينا الهرب!

لم أجد أمامي أي اختيار، هناك شيء فادح قد حدث بلاشك، وكان عليَّ أن أنفذ ما تقوله. جمعت كل الأشياء المهمة في حقيبتين وأخذت تاكسي

متجهًا نحو الحانة الأيرلندية. جررت الدكتور خارج الحانة وكنت محظوظًا بأنه لم يكن قد احتسى شيئًا بعد، سيسهل عليَّ الأمر. أخبرته بما حدث ونحن نقف أمام الحانة. لم يناقشني أو يحاول أن يستفهم، أشار نحو الطريق وتساءل ببديهية تكاد تكون جاهزة ومستعدة:

"هيا.. من أي طريق نهرب؟".

بالرغم من هول الأزمة التي حطمت أعصابي، فقد نسيت كل شيء لوهلة متذكرًا ما حدث في هونج كونج، تلك الليلة التي كان يعدو فيها كغزال رشيق. ذهبنا رأسًا إلى منزل سوزانا في منطقة مردف. تطلعت حولها وهي تفتح باب مسكنها متوجسة ثم بدأت تحكي ما حدث وتعيده مرارًا وكأنها مصابة بالحمى وتهذي. نصت غير مصدقين، هذا تزوير؟ إنها عملية احتيال! تحكي سوزانا وأنا لا أرى شيئًا أمامي سوى مشهد أبو حمدان وهو يلوح لي من خلف الزجاج بسعادة.

11

ســاتو مي اليابانية مثلها مثل كاميليا، الجـمال الذي يخدر بقوة، جاذبية الزهــرة التي تجبرك على الانكفاء والاستنشــاق بكل مــا تملكه رئتاك من قوة. إذا ذقت تلك الرائحة مرة فلن تستطيع أن تغفر لها أبدًا، ستجول في أحلامك كناسكٍ لا يكل التبشير بالنعيم. ساتو مي تعزف خلفها الوتريات اليابانية وتتسربل في الأحلام برداء الجيشا بينما تهطل ثلوج الجبال البعيدة والحزينـة. أمـا كاميليا فتطل عليَّ من وراء الذاكرة بعيون واسـعة لا ترى سـوى الحقيقة، بينما يغني الكلارنيت في مقطوعة موسيقى جاز بدفقات ناعمـة، والكاميرا التـي في يديها تلتقط صورة إن طالعتهـا فلن تعود كما كنت أبدًا. تتطلعان إليَّ كلتاهما من وراء كل الأشياء، من وراء ما رأيته في هذا العالم، حدقات مفتوحة على أسرار لا أعرف أين يمكنني أن أخفيها.

لا شيء يضاهي المرأة الغارقة في نفسها، الأنوثة التي تنساب من مكامنها والضربة التي تأتي قاتلة!

يمر بخاطري لحن قديم كنت أدندنه وأنا أمضي وحيدًا في الليل بين فيلات منطقة الجميرا. عندما أفكر في هذا اللحن، يراودني حنين غريب لسنواتي الأولى في دبي، تلك السنوات التي لم تغيرني دبي فيها ولم تراودني فيها عن نفسي. كنت ضئيلًا بالنسبة لدبي لكي حتى تلحظني أو تعيرني التفاتة، شاب عربي قادم ليأخذ مكانه في طابور المجتهدين والموهوبين بعد أن لفظتهم بلدناهم. دبي، مدينة الأحلام التي نجت من تشوهاتنا العربية الصميمة وارتدت لباس الحضارة العصرية. في دبي تستطيع تحقيق كل أحلامك، السماء هناك أقرب من الأرض ويمكنك أن تسكن إحدى تلك الناطحات الشاهقة وتركب أفخم سيارة بي إم دبليو و.. و.. و.. هكذا شبه لي أحد زملائي الأمر عندما أخبرته بأني ذاهب للعمل في دبي. بعد شهر من الزحف في أحياء المدينة ومحاولة فهم الإنجليزية الهندية والإنجليزية الفلبينية بحثًا عن غرفة، تيقنت أن صديقي كان مبالغًا في الأمر.

في حي الجميرا المعروف بأنه مقاطعة لسكن الأسر الغنية وجدت أول سكن دائم ومستقر لي. لم يكن بالطبع أحد الفيلات، فراتبي لم يكن ليسدد إيجار يوم واحد في تلك المنطقة، لقد حصلت على غرفة في فناء خلفي لإحدى الفيلات. مستأجرو الفيلا كانوا يريدون توفير بعض المال فقرروا إخراج الكراكيب الموجودة بمخزن خلفي وتأجيره. كان يصعب تسميتها غرفة، عرضها متر ونصف وطولها متران ونصف، بعد

وضع خزانة ملابس وسرير صغير، اكتشفت أن عليَّ ارتداء ملابسي وأنا واقف فوق السرير، أتناول طعامي فوق السرير، وأقرأ فوق السرير، وأصف كتبي فوق السرير ثم أنام بينها. أول عام لي بدبي في وضع أفقي. بعد قرابة عامين وعلى الجانب الآخر من الطريق بدأ بناء أطول برج في العالم. قاموا ببنائه على الناحية الأخرى من غرفتي الأصغر في العالم.

في تلك الأيام وطدت علاقتي بجانب غريب من المدينة ربما لا يظن أحد بأنه موجود. دبي كانت تختطف القادمين بكل حيلها البراقة والمغرية وتغرس فيهم طموح الرفاهية، لكن المدينة لم تفلح معي ولم تجد حيلها، لقد وجدت ضالتي في التسكع بين فيلات حي الجميرا وأنا أستمع للموسيقى. أدور في طرقات لا يمشي فيها أحد قط مترجلًا، لا يمر بها سوى سيارات. في حي "الجميرا1"، كانت هناك فيلا بحديقة كبيرة تطل منها أشجار الياسمين التي تفوح بأريج يملؤني سعادة، نشأت صداقة أخرى بيني وبين تلك الفيلا وكان عليَّ أن أزورها في كل عطلة والجلوس بجوار السور سارحًا في عالمي. الفيلا المهجورة تبدو كجزيرة هادئة وسط عالم دبي الصاخب والمنتشي بصخب الأحداث وجيوش الزائرين. لم أقع في غرام المولات ولم أنبهر بناطحات السحاب ولم تفلح دبي في أن تضمني لمهووسيها.

بعد أن طُرِدت من غرفتي المستطيلة مع مستأجري الفيلا لعدم قدرتهم على سداد الإيجار الذي تضاعف، التقيت بالدكتور. كان يبحث عن شخص يقتسم معه إيجار مسكنه. في البداية كنا نتعارك طيلة الوقت ثم ذات يوم اكتشفنا أننا صرنا صديقين. كيف حدث هذا؟ لا أعلم. ظللنا نسب بعضنا

بعضًا طيلة الليل وفي الصباح التالي أفضينا لبعضنا بعضًا بأسرارنا وحكاياتنا. هكذا أحيانًا ودون مقدمات قد يتحول شيء مستبعد تمامًا لشيء مألوف. يتحول الشخص الذي تتحاشاه لشخص قريب منك. لا أعلم كيف يحدث هذا في الحياة؟ ولكنه بكل تأكيد يحدث، ربما لأننا لا نفهم كل شيء. لم يجمعني بالدكتور أي اهتمامات مشتركة، أيرلندي ومصري لا يتشابهان في الثقافة ولا في الشكل ولا في المضمون، وبالرغم من كل هذا صرنا صديقين، ثم بعد ذلك شريكين مصيرهما مربوط ببعضهما بعضًا.

بالرغم من أني الآن لا أعرف ما الذي فعله الدكتور تحديدًا. لقد اختفى تمامًا منذ أشهر متحديًا جنوني. إنه ينتظر مني شيئًا لا أعرفه.

عزيزي الدكتور، للأسف صديقك ليس على يقين هذه المرة. عزيزي، لقد رحلت دون أن تخبرني ماذا يفعل المجانين في تلك الأوقات؟ هل يجلسون مثلي إلى تلك الطاولة يضربون عرض الزمان في طوله بحثًا عن كل ذاكرة تاهت وسط عواصف السنوات؟ هل يحملقون في المدن من أعلى دون حراك؟

هل أنا مجنون حقًّا كما تدعون؟ فماذا يفعل المجانين إذًا؟

***

يحدث أحيانًا أن تصادف أشياء في ذاكرتك لا تمر، أشياء تتراص كأنها أشجار صامتة في مستنقع غائم يسكنه الضباب. لا ريح تمر ولا طائر يزور ولا غرباء يأتون، أنت وحدك ولا أحد سواك، تطل عليك الآن كل الأشياء التي أخفيتها حتى عن نفسك، ها هي تراودك الآن، تواجهك، تكاشفك

وتعزلك عن نفسك، حتى وأنت حاضر بكل ما فيك.

كيف مضيت هكذا في عالم ساتومي؟ لقد دخلت الغابة اليابانية ذات يوم وخرجت من الناحية الأخرى مسكونًا بالأساطير. لقد وضعتني ساتومي في قلب الطوفان الذي أرادته. أشارت إلى هناك وقالت هذا هو مكانك. ساتومي من البداية شخصت حالتي وأيقنت أني مجنون، أما كاميليا فتحاول الآن أن تشفيني. لقد سلمتني إلى حقيقتي ووضعتني أمام النهاية، وجهًا لوجه.

لم أندم على شيء، الموت على يد كاميليا شيء جميل. لم يتبق من المهلة سوى ساعات قليلة، هنا وقبل سنوات وفي هذا المبنى، وقعت الأوراق أنا والدكتور بلا اكتراث، هنا نصب لنا الشريكان الفخ، هنا بدأت علاقتي بمجنون دبي الذي يحكون عنه، من هنا بدأت رحلتي في العالم الخفي، العالم الكبير للأموال العابرة للمحيطات، للمليارات التي تتحول إلى سراب، والسراب الذي يتحول إلى حقائق يستحيل تغييرها.

12

"سبعة ملايين دولار.. يا إلهي!".

هتفت سوازنا وهي تنظر نحونا بشفقة وتواصل الحكي، لقد كانت ذاهبة إلى مكتب الشريكين عندما سمعتهما يتفقان مع المستشار القانوني على تحريك دعوة ضدنا بالاحتيال على الشركة، ليس هذا فقط، بل ومطالبتنا بالسداد. لقد استمعت إلى الحديث كاملًا وهي لا تكاد تصدق أذنيها، لقد وقعنا على نص التسوية وسداد مبلغ سبعة ملايين دولار للشريك.

كل شيء يفور داخلي، هؤلاء المزورون! لقد اختاروا اثنين من الموظفين ملائمين للأمر، أحدهما عديم الخبرة والآخر سكير ومشتت. كيف يقدمان على تزوير فج بهذا الشكل؟ كيف ينصبان هكذا جهارًا نهارًا؟ كيف يديران شركة ذات سمعة جيدة في السوق؟ كيف.. كيف نهرب؟

مهما كانت درجة تعقيد الأمر ومهما كانت نسبة الصحة فيما روته سوزانا، كان أسلم حل بأن نغادر المدينة لبعض الوقت ونرى ما يحدث. أقلتنا سوزانا للمطار وعندما وصلنا لمكتب الطيران انتابتنا الحيرة، سألت الموظفة عن وجهتنا ولم نعرف إلى أين نذهب؟ ارتمينا على مقاعد الانتظار في المطار نفكر أو بالأحرى أنا الذي كنت أفكر بينما أخذ الدكتور يعبث بهاتفه. ذهبت لأحضر بعضًا من القهوة وعندما عدت وجدت الدكتور يبتسم سعيدًا!

"ما الشيء الذي يجعلك سعيدًا في وقت كهذا؟".

"انظر إنه يحادثني.. لا أفهم أي شيء من حديثه ولكنه يعجبني".

تطلعت نحو الهاتف وأصابتني الدهشة. لقد صار مايو والدكتور صديقين بعد أن غادرنا هونج كونج، كانا يتحدثان بصفة يومية. سرحت قليلًا ثم سألته إن كان يستطيع أن يطلب من مايو استضافتنا، لم يرفض مايو الأمر ولكن مكان الاستضافة كان مختلفًا.

هكذا ذهبنا إلى بانكوك وعرفنا "تشاك باك".

***

مروحة الهواء موديل السبعينيات تصدر أزيزًا كفيلًا بدحر أزيز مروحيات الأباتشي، الحرارة اللزجة في شقة بانكوك لا تطاق والدكتور يتصبب عرقًا في ملابسه الداخلية وهو يحتسي بيرة محلية مرسوم عليها فيل، أما أنا فأرتدي الشورت الأحمر الذي ابتاعته لي نادين ورأسي تذوب تحت وطأة الهموم والعرق. مكيف الهواء أصدر حشرجة الموت هذا الصباح وتوقف بالسكتة

القلبية. كل شيء في هذه الشقة متهالك ويصدر أنينًا. الكراسي تئن، الأبواب والنوافذ وحتى باب الثلاجة. هـذا ما حصلنا عليه مقابل ثلاثمائة دولار تقاسمناها مع مايو، شقة فقيرة في شارع داخلي بحي "سوخومويت" المزدحم بالسائحين والنزل الرخيصة التي يرتادها المشردون الأوروبيون من محبي السفر بأرخص الأسعار. كنا نريد أن نتلاشى وسط زحام الأجانب حتى لا يتعرف علينا أحد. كل ما قالته سوزانا كان يحدث بالفعل، بعد مغادرتنا بيومـين ظهرنا في صفحة الحوادث بجريـدة إماراتية كمحتالين نصبا على شركة وهربوا بالأموال. أوكلنا محاميًا ليطلع على القضية فأخبرنا بأن موقفنا صعب، المستندات تحمل توقيعًا منا بتسديد مبالغ التسوية والطعن بالتزوير سيأخذ عدة أشهر. لقد صار لدينا خصم ثان في القضية وهو الشركة التي في هونج كونج. تهمة احتيال من شركتنا وتهمة أخرى من الشركة الصينية تطالب بالسداد. كيف تسدد سبعة ملايين دولار بحق كل درجات الشواء في الجحيم التي سـمعنا بها؟ لو عملنا طيلة حياتنا ليل نهار فلن نسـتطيع تسـديد المبلغ، حتى مبلغ الخمسين ألف دولار التي حصلنا عليها مقابل المهمة، تم تجميده، كل كروت الائتمان التي معنا موقوفة.

يتجشأ الدكتور وهو يقول:

"أبي يملك أموالًا طائلة".

"ألم تقل لي بأنك بددتها انتقامًا منه".

"بلى ولكن هذا الوغد ما زال يعمل ويجني الأموال ويعوض خسائره.. جون قال لي إنه متزوج من حسناء لاتينية ويمتلك منزلًا في إحدى جزر الكاريبي وثلاث شركات وحصة ببنك و..".

"هل يمكن أن يخرجنا من هذه الأزمة؟!".

"بالطبع لا.. لو وصله الخبر سيدفع أموالًا ليتأكد من زيادة سنوات سجني.. في الحقيقة إنه في انتظار هذه اللحظة.. ألم تسمع بأذنيك جون عندما حذرني؟".

"إذًا لماذا تخبرني أيها الأبله؟".

"فقط كنت أفتش في رأسي عن شخص أعرفه ويملك ملايين فلم أجد غير أبي".

"لقد ذكرتني بأهلي".

"يا إلهي.. وهل لك أهل؟ أنا طيلة الوقت أشعر بأنك نبات صبار يقف في العراء".

"هل أنت أهبل؟ بالطبع لي أهل".

نقرات مايو على الباب قطعت العراك الساذج. لقد ذهب العجوز لمدة يومين في مهمة بشمال تايلاند وها هو قد عاد. مايو كان لديه تلاميذ في كل بقعة في العالم، من أندية لوس أنجليس الفخمة وحتى أزقة الهند الفقيرة، حتى ساتومي كانت إحدى تلميذاته، كانت أنبغ من علمهم.

على الرغم من تلاميذه الكثيرين حول العالم، فإن مايو لم يكن معروفًا بالشكل التجاري المتعارف عليه. لا تعرفه الصحف ولا يظهر على الشاشات ولا يوجد كتاب باسمه ولا شيء مذكور عنه في المواقع الرسمية مثل ويكيبيديا، ولكنه كان مايو وكفى. مايو فيلسوف عالم مواز للعالم الموازي، لن تفهم شيئًا مهما حاولت مجاراة هذا الأمر حتى النهاية. سيقودك لحالة صعب فهمها،

شيء أشبه بعالم لا ينفتح إلا لأشخاص بعينها في أزمنة تتلاعب بالجميع.

كل ما فهمته في البداية أن مايو كان يجوب العالم بفلسفته، أفكاره كانت تؤسس لأطروحات جديدة وقد بدأت بالانتشار في السنوات العشر الماضية. لا توجد أي معلومات حقيقة عن مايو على شبكة الإنترنت، ولكن كان هناك بعض المناقشات عنه في عالم الإنترنت الخفي المسمى "ديب ويب" استطعت أن أصل إليها. لا يوجد أي أبحاث رسمية مذكور عليها اسمه ولكن كانت هناك صورة وحيدة قديمة تجمعه بفيلسوف أمريكي شهير ذي لحية بيضاء طويلة ويدعى "دانيال دينيت". بعد عدة سنوات من معرفتنا به ظهرت أقاويل في مجتمعات الإنترنت الخفي تزعم بأنه هو الذي دعا لإنشاء العملة الإلكترونية الأولى في العالم والتي أطلق عليها اسم "البيتكوين"، تلك العملة يعتقد الكثيرون أن الشخص الخفي الذي اخترعها واسمه "هاتوشي ناكاموتو"، ليس سوى فيلسوف أفكاره معادية للنظام المالي العالمي واسمه الحقيقي مايو.

مايو عبر السنوات التي عرفته فيها لم يكن فقط عصيًّا على الفهم، بل إنه قادر على انتزاع كيانك من داخلك في لحظة، مهما كانت فراستك وثقتك بنفسك فلن تصمد أمامه طويلًا، سيجعلك تقف على الحافة وفي مواجهة الريح. مايو كان قادرًا على التعامل مع أي شخص ودون عناء يذكر، إنه بكل خفة سيعطيك انطباعًا ما عن شيء ما لم تكن تحسب له حسابًا ومن ثم، سيستدرجك لمناطقه ويترك هذا الانطباع يغوص في شرايينك وسيرديك أرضًا دون أن تعرف كيف حدث هذا.

تجارب مايو الفلسفية كانت تجعله يجوب العالم ممتهنًا أغرب المهن، مراقب حدود في منغوليا، موزع مخدرات في هونج كونج، مضارب في بورصة لندن، سمسار بترول في شمال العراق إبان فترة العقوبات، مصور صحفي يغطي الحروب الأهلية في سيراليون ورواندا والصومال، ملاح على سفن صيد نرويجية ببحر الشمال، مدرس موسيقى في بلجيكا، شيف سوشي في أفخم مطعم في نيويورك، موزع أوراق في كازينو بلاس فيجاس. لقد صنع تاريخًا عجيبًا يصعب فهمه، متجولًا بين بلاد العالم في خمسين عامًا.

لم أعرف لماذا اتخذني مايو صديقًا، حتى أبلغني بعدها بسنوات عن السبب. قابلته ذات مساء في أحد طرق دبي، لقد قدم إلى مدينتي لأول وآخر مرة وتوقفنا عند آخر الحديث. لم أعد أسمعه ولم يعد هو يتحدث. مايو نجا من كل شيء إلا مني!

***

الدكتور يتحدث مع مايو وهو يدخن غليونه حول رحلته في شمال تايلاند وأشياء أخرى، بينما أنا غارق في همومي، أتطلع نحو مروحة الهواء التي توقفت بعد انقطاع الكهرباء. كان الجو خانقًا وضوء القمر يتسرب من النافذة. لم أعرف كم مر من الوقت حتى حدث شيء غريب فجأة.

تقدمت نحوي المروحة ببطء حتى أصبحت أمام وجهي وريشتها بدأت في الدوران، ارتعبت وطوحتها بيدي، ولكني ضربت الهواء. نظرت حولي فوجدت دخانًا كثيفًا يغطي الغرفة تمامًا. حدقت في الظلام قليلًا، فوجدت الدكتور ميتًا على كرسيه ولا يحرك ساكنًا وعيناه جاحظتان. صرخت بقوة

وارتميت على الدكتور محاولا تحريكه. جذبتني يد مايو من الخلف وهو يحاول تهدئتي ولكنني كنت أصرخ مناديًا الدكتور حتى قام وصفعني فجأة. ضربته بقبضتي في وجهه فارتطم بالأرض ثم قام وردّ لي الضربة. تبادلنا الضربات واشتبكنا على أرض الشقة بينما يحاول مايو جاهدًا فصلنا. نزفت شفتي وشجت جبهتي بينما الدكتور قد تهشمت نظارته وانتفخت عيناه من الضربات. كان كلانا يصرخ بجنون هيستيري، سأسحقك أيها الوغد.. سأحطم وجهك يا لعين! واستمررنا في تسديد اللكمات على درج السلم ثم في الطريق. كان القطار قادمًا بأقصى سرعة في الحارة الضيقة فدفعت بالدكتور بعيدًا عنه، ثم وقفت أتطلع حولي وأنا لا أميز شيئًا. فجأة أمطرت السماء عندما ألقى مايو بدلو ماء على رأسي ثم حاول جري إلى جانب الطريق.

تمشينا نحن الثلاثة طيلة الليل في طرقات بانكوك نتخبط بين أضواء المدينة. يمتزج الضوء الأخضر بالأحمر بالأبيض وأرى قوس قزح فوق كل شيء. وصلنا لضفة نهر "تشاو فرايا" وقمت بإفراغ ما في معدتي في النهر ثم ارتميت على أحد المقاعد. أفرغ مايو على رأسي زجاجة ماء باردة وهو يحاول إعادتي لوعيي للمرة الثانية. تهل نسمات الفجر الباردة، فأبدأ في استعادة وعيي، بينما الدكتور كان قد مات مجددًا على المقعد المجاور. أتطلع نحو السماء وعقلي يصفو تدريجيًا وتهدأ ضربات قلبي المتسارعة، أشعر بأني كنت على شفير الموت السريع وعدت منه. أرى الآن أبي يصفر وهو جالس يصطاد السمك على النيل، أمي تطبخ الملوخية والرائحة الشهية

تغريني، نادين تغادر وشعرها الأسود يتهدج خلفها، أبو حمدان يلوح من خلف زجاج المكتب سعيدًا، الشرطة تداهم منزلي ثم يطفو فوق كل شيء إحساس عجيب بالراحة. كانت العصافير تحلق بأعلى وأنا أغوص داخل نفسي مطلقًا العنان لتخيلاتي. لقد أيقنت الآن أني قد دخلت هذا العالم بقدمي دون أن يجبرني أحد. كنت أعرف من البداية أن الشريكين نصابان ولكني عاندت.

يغني مايو على حافة النهر بصوت عذب، يصدح باليابانية وكأنه يناجي أبراج المعابد البعيدة الباذخة على ضفة النهر الأخرى. أحاول أن أرفع رأسي قليلًا لأطل على الدكتور فأجده يطالعني بعينين متورمتين وأنفاس متهدجة بعد أن عاد للحياة. سألني:

"هل أنت بخير؟".

"أنا آسف يا دكتور.. لم أقصد ولكني كنت أرى كل شيء بصورة مرعبة".

"وأنا أيضًا آسف على ما حدث.. لقد تناولت الكثير من الأصناف في حياتي ولكن هذا الشيء الذي أعطاني إياه مايو كان ساحقًا".

"ماذا؟!! مايو أيها اللعين!".

"لا تظلمه.. لقد حذرني ولكني ضاعفت الجرعة عندما لم أشعر بالنتيجة في البداية.. يبدو أن الدخان الذي تكاثر في الغرفة قد أودى بك.. هذا التشاك باك أقوى عقار هلاوس عرفته البشرية".

"تشاك باك؟".

"نعم هكذا يطلق عليه الآسيويون".

***

لقد عاشرت الكثير من البشر ولكن لا أحد يشبه مايو في أي شيء. لقد أحببناه منذ اليوم الأول. في شقة بانكوك كان لدينا من الوقت ما جعلنا نحكي له كل ما حدث وأكثر. لقد حكى كل منا ذكرياته في الحياة وماذا فعل خلال فترة مراهقته. حكى مايو أيضًا أشياء عن ماضيه. لقد ولد في سنغافورة لأبوين فقيرين من أوساكا كانا يعملان طباخين في خدمة الجيش الياباني خلال الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحت اليابان سنغافورة. أصيب أبوه بالسل فتركته أمه مع أسرة صينية لترعاه، وعادت مع أبيه لليابان بعد هزيمة اليابان في الحرب. بعد سبع سنوات قدم إليه جده واصطحبه ليعيش معه في طوكيو. جده الذي تعلم منه مايو الكثير، كان مدرسًا للتاريخ في جامعة طوكيو وانتحر بالسم عندما بلغ مايو السادسة عشر. هنا توقف مايو عن الحكي ولم يذكر لنا كيف تحول إلى فيلسوف.

سألني على حين غرة:

"هل أكلت من سلة التفاح؟".

"ماذا تقصد؟".

"عادة المشكلة لا تكمن في المال فالمال ليس سوى أوارق منقوشة.. طمع البشر هو السر في كل ما يحدث في العالم.. المال هو الفريسة ولكن الطمع هو دائمًا القناص".

"مايو.. أنا لا أفهم شيئًا.. ماذا تعني بسلة التفاح؟".

"إنها أول تفاحة.. تلك التفاحة ستستدرجك نحو السلة".

يدخن مايو غليونه وهو يتطلع نحوي ثم يطلق سحابة من الدخان تعزل بيننا. ما زلت لا أفهم ما يريد أن يشرحه لي. خرج بعد دقائق ومضيت خلفه في طرقات بانكوك. الأضواء الخضراء المنبعثة من عربات الطعام المكدسة على الأرصفة، تصيبني بالكآبة. ظللت أتبعه محاولًا استخلاص أي مقولة منه ولكن مايو لم ينبس بحرف في تلك الليلة. كان يقف ليقلب البضائع في السوق الليلي أو يطل على بناية مهجورة لمدة ربع ساعة متواصلة ثم يعاود السير. في تلك الليلة الحارة في بانكوك وبينما أنا أمشي وسط زحام الأسواق الشعبية أخذت أفكر. بالطبع هناك سلة تفاح، السبعة ملايين دولار كانت مجرد تفاحة كما قال مايو. إنها لعبة أكبر منا كثيرًا وربما نحن مجرد قطعة فلين تم بها سد ثقب ما. مما لا شك فيه أننا أشخاص عاديون، نتطلع نحو سبعة ملايين دولار وتتسع عيوننا وأفواهنا ولكن في مجال الاستثمار هذا ليس سوى ثمن فيلا تباع في صفقة لا تستغرق خمس دقائق. هذا المبلغ قد يخسره أحدهم في صفقة أسهم أو فوركس لا تستغرق دقائق على شاشة التداول. قد تكون تلك الليلة أحد الأيام التي أذهبت عقلي. كنت لا أفكر سوى في سرقة التفاحات كلها! لقد فعل مايو فعلته معي. يزرع شيئًا في رأسك لينمو كسيقان البامبو.

13

كان الدكتور يحملق بعيون متسعة في شاشة الكمبيوتر وكأنه مصاب بصدمة ما. ناديته فلم يُجب فألقيت على الفور علب وجبات "الباد نودلز التايلاندية" التي قد عدت بها من السوق وقفزت نحوه أحاول إفاقته وأنا أهتف:

"هل أعطاك مايو مجددًا ذلك العقار اللعين؟".

لم يحرك ساكنًا ولم ينطق وظل ينظر نحو الشاشة. تطلعت بدوري تجاه الشاشة فلم أصدق عينيّ لبرهة. لقد كانت الحسابات مفتوحة على مصراعيها والأرقام تتوالى على الشاشة. هززت رأسي غير مصدق وطفقت أفتح العديد من حسابات العملاء فانفتحت جميعها أمامي. لقد كان حساب إدارة صناديق الاستثمار مفتوحًا.

أخرجت سيجارة وأعطيتها للدكتور فأخذها وهو لا يحرك عينيه عن شاشة الكمبيوتر ثم نطق أخيرًا:

"إن هذا حقيقي أم أني أهلوس؟".

عبثت قليلًا بالحسابات فوجدتها تعمل.

"يبدو أنه حقيقي.. ولكن ماذا لو كان فخًا مقصودًا؟".

"ليس فخًا.. هؤلاء الأغبياء نسوا أن يغلقوا حسابي.. ما زال لدي إمكانية الدخول إلى كل حسابات المضاربات على منصة التداول".

سرحت قليلًا مفكرًا ولكنه فجأة جذبني من ذراعي:

"علينا أن نفعل ما أنا قادر عليه!".

التمعت عينا الدكتور ببريق ما عجيب قبل أن يتابع:

"لو كان هناك تسعة ألاعيب يعرفها السمسارة المحنكون فأنا أعرف منها عشر حيل".

قد يكون الدكتور أبله وسكيرًا ومترهل الأفخاذ وغبيًا في الكثير من الأحيان ولكن عندما يتعلق الأمر ببورصات الأموال، فأغلق عينيك وتمسك جيدًا فأنت على متن قطار مدينة الألعاب الصاروخي. لأعلى بأقصى سرعة ولأسفل حتى يتوقف قلبك، وانحرف حتى ينخلع رأسك من فوق كتفيك.

عادة يوقع صاحب الأموال على تفويض يتيح لمدراء الحسابات الشراء أو البيع عبر صناديق الاستثمار على أن يقوم باطلاعه على التحديثات. لكن تخيل أن السمسار يبيع ويشتري بسرعة وقبل أن تلاحظ أنت ما يحدث.

الأمر قد يبدو سهلًا ولكنه معقد بشدة وينطوي على أساليب ملتوية. ينشئ السمسار حسابًا يطلق عليه مصطلح فانتوم أو بالأحرى حساب وهمي. يدرج الوسيط نفسه في مؤسسة أخرى تحت مسمى وسيط مشارك ثم تمرر المكاسب لهذا الحساب. في بعض الأحيان يقوم الوسيط بتغيير العنوان الرسمي للمستثمر ثم يقوم بتلفيق تقارير شهرية لا تحوي تلك المعاملات التي تمت.

لم تكن تلك هي حيل الدكتور فقط، لقد كان أبرع من هذا بكثير. إنه من سلالة أثرياء المضاربين. أجداده من اللوردات هم من أسسوا الخطوط التجارة بين الشرق والغرب خلال أوج الإمبراطورية البريطانية، أما الآن فالعائلة منتشرة في شرايين النظام الرأسمالي العالمي من بنوك وشركات إدارة ثروات وحتى قليلو الكفاءة منهم فكانوا أيضًا سمسارة في قطاع العقارات بلندن وسويسرا وسنغافورة.

ألقى الدكتور بقايا النودلز التايلاندية نحو فمه الكبير وأشار نحوي قائلًا:

"أريد خط هاتف دوليًا وإنترنت سريعًا ودزينة من زجاجات البيرة وشركة وحسابًا بنكيًا عبر البحار".

كل رغبات الدكتور كان من السهل تحقيقها إلا الطلب الأخير الذي لم أفهمه.

"ماذا تقصد بحساب بنكي عبر البحار؟!".

يخرج مايو من الحمام وهو يحكم رباط الكمينو حول وسطه قبل أن يعلق:

"ها قد بدأت السلاحف البحرية الخروج للشاطئ!".

"أوووه إنه يعرف! كم أنت رائع يا مايو".

يتطلع الدكتور نحوي مبتسمًا ثم يعود لينكفئ على شاشة الكمبيوتر. أقف مشدوهًا ولا أفهم شيئًا. مايو يجلس صامتًا على مقعده، يلقم غليونه ويختفي وجهه وراء الدخان.

"ماذا؟" أهتف في منتصف الغرفة

يجيب الدكتور بلا مبالاة:

"إنها حسابات مصرفية يتم فتحها في بنوك عبر البحار لإخفاء مصادر الأموال.. ها ها ها مايو كم أنت مضحك.. لقد شبهها بالسلاحف التي تذهب إلى الشاطئ لإخفاء البيض.. إنه وصف رائع".

جلست إلى جوار مايو فأشار نحوي بغليونه وقال:

"يذهب القراصنة إلى جزر الكاريبي ليخبئوا الكنوز التى سرقوها من أعالي البحار ثم يعودون بعد وقت ليخرجوها وكأنها اكتشفت للتو".

الآن فهمت ماذا كان الاثنان يقصدان، وقبل أن أستجمع أفكاري أردف مايو قائلًا:

"كل ما عليكما هو أن تتحدثا إليها".

أعطاني رقم هاتف وطلب مني أن أجري المكالمة من هاتف عمومي عند منتصف الليل تمامًا. ذهبت وحدي في الوقت المحدد لأهاتف الشخص المزعوم. أقف داخل كابينة هاتف عمومية يتسكع أمامها ليدي بوي أوروبي يشبه مادونا في عصرها الذهبي. لو كانت مادونا حاضرة لأصابتها الدهشة.

حاول أن يراودني ولكني تحاشيته بصعوبة لأنجز المهمة.

أتاني صوت امرأة ودون مقدمات قالت:

"هل أنت مايو؟".

"لا.. لقد أعطاني هذا الرقم وطلب مني أن أحدثك في أمر ما".

"إذا كان مايو هو من أخبرك عني.. فليكن".

"نحن نريد حسابًا نستطيع تحويل أموال إليه دون أن يستطيع أحد تعقب أثره".

"اذهب إلى جزر الكايمان ثم حدثني من هناك".

هكذا تمت أول مكالمة بيني وبينها، هكذا عرفتها. لم تكن تعرف أني مجنون ولم تكن تصدق أني سأرسل مايو بشحمه ولحمه.

***

ذهب مايو لجزر الكايمان بحقيبة جلدية قديمة وبزة صيفية من الكتان الأبيض. كان يشبه تمامًا سائحًا يابانيًا من عصر الراديو ذاهب للاستجمام في بلاد الكاريبي عندما ودعته في المطار، عدلت قبعته البيضاء على رأسه وشكرته فانحنى محييًا ورحل. لم أعرف لماذا فعل هذا! يبدو أن قصتنا معه لن يستطيع أحد تفسيرها سوى مايو نفسه. لكنه أبقى الأمر سرًا في قرار مكين.

راسلنا مايو بعد يوم ونصف تقريبًا ليخبرنا بوصوله فذهبت في التو لأجري مكالمتي الثانية معها. ما إن فتحت الخط حتى أتاني صوتها غاضبًا:

"هل أنت مجنون؟ لقد أرسلت العجوز بنفسه!".

"لقد وافق".

سمعت تنهيدة طويلة قبل أن تقول كلمتها الشهيرة:

"فليكن".

سافر مايو على حسابه الشخصي ووقع الأوراق وأرسل لنا كود التحويلات ورقم الحساب وصورة من المستندات التي تثبت تأسيس شركة في جزر الكايمان. ها قد بدأت شركتنا القابضة برسوم تسجيل ألف دولار أمريكي فقط لا غير وحساب بنكي بثلاثمائة دولار عمولة. الأمر لم يستغرق أكثر من يوم ونصف، وهكذا تعرفنا على أول خطوة في العالم المعروف باسم "شركات عبر البحار".

ما إن تلقى الدكتور رقم التحويلات حتى أصابني بالرعب. لم أره قط في هذه الحالة وكأن جنونًا قد اعتراه، لا يبارح شاشة الكمبيوتر ولا يترك الهاتف من يده، يهاتف كل أفراد عائلته ومعارفه السابقين في البورصات الدولية وهو يصرخ بلوغارتيمات غريبة، يضرب على لوحة المفاتيح ويدون ملاحظات على الحائط وعلى ذراعيه وقميصه، كان يأكل أمام شاشة اللاب توب وينفث دخان سجائره فيها ويغفو فوقها. أما أنا فكنت لا أفعل شيئًا تقريبًا سوى الاستلقاء على الأريكة طيلة النهار والدوران في طرقات بانكوك من الحي الصيني وحتى شارع خاو سان طيلة الليل. لا يقابلني سوى عروض بمشاهدة بات بونج، عاهرات انتهت فترة صلاحيتهن، برامج تدليك مشبوهة، مخنثين، مروجي ماريجوانا، بائعي العقارب المقلية التي لا تباع ولكنها معروضه فقط للتصوير مقابل دولار، فتيات أوروبيات

من محبي السفر الرخيص لم يعرفن الاستحمام منذ شهور يتجرعن البيرة في الحانات الرخيصة، شباب أوروبي يساوم قاصرات تايلانديات، عرب يوقفونك ليسألونا عن أماكن المتعة، وسائقي التوك توك يلاحقونني على النواصي. كل شيء مباح في بانكوك.

***

الدكتور يبتسم أو يضرب وجهه بكفه أو يصرخ على الهاتف في أحدهم. يتنقل من حالة لأخرى طيلة الوقت وأنا فقط أشاهد وأترقب. عندما عاد مايو وقف في منتصف الصالة يرمق الدكتور ولا يقول شيئًا.

لم يكـن من الممكـن أن تفهم مايـو إذا لم تعبر البحـر. مايو يقف على الشـاطئ الآخر من الحقائق. مايو قلب العالم ليفهمه وعندما فهم، اعتمر قبعته وجلس يدخن الغليون.

***

عزيزي مايو الفيلسوف، أنا الآن على قمة الهرم. تحتي طوابق صنعت من حديد الرأسمالية المكسو بواجهات زجاجية براقة. أنا متربع على طاولة المؤامرات أتطلع نحو أبراج دبي الشاهقة. أنا في مقر صناعة الأحلام البعيدة. عزيزي مايو لماذا تركتني أبحر وأنت أول من شخَّصْتَ حالتي وأدرك أني مجنون؟

14

قبل أن ينتهي الشهر وقبل أن يدرك أحد أن الحسابات الختامية الشهرية قد تبدلت بأخرى نظيفة، كان مايو قد أصبح مليونيرًا. ضرب الدكتور رقم الحساب فظهر المبلغ على الشاشة.

١١,٣١٧,٠١٩,٠٨

"هل تمزح معي؟".

هتفت ملتاعًا فأجابني بفخر:

"أنا الدكتور!".

"أحد عشر مليونًا؟! لم أكن أتخيل هذا.. نحن نريد السبعة ملايين فقط".

"هل أنت أبله؟ هل تتوقع مني أن أذهب وأقول لهم ضاربت بأموالكم في السر وسأقترض منها سبعة ملايين فقط؟".

"كيف ربحت كل هذا المال من المضاربات؟".

رفع أصبعه وصمت للحظة وابتسامة زهو كبيرة تكسو قسمات وجهه الأحمر ثم انطلق منشدًا:

"عزيزي، لقد استخدمت جون ابن عمي لتسهيل مهمتي في بورصة هونج كونج وطوكيو، أما ديفيد أخوه فسرب لي أسرار بعض الشركات في بورصة لندن ثم عقدنا صفقه مضاربة لرفع سعر أسهم عبر حركة مكثفة في التداول ومنحونا عمولة كبيرة.. أما جاك صديقي القديم فهو ذو منصب كبير في أكبر بنك تجاري في العالم أعطاني معلومات حساسة عن صفقة توشك على الانتهاء.. لقد أرسل لي الرسالة من داخل غرفة الاجتماعات فاشتريت أكبر عدد ممكن من الأسهم وما إن انتهى الاجتماع حتى انتشر خبر الصفقة وصعد السهم بجنون فقمت بالبيع.. لقد خسرنا وكسبنا وهذا هو الصافي".

"لماذا لم تربح من قبل أموالًا كهذه إذا كنت تعرف كل هذا؟".

"هناك فرق كبير.. في السابق كان عملائي لا يجازفون سوى بنصف مليون على الأكثر وكنت أبذل مجهودًا كبيرًا معهم لإقناعهم بالمزيد.. لكنهم يخافون تقلبات السوق كالعادة.. أما الآن فالأمر مختلف.. نحن ضاربنا بقرابة عشرة ملايين في كل ليلة.. المال الكثير يُولد عائدًا كبيرًا.. هذه نظرية اقتصادية معروفة".

أمعن النظر للدكتور وأنا مشدوه كطفل يتفحص لعبة حصل عليها للتو ويريد أن يستكشف كيف تعمل. يتجرع الدكتور دفعة بيرة طويلة ويتطلع نحو نفسه ثم يرفع عينيه نحوي ويقول:

"أعلم أنك أيضًا لم تكن تعرف ما أنا قادر عليه.. أعلم أني دومًا أبدو أخرق.. لكني كنت وحدي وأنت الآن معي.. ذات يوم ستفهم ما أعنيه".

في هذا اليوم صدقت الدكتور ووثقت به بالرغم من عدم فهمي لكلماته. لقد كنا في وضع شائك ومعقد ولم يكن هناك وقت للتفسيرات. نحن متهمون بالضلوع في قضية احتيال كبرى. صورنا ظهرت في إحدى الصحف الأسبوعية بدبي ومرفق مع الصور تحقيق شامل. صحفي ما قرر أن يتقصى عنا وكتب فضائح كثيرة عن الدكتور ولكنه لم يجد شيئًا عني ليكتبه. وكعادة الصحفيين عندما لا يجدون الكثير من الحقائق عن شخص ما فإنهم يجتهدون في إضافة وصف مفخم. لقد وصفني الصحفي الفاشل بالغموض والحيطة وأنه من الصعب الحصول على معلومات عني. لقد أصبحت اللص الغامض المكير! ما هذا العالم السخيف؟

قد لا أؤمن بما قاله الدكتور، ولكن مما لاشك فيه أننا قد ارتبط مصيرانا ببعضهما. لم نعد نملك خيار الانفصال. لقد أصبحنا معلقين في نفس الحقبة الزمنية العجيبة. أنا والدكتور صرنا مثل أليس والأرنب في دنيا العجائب! إنه عالم عجيب يشبه الخيال. ما زلت لا أصدق كل ما حدث، كيف أصبحنا محتالين ثم بعدها بأسابيع قليلة صرنا غنيين؟ كيف ربحنا كل تلك الأموال؟

كل هذا الآن يبدو كحلم عجيب لا يستطيع أحد تصديقه. شطآن الكاريبي كانت أيضًا شيء لا يصدق، خيال لا يمسه وصف، وأنا والدكتور وحكاياتنا في عالم المال تذهب إلى ما وراء شطآن المحيط، بعيدًا حيث الجنات التي تجري من تحتها تريليونات العالم.

***

هبطنا في جزر الكايمان ثريين ونمتلك المبلغ الذي أُتهمنا بالاستيلاء عليه ظلمًا وأكثر. تذاكر بيزنس كلاس، ليموزين، جناح ضخم بأحد أفخم فنادق العالم يطل على رمال الكاريبي الناصعة وحسناوات بزي البكيني يتمطعن على الشاطئ. الآن علينا إخراج المال الذي أرسلناه إلى كايمان ليعبر القارات والمحيطات ثانية. دخول المال إلى تلك البقعة من العالم كان سهلًا ولكن إخراجه يحتاج ترتيباتٍ ما علينا تعلمها. بعد عدة لقاءات مع مكتب المحاماة التي دبرت أمره المرأة التي هاتفتها من بانكوك، تعلمنا الكثير عن أسطورة "الشركات المحدودة"، وكيف تعمل في عالم "الأوف شور" بحرية وسرية مطلقة. قوانين وضعت لا لشيء سوى لدفن أسرار العالم. تلك الجزر الصغيرة كان لها تأثير السحر على كل منا وكان لا بد أن نتعلم المزيد قبل أن نغادر.

"دخول الحمام ليس كالخروج منه".

"أنا أيضًا لديَّ إمساك.. يبدو أننا أسرفنا في تناول عصير جوز الهند".

"إنه مثل مصري يا أحمق.. سيكون علينا تعلم هذا الأمر".

"تقصد شركات "الأوف شور"؟ ما الذي تخطط له؟".

"ليس شيئًا محددًا.. عليّ أن أفكر في الأمر".

يسود الصمت ونرنو نحو الشاطئ حيث كان الغروب يرسم لوحة بديعة. يتمشى مايو هناك وحده بعد أن شمر بنطاله وربط حذاءه على كتفه. يحني رأسه للأمام وكأنه يتحدث مع أمواج الكاريبي الناعمة. ماذا يدور في رأس العجوز الياباني؟

تداعب رياح المحيط رؤوس الشجر ويعزف هناك عند البار فنان أسمر من المحليين أغنية بوب مارلي "أنا قتلت الشريف". بوب مارلي دائمًا يصيبني في مقتل بكلماته، إنه لا يبالي مثلي، كلانا يريد أن يقتل الشريف.

يحتسي الدكتور كوبا من النبيذ الفاخر لم يكن ليقدر على ثمنه منذ عدة أسابيع، ويحدثني عن فتاة أحبها تدعى كيم. كانت ممرضة تعمل في نفس القسم الذي كان يعمل به كطبيب تحت التمرين. عندما كانت تمر أمامه في ممرات المستشفى كانت تصيبه بالخدر. شعرها المنسدل على ظهرها، خطواتها الرشيقة كملاك يخشى أن يطأ الأرض، عيونها التركوازية البريئة الصافية تطل كشاطئ بكر لم تمسسه مخلوقات. طفت أمامي صورة نادين، هل كنت أحب نادين؟ لا أعرف إجابة لهذا السؤال المحير ولكن كل ما أعرفه أنها غيرتني وغيرت مسار حياتي. لولا نادين لما غيرت وظيفتي وانتهى بي المطاف هنا. لولا نادين لكنت الآن في ركن من حياتي آمن وهادئ. المرأة هي السؤال الذي لا يستطيع الرجال حله أبدًا. المرأة هي نقطة التحول دائمًا.

"ثم اكتفوا بمنعي من مزاولة المهنة والغرامة ونجوت من السجن".

"ماذا حدث؟".

"كيم أبلغت عني وأخبرتهم بأني أسرق الأدوية المخدرة، بسبب مشاجرة نشبت بيننا في البيت حول عدم رفعي غطاء التواليت قبل الاستخدام".

"إذًا كيم الملاك البريء قضت عليك؟".

"بالضربة القاضية.. أصابت الهدف تمامًا".

وضع رأسه على كفه قبل أن يتابع:

"أنا لا أخشى المضاربة بعشرة ملايين ومشاهدة الأسهم وهي تهوي على الشاشات ولكني أرتعد إذا اقتربت مني امرأة".

"ترى هل تزوج مايو يومًا ما؟ هل لديه قصة حب ما؟".

"ربما أصبح فيلسوفًا بسبب امرأة".

"يا لها من امرأة إذًا تلك التي صنعت مايو الفيلسوف".

***

جزر كايمان تبلغ مساحتها 264 كيلومترًا، تحتوي على 297 مصرفًا، تقريبًا بنك لكل كيلومتر مربع. على الخرائط عليك أن تقرّب الزووم حتى النهاية لتستطيع أن ترى الجزيرة التي تحتوى على 1.5 تريليون دولار في مصارفها، أموال توازي ميزانية نصف قارة أفريقيا بسكانها ومناجمها وألماسها وأفيالها، أهلًا بك في النظام المصرفي العالمي المكير.

كانت مهمتنا التي أرسلنا من أجلها مايو سابقًا هي تأسيس شركة في جزر

الكايمان وحساب بنكي نستطيع نقل الأموال منه وإليه. لكن الاكتشافات توالت عليَّ بعد قضاء عدة أيام في جورج تاون، المدينة الصغيرة التي هي عاصمة جزر الكايمان وأيضًا عاصمة الكثير من كبريات الشركات العالمية التي تعرفها. أشار أحدهم إلى صندوق بريدي صغير وقال هذا مقر الشركة المالكة لنادي مانشستر يونايتد.

مكالمة هاتف أرسلتنا لجزر كايمان ومن هنا بدأنا اللعبة ومضينا في الطريق. لسنا الوحيدين، هذا الطريق تمر منه رؤوس أموال خرافية كل يوم. أهلًا بك في طريق الحرير الجديد. الرأسمالية تضرب بسلاحها المتين "رأس المال".

لسبب ما غريب لم تكن أزمتنا تلوح أمامنا الآن، بل فجأة شغلتنا دروب القوانين في كايمان وانتزعتنا، لقد كنا في قلب التجربة وبأموال حقيقية وكان علينا أن نتعلم كيف نفعل هذا بشكل قانوني. أمضينا أيامًا إضافية نتتبع الأمر حتى وصلنا إلى فهم ما واضح لأبعاد اللعبة وكدنا أن ننشغل عما أتينا من أجله.

مايو فجأة وعلى حين غرة باغتني بسؤال عويص وهو يحتسي بعضًا من الساكي الفاخر:

"هل لو سددت المبلغ المطلوب منك ستكون قد حللت المشكلة؟".

"أمم.. ماذا تعني؟".

"فكر قليلًا.. ماذا حدث للسبعة الملايين الأصليين؟".

"لا أعرف".

"فكر".

"ما الذي تريديني أن أفعله أيها الياباني المحير؟".

"ربما لم تكن هناك سبعة ملايين من الأساس".

خبطت رأسي بكفي وفغرت فمي:

"هل تعتقد أن..".

لم يجب مايو. تركني وقام ليتمشى بطمأنينة على الشاطئ. كان القمر يقف هناك في السماء مطلًا على البحر المظلم، مستديرًا وصريحًا بلا هموم أو أعباء بينما البحر غامض وأمواجه القلقة تتكسر بالقرب من مقعدي الشاطئي. يذهب مايو في رحلته ويغوص في الظلام، بينما تنخر كلماته في رأسي، تحدق فيَّ مثل ذلك البدر الصريح.

في الصباح التالي توقفنا أمام الفيلا نتفحصها بلا اكتراث بينما انطلق الوسيط العقاري ذو البزة واللكنة البريطانية المنمقة يصف مميزات الموقع وعدد الغرف وعمق حمام السباحة وكل تلك الأشياء المملة بالنسبة لنا. أبدينا موافقتنا على الشراء بناء على اقتراح من المحامين الذين يتولون كل أوراقنا. كنا فقط نريد إخراج سبعة ملايين من البنك والمودعة باسم شركة لم أعد أذكر اسمها. نعم لقد نسيت اسم أول شركة قمنا بتأسيسها ربما لأن تأسيس الشركات في جزر كايمان أسهل من الذهاب للتبضع في كارفور والبحث عن موضع للسيارة في السيتي سنتر. اشترينا العقار وحولنا الأموال باسم الشركة المالكة ثم حزمنا حقائبنا مغادرين على متن الطائرة المتجهة إلى هونج كونج عبر مطار نيويورك، 18 ساعة من التحليق والنوم ووجبات شركات الطيران السيئة وأفلام هوليود التجارية.

***

هونج كونج للمرة الثانية، ها قد عدنا لتفيذ الخطة التي فكرت فيها طويلًا ولكنها لم تلقَ أي تعليقات من الدكتور، أومأ برأسه فقط واستسلم. افترقنا عن مايو في المطار، رفع قبعته البيضاء وانحنى بطريقته اليابانية ثم اختفى. ذهب مايو في زحام هونج كونج وعدت أنا والدكتور لمحطة البداية. رحلة السبعة ملايين لعنة!

***

"أهلًا كاك.. كيف حالك؟".

حياني بأدب وعيناه لا تفارقان عيني، يتفحصني بدقة بالغة ولكن الهدوء لا يفارقه. لم يدع الوقت يمر وباغت على الفور:

"ماذا في جعبتك؟".

"كم تكلفة تنظيف تلك الفوضى؟".

"إن الأمر أكبر بكثير منكما".

قاطعته بحزم قائلًا:

"السبعة ملايين ستكون جاهزة مقابل تسوية وضعنا القانوني في دبي".

"كلها؟".

"التحويل جاهز عندما تكون أنت جاهز" قلتها وأنا مثبت عينيّ في عينيه. تتطلع نحو الدكتور وكأنه يستوثق الأمر فلم يجد سوى ابتسامة ثقة وفخر تصدح على وجه الدكتور.

تراجع الهونج كونجي الطويل في كرسيه قليلًا وبدا كأن قطارًا مندفعًا

قد دهسه، تلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن القطار في الحانة ولكنه لم يجده. لأول مرة يخرج من تحت صدفته الصلدة ويمد رأسه مندهشًا كسلحفاة قبل أن يهتف:

"أنتما لا تمزحان معي؟".

"نريد تصفية الأمر وفي أقرب وقت.. قم باتصالاتك وسنقوم بإيداع المال في حساباتهم.. ولاتنسَ أن ترسل فاتورة أتعابك".

في الحقيقة كاك لم يحتج وقتًا ليفكر، عميل من الدرجة الأولى! كاك حساباته كلها معدة سلفا، سيبيع أباه لمن يتكفل بالفاتورة. يشبهه الدكتور بالقاتل الأجير الذي لا يحتاج سوى صورة وعنوان لتقرأ النعي في صحف اليوم التالي. الدكتور كان يريد أن نسير في الدروب القانونية ولكني أقنعته بأن كاك هو مفتاح كل شيء في تلك العملية.

لم يكن كاك ليحتاج أكثر من يوم ليعدّ كل شيء. قابلناه في مكتب الشركة الأم بحضور أكثر من 7 من مديري الشركة ومستشاريها. لم ندخل في أي تفاصيل، كل الأوراق كانت جاهزة للتوقيع مع إيصال استلام لمبلغ السبعة ملايين دولار. مكتب المحاماة في جزر الكايمان كان قد باع العقار بالفعل لعميل آخر لديهم وهو ملياردير روسي يعمل بسوق الفوركس وعلى التوّ قام بتحويل الأموال من بنك في قبرص إلى حساب بنكي في هونج كونج. وقع الصينيون الأوراق وقمنا بمنحهم مبلغًا إضافيًّا طلبوه مقابل أتعاب المحاماة في دبي التي سيقومون بها لتبرئة ساحتنا. هكذا تم تسديد الخانات، ولم يتبق سوى أن ننتظر في هونج كونج حتى تنتهي الإجراءات القانونية.

بعد عدة أسـابيع حضر كاك ليقابلنا في الفندق. أخبرنا بأن الأمر كان قد تم تسويته، وأسقطت الدعوة. مررت له شيكًا فتفحصه قبل أن يبتسم قائلًا:

"نصف مليون دولار؟ هل هذه أتعابي؟".

"هذا مقدم العملية الجديدة".

"لا أعتقد أني أفهم جيدًا ما تقصده".

"لقد طلبت منك من قبل أن تعمل لحسابي.. اعتبر المبلغ تأمينًا لإثبات الجدية وحسن النوايا".

"ولكن الشريكين.. أنهم ربما سيفتشون عن تغطية لهذه المفاجأة.. هل تريد أن أتولى الأمر؟".

"بكل تأكيد".

تتطلع نحوي الدكتور مصدومًا بينما رفع كاك حاجبيه وبخبرة المتمرس على البيزنـس وعقد الصفقات طالع الشيك مجددًا وهز رأسه بأدب ومضى. لم يكد كاك يتلاشـى في بهـو الفندق حتى قفز الدكتـور فوقي وقد أصابه الجنون.

"هل تعرف كاك هذا من قبل؟ وما الذي تريد أن تفعله؟ أنت لم تخبرني بهذا الجزء من الخطة".

"اهدأ يا أحمق.. كاك حسب ظني هو الأكثر دهاء هنا في ملعبه وسيخدم من يوفر له ميزات أفضل":

"ما العملية التي تريد أن ينفذها لك؟ ماذا تدبر له؟ لماذا يبدو وكأنه سكرتيرك الخاص؟ كيف وثق بأنك ستعطيه أتعابه بعد التسوية؟".

"فكر قليلًا.. أنسيت المخزن الذي تمّ حبسنا فيه عندما تتبعناه في المرة السابقة وكل هؤلاء الذين كانوا يراقبوننا.. اليوم لم نكن لنخرج من هونج كونج لو لم نأمن شره.. إنه محترف.. ثانيًا الوغدان في دبي ومن خلفهما لن يتركوا الأمر هكذا بعد ما فعلناه مع الشركة في هونج كونج.. لقد كشفناهم وصاروا بدون غطاء.. لا بد أن نكون مستعدين لهم".

هدأ ثم أطرق قليلًا قبل أن يقول:

"أرجو أن تكون متأكدًا مما تفعله".

تطلعت إلى الفزع البادي في عينيه وابتسمت بثقة. في الحقيقة أنا لم أكن متأكدًا من شيء على الإطلاق! كل ما استنتجته عن تلك اللعبة لم يكن سوى شكوك ليست واضحة. كنت أحاول كعادتي فتح الباب المناسب الذي يتيح لي إطلالة أكبر لأتبين أبعاد هذا المشهد الغامض.

لقد كنت في أوج لحظاتي الأولى في هذا العالم. أول مقامرة حقيقية وأول لاعب يلقي بورقة على الطاولة المتربصة. لقد كنت منتشيًا بذلك الشعور الجديد. منتشيًا بلذة المجازفة المجنونة.

16

العام 2005، تحط الطائرة في مطار دبي، يحيينا ضابط الجوازات بابتسامة، تطل الوجوه الهندية والعربية والأوروبية من حولنا، تلفحنا حرارة الهواء المألوفة، تطل بوابة سالك فوق رءوسنا ونحن نعبر الجسر، تبزغ أبراج شارع الشيخ زايد في الأفق. ها قد عدنا إلى مدينتنا، ولكننا لم نعد مثلما كنا من قبل. لقد تغيرنا. يصيبنا قلق وكأن شيئًا فُقد. ربما فقدنا البراءة التي كنا نحملها تجاه المدينة.

لقد علمتنا المدينة أولى دروسها، الأخطاء في دبي دائمًا ما تكون باهظة الثمن. المدينة المفتوحة على مصراعيها للقادمين من الشرق والغرب بشعارات الفرص والتسوق ومستوى المعيشة المرتفع، قد تخفي في أروقة المباني صراعات المال وطموحات شرسة لا تعرف رحمة.

أتطلع نحو الطرقات في حي الجرينز حيث مسكننا وأخرج للتنزه قليلًا بالرغم من الرطوبة الخانقة. الحي بدأ يزدحم عن ذي قبل. الكثير من الأسر الأوروبية والهندية والعربية نزحت إلى هنا مؤخرًا. جارتي الأسترالية كانت تتطلع نحوي بريبة وتمعن وهي تتنزه مع كلبها في الجوار. ربما قرأت ذلك الخبر الذي نشر في الجريدة عن القضية. هل عليَّ أن أنسحب من هنا وأذهب إلى مكان آخر؟ المال الذي تبقى في حوزتنا كافٍ لنذهب به بعيدًا ونواصل حياتنا في مكان ما مختلف. ربما ينتقل الدكتور إلى بلد مثل نيوزلندا أو أستراليا أو سنغافورة، الإمبراطورية البريطانية ما زالت كبيرة ومسيطرة على أماكن شتى في العالم ولن يتعب في البحث عن ملاذ. ولكن ماذا عني؟ أين أذهب؟ يقولون إن الكومباوندات انتشرت على أطراف القاهرة، فيلات ومولات وشقق بينتهاوس فاخرة. ولكنها ما زالت القاهرة، المدينة المكتظة بكل من يراقب من حوله. ربما سأعود لنفس المقهى القديم وزملاء الدراسة أو ربما سأنتقل لكومباوند جديد يشبه حي الجرينز وأستبدل المقهي القديم في شارعنا بكوستا كافيه. ما الذي سأفعله في مدينتي القديمة؟ لا شيء جديد، لا شيء يتحرك، إنه واقع قديم وعتيق ولا يتزحزح مع تحرك الزمن. وطني يشبه تمامًا التعريف الشهير في كتب التاريخ "أقدم حضارة عرفتها البشرية". بلدي بكل تأكيد قديمة لدرجة أنها لم تتحرك منذ هذا الحين. العالم يهرول ويتقلب ويتأثر بالزمن بينما مدينتي السابقة لم تتحرك في أي اتجاه. أعلم أنها ضاقت عليَّ منذ تركتها ولم أعد قادرًا على العودة إليها. أنا لم أعد أعرف سوي دبي. أجفف العرق عن جبهتي وأنا أتطلع نحو سيارتي

الرابضة في الظلام. انطلق في طرقات دبي بأقصى سرعة ضاغطًا على محرك السيارة وكأنه يخنقني وأريد أن أتحرر. أجوب الطرقات بلا هوادة لساعات قبل أن أهدأ لأجد نفسي متوقفا أمام برج دبي الذي بدأ العمل به. لقد صنعتها يا صديقى وبدأت في الصعود، هل تتذكرني الآن؟ أنا صديقك القديم الذي كنت أسكن أصغر غرفة في العالم على الطرف المقابل.

***

أغرقت سوزانا وجهي بالقبلات عندما قابلتها، حاولت تفادي الهجمات ولكن دون نجاح، أدت عملها بإخلاص وتفان. انزوينا في مقهى صغير بمنطقة البرشاء قبل منتصف الليل بنصف ساعة وكل ما كانت تردده هو "كيف فعلتها؟". طلبت منها أن تسدي لي خدمة فأمسكت بكفي واشرأبت قليلًا لتريني فتحة قميصها قبل أن تهمس "أي شيء". لقد قامت بنفخ أشيائها أكثر من ذي قبل في آخر زيارة لها لمركز تجميل جديد. لا يهم، عليّ أن أقاوم هذا التشتيت. اقتربت منها وهمست بطلبي. ما إن أخبرتها حتى رسمت حرف أوه كبيرًا بفمها وهتفت بلكنة إنجليزية صميمة تُدرس في محاضرات أوكسفورد:

"يا إلهي! لا أستطيع.. أنا أخشاهم بشدة منذ أن علمت ما فعلوه بكما.. أنا هنا وحدي في دبي".

حاولت تهدئتها وأخبرتها أن كل ما عليها أن تأخذ وقتها وتفكر. لكنها في الحقيقة لم تفكر. في كل مكالمة دارت بيننا منذ هذا الحين كانت تسرب لي التفاصيل. النساء يا عزيزي! دعهن يعبرن عن رفضهن وقلقهن وكل

ما عليك هو أن تتفانى في تمثيل دور المصدق والمقدر للأمر ثم استمتع بالعرض عندما يبدأ. لا يستطعن مقاومة الثرثرة وفضح الأمور.

أبو حمدان لديه عشيقة روسية كلفته في الشهر الماضي قرابة المائة ألف دولار. الفاتورة قد وصلت إلى مكتبه هذا الصباح. أبو وليد طلب حجز تذكرة طيران إلى هونج كونج. الآن حان دور كاك. هل عليّ أن أثق بكاك؟ حتى لو لعب ضدي سأستفيد من الأمر. لقد آن الأوان لتلك الشبكة أن تدرك وجودنا على طاولة اللعب وبأننا قادمون إليهم.

***

في مدينة مثل دبي، كل جنسية تستطيع أن تصفها باللوبي، وخصوصًا الأغنياء منهم. الهنود الأثرياء يعرفون بعضهم بعضًا، الأستراليون، البريطانيون، الجنوب أفريقيون من ذوات البشرة البيضاء، الروس. الجميع يسدي الخدمات ويجتمع في منتجعات جولف خاصة، مطاعم بعينها في الجميرا، أندية وشواطئ خاصة وأحيانًا في يخوت خاصة بالجزر الصناعية التي يمتلكون فيها قصورًا. حتى اللبنانيين الأثرياء، وخصوصًا من هم يحمل الجنسية الكندية مثل أبو وليد يعرفون بعضهم بعضًا جيدًا وتربطهم علاقات بيزنس ومصالح.

بقليل من التفتيش، عرفت أين يقضي أبو وليد معظم سهراته في دبي. بار "سكاي فيو" الأفخم في المدينة، البار الذي يحتل الطابق السابع والعشرين في فندق برج العرب والذي يقدم أغلى شراب كوكتيل في العالم، يدعى "دايموند فورإيفر". خمسة آلاف درهم مقابل كوكتيل يقدم في زجاجة

بلورية خاصة من سواروفسكي تزينها ألماسة. ترددت على المكان عدة مرات وبدأت أكوّن علاقات وأتجاذب الحديث حول البورصة مع بعض الرواد حتى انتهيت عند رجل ممشوق القوام، يعقص شعره الطويل الأسود خلف رأسه، يرتدي قميصًا مفتوحًا من الحرير الأسود ماركة فيرساتشي ويدخن سيجارًا كولومبيًا. الخلاصة، هو يتمتع بمظهر تاجر مخدرات لاتيني بامتياز ولكنه ليس كذلك. لم يكن مترددًا معي في أول حديث بيننا، وبدا كأنه يعرفني منذ سنوات. بالرغم من توجسي في أول لقاء إلا أن الصدفة لعبت دورها، وهبطت على الرجل الأول.

صفوان الذي أسرف في مظاهر الثراء وتناول الخمر والثرثرة بلا توقف، قدم نفسه لي على أنه رجل أعمال، ولكنه لم يكن رجل أعمال، لقد كان رجل كل الأعمال. إنه صفوان المعروف في ملفاتنا لاحقًا بالاسم الحركي "العميل هارون".

تتطلع نحوي برأس ثقيل ثم ابتسم:

"أنا أعرفك.. لقد سمعت عنك بعض الأشياء المثيرة".

"حقًا؟! إذًا أخبرني عنها".

يغمز ويدعوني إلى طاولة في آخر البار ويبدأ أول حديث بيننا. بعد نصف زجاجة أخرى من نبيذ فرنسي فاخر وتشكيلة متنوعة من الكوكتيلات، سألته عن أبو وليد وأنا أشعل سيجارة محاولًا أن يبدو السؤال غير مهم، ولكنه لم يبتلعها. تفحصني جيدًا قبل أن يسهب في حديث طويل مثير.

ألقى في وجهي العديد من المفاجآت التي لم أتوقعها. ها هي دبي ذات الأبراج تبدو أصغر كثيرًا مما كنت أتخيل. لا شيء يختبئ عن الأنظار. كل شيء معروف لحساب مَنْ.

ساعتان من الحكايات عن أشياء هامة وأخرى فارغة، انتهت بسقوط رأس صفوان على الطاولة. غطّ في نوم هانئ بينما ظل فمه يهمهم بأصوات مبهمة. لقد كان صفوان مكبرًا في كل شيء إلا في حفظ لسانه. الجينات العربية الأصيلة التي تضرب بجذورها في شعوبنا لا يمكن دفنها بسهولة، الجدة الثرثارة ستخرج لا محال وتنم عن الجميع.

أشعل سيجارتي الأخيرة وأتطلع نحو صفوان النائم. منذ الوهلة الأولى وأنا على يقين بأن هذا الرجل يملك بين يديه كل الفرص الممكنة والمستحيلة للقفز فوق تلك المدينة.

***

لم يخيب كاك ظني وهاتفني في أحد الصباحات ليقدم لي تقريرًا مفصلًا عن كل شيء فعله أبو وليد منذ حطت قدماه في المدينة. حسب رواية كاك، أبو وليد حاول طيلة أسبوعين الوصول لتفسير لما حدث والنبش خلفنا ولكن كاك كان مستعدًا، وبخر الشركة الصينية بكل تعاملاتها ونقل مراكزها المالية إلى سنغافورة تحت مسمى "هالونج واند". لم يبخل عليَّ كاك بشرح أو توضيح، يقدم فروض الطاعة ويشعل بخور بوذا لكسب ثقتي. تبقى شيء أخير قاله كاك، جعلني أفكر طويلًا فيما قاله صفوان بالبار. كل مكالمات أبو وليد كانت تذهب إلى شخص واحد فقط. أرسل إليَّ كاك

الرقم الذي حصل عليه بطريقته الخاصة من موظفي الفندق. الرقم لم يكن لـ أبو حمدان. إذا لم يكن يتصل بشريكه فبمن يتصل؟

كان عليَّ أن أفعل شيئًا واحدًا ودون تفكير. اتصلت بالرقم فأجابني على الفور رجل صوته أجش يتحدث الإنجليزية بلكنة غريبة لا تستطيع تمييزها. باغتني على الفور قائلًا:

"من أين حصلت على هذا الرقم؟".

"أنا..".

قاطعني على التوّ:

"لا يهم من أنت طالما وصلت إليَّ.. هذا شيء سأبحثه لاحقًا.. قل لي ماذا تريد؟".

هذا ما حدث عندما وصلت لهذا التركي الذي يتحدث سبع لغات وكلها بلكنة واحدة عجيبة. في اليوم التالي دعاني للقائه، أطل عليَّ بكأس مليئة بالفودكا ولحية نابتة وبزة إيطالية فاخرة. ووجهه المربع لايشي بشيء وعيناه منتفختان ويتكلم كأنه يبصق.

"لقد قلت لي على الهاتف إنك الشخص الذي يعرف من الذي أخذ الأموال".

"نعم، إنه يدعى كاك في هونج كونج".

تراجع قليلًا في كرسيه وبدا أن الغضب سيطيح به في أية لحظة.

أرسلان التركي، يمتلك شركة شحن تركية ضخمة ومتاجر مجوهرات ومنتجعًا سـياحيًّا في دبي وآخر في إحـدى الجزر التركية وقصرًا في الريف

الألماني وسلسة مطاعم تركية شهيرة حول العالم ويختًا وشاليه في الريفيرا الفرنسية، لكن كل هذا لم يكن شيئًا بجوار ما كان يفعله. هذا البدين التركي الذي لا يكفُّ عن شرب أفخر أنواع الفودكا مع الأثرياء الروس، والنبيذ مع الشركاء الأمريكيين، يحتكر شبكة طويلة من الذين يعملون لحسابه فوق الأرض وتحتهـا ليس في دبي فقط، بل والشرق الأوسـط كله. ثروته التي تراها في كل مكان كان مصدرها الرئيسي هو تجارة البترول مع العراق في فترة العقوبات الدولية، وصفقات سلاح على جانبيّ الخليج. ولسوء الحظ أو حسن الحظ، كان ضالعًا في الصفقة التي وقعنا فيها. لقد تلاعب به أبو وليد وأعطـاه المعلومة الخاطئة، عصابة مـن اللصوص يسرقون بعضهم بعضًا، كل هـذا عرفته لاحقًا وبالتفصيل. دبي حلقة صغيرة تشـبه دعوة عشاء يحضرها الجميع.

صفوان صديقي الجديد كان قد أخبرني قبل أن يغفو عليه، إن أبو وليد ليس سوى مجرد واجهة أنيقة للكثير من الأعمال، يتم استئجاره ومنحه لقب مدير تنفيذي ليكون فقط بروازًا. يتم فقط إدراجه في اللقاءات وحفلات التعارف لجمع المعلومات مثل الفتيات التي يتم الاستعانة بهن في الحفلات التشريفية، أبو وليد أيضًا لم يكن لديه حتى ولد يدعى وليد، هذه المعلومة تحديدًا لم تدهشني.

المصادفات المتلاحقة هي التي لعبت الدور الأكبر في تجميع الخيوط. كاك كان هو مالك الشركة الوهمية التي سوقها لشركة أخرى في إطار اندماج شكلي، كان عليه تأمين شكل حقيقي وقانوني للأمر. بمساعدة أبو وليد

وأبو حمدان قاموا بتأسيس مشروع عقاري فخم في سنغافورة. كاك أغراهما بحصة كبيرة في الأرباح مقابل الترويج للأمر في دبي، بالطبع في مدينة مثل دبي، تعج بالباحثين عن فرصة لاستثمار أموالهم، سيغري المشروع الكثيرين، ثم من بعد يتم ترتيب الأمر ليبدو المشروع متعثرًا ويتم رد الأموال. هكذا يصير الأمر مقنعًا، لا شيء يثير الريبة، كم من مشاريع بدأت ثم تعثرت. لكن اللعبة لا تنتهي هنا، السلة تحتاج لتفاحات حقيقية. ما فعله الدكتور بأموال المستثمرين هو الذي فعله الشريكان ولكن بطريقة مختلفة. شركتنا تعمل في الأساس على إدارة الاستثمارات، لقد أغروا المستثمرين في البداية بالاشتراك في المشروع ثم بعدها أعادوا إليهم الأموال بدعوى أن المشروع متعثر وأسهم الشريك الآسيوي تهوي. ما بين الوقت الذي خرجت فيه الأموال ووقت عودتها، كان يحدث الكثير. في البداية يتلقاها كاك لتبدو في السوق كتمويل حقيقي ثم تخرج في العديد من الاتجاهات، مضاربات واستثمارات سريعة وتغطيات نقدية وأشياء أخرى. بعد جني الأرباح السريعة يتم إعادة الأموال لقنواتها الشرعية وتعود للمستثمرين. لقد استردوا أموالهم كاملة والأسباب معروفة، لقد تعثر المشروع وستكون هناك مخاطرة. يتقاسم الشريكان مع كاك أرباح تلك الفترة ثم يقوم كاك بعدها بتسويق شركته للدخول في تحالف جديد وتغيير اسم الشركة. وبذلك يكون الأمر قد تمّ تسويته أمام الجميع. لقد لعبوا هذه اللعبة عدت مرات بنجاح ولكن هذه المرة حدث شيء مختلف. لقد ظهر أرسلان في الأمر ومأزق السبعة ملايين دولار. كان هو المالك للشركة ومرروا الأمر دون

علمه ثم بعد افتضاح الأمر خلقوا قصة السبع ملايين الوهمية وبحثوا عن ضحية. لم يكن أي من الطرفين يريد تسديد مكسب الصفقة لأرسلان. كل ما فعلته أن وضعتهم في مواجهته وها هو القط التركي السمين غاضب. لا بد أن يطول أحدًا بمخلبه.

وكما قال مايو ساعتها إن هناك تفاحات أخرى.

17

مارس 2013، في الغرفة المطلة على مانهاتن تستمع إليَّ كاميليا الصحفية الأمريكية وأنا أواصل قص حكايتي. تفتح عينيها الواسعتين وتطل على روحي. فوق أرفف الكتب كانت هناك لوحة تدعى العاصفة لرسام يدعى ويليام تيرنر. اللوحة لمركب وحيدة وسط الأمواج.

"كانت مركبنا قد غادرت الميناء بالفعل. لم يكن أمامنا سوى المحيط المفتوح. أنا على الدفة والدكتور قابض على الشراع وكلانا متأهبان للمضي قُدمًا نحو قلب العاصفة. الريح ستهب بقوة من الجهات الأربع. نعلم يقينًا بأن تلك الرحلة فرضت علينا دون اختيار. إنه القدر وحده الذي رسم تلك الطريق الوعرة".

"هل تعني أنهم لم يكونوا ليتركوا الأمر يمر؟".

أغيب في عالمي متذكرًا الدكتور. أتذكر كيف كان ينظر نحوي ويبدو أنه سيقول شيئًا ولكنه يتراجع. ينفث دخان سيجارته ويهيم في ملكوته. لم نكن قد غادرنا الملهى الليلي المطل على شاطئ الجميرا بالرغم من بزوغ الفجر. كان العمّال يجمعون الطاولات والمقاعد بينما أنا وصديقي نتطلع نحو البحر صامتين. تطل عليَّ فتاة بريطانية تفضحها لكنتها. عيناها الزرقاوتان تزوغان قليلًا من أثر السكر ثم تعودان لتغوصا في وجهي. ودون مقدمات فجأة قررت أن تقوم من مكانها وتندفع نحوي. فستانها أقصر من أن يوصف بالفستان وأضيق من أن يجعلها تصل إلى مكاني بسرعة. اتخذت وضع الاستعداد متوقعًا شيئًا ما سيئًا سيحدث. وقفت أمامي ثم صرخت:

"أيها الوغد.. لقد خدعتني".

رفعت يدها لأعلى وقررت أن تصفعني ولكن الكعب العالي قرر أن ينكسر وطاشت ضربتها في الهواء قبل أن تسقط أرضًا في مشهد غريب. جلست أتطلع نحوها ملتاعًا بينما بدا الدكتور مستغرقًا في التفكير. الرطوبة بدأت في التصاعد بينما الشمس كانت قد أشرقت فوق مياه الخليج. برج العرب يلوح في الأفق ناحية الشمال ومن الغرب تطل أبراج الشيخ زايد ومن خلفها برج خليفة. استغرق الأمر سيجارة كاملة أحرقها قبل أن يتكلم.

"فلنعتبر أنفسنا مثل تلك الفتاة السكيرة.. ولنكمل الأمر".

"لا أفهم".

"لقد فكرت طويلًا وأعتقد أن هذا العالم الذي دخلناه يقيس الأشياء بمعايير التوقع".

"ما زلت لا أفهم شيئًا".

"بسيطة.. كيف يتحرك سوق الأسهم؟ إنها التوقعات هي ما تحرك السوق.. توقُّع صفقة أو حدث سياسي هو ما يقود السعر السوقي فيرتفع أو يهبط.. ولذلك نحن دائمًا نلعب في السوق بناءً على حجم التقديرات وليس فقط المركز المالي الحالي".

"ثم...".

"بكل تأكيد.. تهورك جعل الجميع يبالغون في تقدير حجمنا.. لقد منحت كاك نصف مليون دولار مقدمًا.. على الرغم من أنك لا تعرف أي عملية تريدها منه تحديدًا ولكن هذا لن يخطر في باله قط.. هو على الأرجح متأكد تمامًا من أنك ستشارك في استثمار ما سيتم ترتيبه.. أما أرسلان ياظ التركي فهو يظن حتمًا أنك تعرف كل ما حدث.. لقد كشفت له الأمر وسرعان ما سيتأكد منه".

"ماذا يدور في رأسك يا دكتور؟".

"انظر نحو تلك الأبراج.. انظر نحو البحر.. أطول برج في العالم وجزر تبنى في البحر.. مئات من ناطحات السحاب ومشروعات بمليارات الدولارات.. الكل يعدو خلف العقارات.. هل تعرف لماذا؟ الكل يراهن على نفس الشيء لأن الحكومات تصرح بأنها تضمن الأمر والبنوك تمنحك المال لتشتري.. إذًا أنت لو راهنت على ضخ أموالك في عقار فأنت في الجانب الصحيح من العالم.. الرهن العقاري في أمريكا يعيش أزهى عصوره وبالتبعية في أوروبا وآسيا ودبي.. لقد أعلنت الشركات العقارية هنا في دبي

عن منح كل من يشتري عقارًا إقامة 99 سنة.. حتى الحكومة تدعم الأمر وتعطي مميزات".

صمت قليلًا قبل أن يقول:

"المؤسسات المالية الكبرى والبنوك تضخم في الأمر من أول وول ستريت وحتى البنوك المحلية.. لقد صاروا يقيمون أغلبية الرهونات بتقييم تريبل إيه! هل تصدق هذا؟".

"تقصد أنهم يبالغون؟".

"لا يبالغون.. بل يغشون.. الكل يلهث خلف الأرباح".

"تعني أن الأمر برمته معرض للانهيار".

"لا أعلم ماذا سيحدث ولكن الأمور ستتعقد بشدة".

"وما علاقة كل هذا بمشكلتنا؟".

"بلغة البنوك والتصنيفات المالية.. نحن علينا أن نبقى مصنفين على تقييم تريبل إيه الائتماني.. بالطبع لسنا رهونات عقارية ولكن علينا أن نجعلهم دائمًا يصنفوننا بطريقة مبالغ فيها.. هذا سيمنحنا آفاقًا لا يمكن تخمينها الآن أو معرفة أبعادها.. كل ما علينا هو أن نستغل ما يمكن أن نصل إليه".

"أنت على حق ولكننا أمام احتمالات مفتوحة لا نهائية.. ربما سيراهن أحدهم علينا وسيبالغ في التقييم بحسب نظريتك.. الأزمة الحقيقية أننا في الحقيقة لا نعرف الكثير.. لقد اكتشفنا بعض الأشياء عن طريق الصدفة ولكننا ما زلنا لا نعرف ماذا يدور داخل اللعبة".

"لم يعد أمامنا بديل سوى أن نجد طريقنا وسط هؤلاء".

"ما زلت لا أفهم ما تعنيه".

"تخيل لو أن الكعب العالي لتلك الشقراء لم يخذلها وسددت لك الصفعة.. لوهلة لقد صدقت أنك على علاقة بها.. هل أنت على علاقة بها؟".

"دعك من الهراء أيها الأخرق".

"فليكن.. ولكنها كادت أن تخلق لك دراما مستخدمة عنصر المفاجأة.. وربما لو كان هناك زبائن في المكان لصدقوا الأمر وتهامسوا قائلين بأنك رجل وغد وغدرت بالفتاة المسكينة.. فلنعتبر أنها أحدثت لك جلبة شديدة وبدأت في البكاء.. بكل تأكيد هذا سيستقطب بعض الناس إلى صفها وفجأة ستجد نفسك محاطًا بلغط شديد وستتمنى أن ينزاح هذا الكابوس بأي طريقة.. بالرغم من أنك لا تعرفها ولكنك تحت ضغط الجمهور المتعاطف معها ستجد نفسك تحاول مسايرة الأمر لنيل بعض التهدئة التي ستتيح لك أي طريقة للخروج الآمن وبأقل خسائر".

"ما هذا الفيلم الهندي السخيف؟!".

"يحيى.. استمع للنهاية".

"احك أيها المؤلف السينمائي".

"عالم المال لا يتحرك بناء على الحقائق.. إن اللغط هو ما يحركه.. تمامًا مثلما يحدث مع الأسهم والسندات.. إنه سوق مبني على الشائعات والتصريحات".

"هل تعني أننا نشبه تلك الفتاة ولو أكملنا طريقنا سيزيد الضغط عليهم واللغط؟".

"تمامًا.. نحن الشقراء السكيرة وسندعي أننا على علاقة بكل ما يحدث.. لا يهم ما إذا كان الأمر حقيقيًا أم لا.. فقط على ألا ينكسر الحذاء".

"تعني أنه ليس المهم ما نعرفه.. ولكن الأهم أن نثير اللغط بطريقة ما بحيث لا نعطي فرصة لأحد ليكتشف الحقيقة".

"بالضبط".

"لأول مرة منذ أن عرفتك اكتشف أن رأسك تلك تستطيع أن تخرج أشياء مفيدة".

"سأبهرك".

"أبهرني!".

"تلك فتاة لديها مؤخرة.. لقد تفحصتها جيدًا و..".

"ها قد عدنا.. لقد كنت قد بدأت أقلق على رأسك".

"ألا تعرف المرح أبدًا؟!!".

***

تضحك كاميليا بينما أنا أحدق في اللوحة. ألوانها تمتزج مشكّلة إعصارًا وفي المنتصف خطوط غامضة لتلك المركب الوحيدة والباهتة. تحيرني كاميليا ويحيرني ذوقها في كل الأشياء. غامضة كقصة واقعية الأحداث وخيالية كعالم بعيد لا يقترب.

تجرني من ذراعي لنقفز في قطار منتصف الليل ونقطع جادتين قبل أن

نستقر في مقهى لا يغلق أبوابه. تمطر سماء نيويورك بلا توقف ولا تنقطع الحكايات.

"إذًا أنتما كنتما تفعلان أشياء لا يفهمها أحد لكي تضخِّما حجمكما؟".

"لا أعرف.. ربما هذا ما فعلناه لسنوات ولكن فيما يبدو أننا ذات يوم صرنا أكبر بكثير من كل ما تمنينا أن ندعيه".

ترمقني مليًا وتداعب شعري بحنان لم أعرفه في حياتي من قبل ثم تقول:

"كم أنت مخبول وخطر... وجميل".

تضع رأسها على ساقيّ وتنام. هنا لا أشعر بشيء، وكأن العالم قد قرر ودون مقدمات أن يأخذ قسطًا من الراحة ويسكت.

18

مايو قال لي ذات صباح في مقهى صغير يطل على جبال الألب الإيطالية "كل الناس تحاول أن تبحث عن أصعب الإجابات لأبسط الأشياء". لماذا لم يكن يعجبه أيًّا مما نفعله ثم يفتح لنا الأبواب؟ لقد أشار نحو ساتومي ثم تركني أمضي معها في عالمها.

أطل على برج خليفة وهو يومض في الليل في أفق المدينة. دبي تحدق فيَّ الآن عن كثب كما أحدق فيها. لا أحد فينا كان يحسب حساب تلك اللحظة. أيتها المجنونة، انظري ماذا فعلنا؟ لقد تضخمنا حتى صار من المستحيل أنا وأنت أن نعود من حيث بدأنا. أنت بنيت أسطورة من اللاشيء، أسطورة نبتت في خلاء الصحراء وأغرت المال لينهمر. لقد علمتِني تلك الحيلة. الحيلة الجهنمية.

اِغوِهم ليلتفتوا، ثم أعلِن عن حلم خيالي وسيفتحون عيونهم، تزلج على الجيلد في الصحراء، أعلى ناطحة سحاب، أكبر مركز تسوق، عالم جديد مصنوع من الجزر داخل البحر. سيفتحون عيونهم ويقتربون وساعتها أضرب كل شيء في ضعفه، ضخِّم الحلم وروج له. أهلًا بك في مدينة الأحلام، يمكنك هنا أن تلمس السحاب، تعال وجرب ما تحلم به، اركن سيارتك الفيراري بجوار سريرك بالطابق الخمسين، امتلك جزيرة على شكل دولتك، احتسِ الشامبانيا في أفخم مطاعم في العالم وأنت تطل على مدينة الخيال. لن يسألك أحد من أنت؟ ومن أين أتيت بهذا المال؟ أهلًا بك في مدينة كل الأشياء الممكنة.

حدقي فيَّ يا مدينتي ولا تتعجبي، أنا تلميذك النجيب! كل عملائي أتوا بأموالهم من غياهب مظلمة، أموال مرت فوق جماجم وحروب أهلية ومناجم الماس وذهب منهوبة في أفريقيا وقرى بائسة في ربوع آسيا وآبار بترول في سيبيريا وصفقات سلاح في كل بقعة لهيب بالعالم العربي. أموال عليها أختام البنوك الأوروبية الفخمة وبصمات الرأسمالية الحديثة، سافرت عبر المحيطات لترسو في مبنى من طابقين ذي باب إسباني الطراز وحوائط زرقاء وراء شطآن الكاريبي.

أعرف أنك تظنني مجنونًا! لا عليك فلن يصدق أحد ذلك بسهولة. لقد قادني القدر أنا والدكتور لهذا الطريق عندما اتهمانا بسرقة سبعة ملايين. لا أحد يعرف من نحن ولا كيف دخلنا هذا العالم وصرنا جزءًا منه. يقول البعض إن أساليبنا في تدوير الأموال عالميًا ذاعت شهرتها حتى أن أسلوبًا

مثل "الأيريش داتش ساندوتش" كان من اختراعنا. لم يكن هذا صحيحًا ولكن كان هناك أشياء فعلناها ولم يسبقنا إليها أحد. لا ننكر أننا كنا أحد أساطين تدوير المال السياسي الذي كان يفر منه منافسونا. لا يمكن ألا نقول أن حجم أعمالنا السنوي كان يبلغ عشرات المليارات. لقد كان بالفعل أضخم أحيانًا من المصارف التي نذهب إليها.

تلك هي الحكاية. لو اعتبرتني مجنونًا فيمكنك أن تسأل الدكتور، لقد كان معي طيلة الوقت. أين الدكتور الآن؟ لقد اختفى دون أثر. الدكتور السمين ذو الكرش والمؤخرة تلاشى بخفة فراشة رقيقة في يوم لم أشرب فيه قهوة ولم تتسوق فيه النساء، يوم مشئوم سقط بلا ذاكرة.

لا أستطيع أن أستجمع الأفكار كلها الآن. كيف تبخر الدكتور؟ كل تلك السنوات لم نفترق قط. كل شيء فعلناه معًا فكيف يتركني الآن ونحن في أحلك الأوقات؟ الآن أتذكر أول مرة التقينا فيها. كان هذا في بداية حياتي بدبي، كان العثور على سكن مناسب أمرًا صعبًا للغاية. المدينة كانت تصعد بسرعة الصاروخ في ذلك العام والعقارات أسعارها كانت تتضاعف في أشهر قليلة. كانت فقاعة العقارات قد بلغت أوج تضخمها. مالك الغرفة الصغيرة التي كنت أسكنها قرر طردي أنا ومستأجري الفيلا. بعد بحث طويل وجدت الدكتور، أو بالأحرى هو وجدني عندما سقط فوقي مخمورًا وأنا بمرآب السيارات، ترنح في الهواء عدة مرات فمددت يدي له فلم يمسكها، أفلتها وتهاوى فوقي كسقف قرر الهبوط على السكان من تحته. سقط الدكتور فوق حياتي سهوًا وكأنه صاحب قفزة سقوط حر لم تنفتح فيها المظلة.

تعارفنا بعدها وانتقلت لأسكن معه ثم انتهينا إلى ما انتهينا إليه. يمر شريط ذكرياتنا أمام عينيّ، أتذكر كيف كان يعدو في هونج كونج كغزال السهول، كيف كان يستعد للقفز في مياه الكاريبي عندما داهمتنا الناقلة الكبرى، كيف أمسك بملابسي بعد أن خرج من السجن وطلب مني أن أعده بالانتقام، كيف التمعت عيناه عندما قابلنا مايو لأول مرة، وكيف انطفأت عيناه في آخر مرة تحدثنا فيها.

أتخيله يقف أمامي ويطلق مقولته المعتادة "ماذا الآن؟".

"لو عرفت مايدور في رأسي الآن!".

"لا.. لا.. لا تفعلها".

عقلي يضرب ويضرب ويرتفع النبض وأكاد أشعر بالعالم يدور ويدور. الجنون يتملكني ويجرني نحو الثقب الأسود الكبير. نعم لقد أيقنت أن عليّ أن أفعل ما لم يتخيلوه أبدًا.

19

أواخر العام 2005، مياه البحر الفيروزية تحتضن الأفق والرمال البيضاء ترسم خط الشاطئ الاستوائي المظلل بنخيل جوز الهند. يشخر الدكتور "المليونير" بسعادة وهو يغط في نوبة نوم عميق بينما يتدلى ذراعه إلى جواري وعليه رسم وشم جديد بالأحمر الداكن والأخضر. يبدو أنه بالأمس قد حصل عليه عندما تركته بصحبة هؤلاء الأمريكيين. لقد كان يصرف ببذخ في الحفلات التي يرتادها هنا ولا يكف عن الشرب. لم اعترض في البداية ولكن حان الوقت ليفيق. هاتفني مايو من الفندق وأخبرني بأنه قد وصل للتوّ. مايو العجيب هبط على أرض كايمان قادمًا من كاليفورنيا بعد أن قام بمقابلة تلاميذه في النادي السري "كلوب 33" هذا النادي الذي قدمه

والـت ديزني لزوجته كهدية. من المعـروف أن من الصعب الحصول على عضوية هذا النادي حيث يضم صفوة المشـاهير والأغنياء. هذا وبالطبع مايو كان ضيفهم الأثير، أو بمعنى أدق معلمهم.

حضر العجوز الياباني لسبب ما لم نعرفه إلا لاحقًا. عندما علم بقدومنا إلى كايمان ثانية قرر أن يلحق بنا. رحلتنا الثانية إلى كايمان كانت بدافع إخراج باقي أموالنا لتسافر عبر بنك في سنغافورة ومنه رأسًا إلى وجهتنا المفضلة، دبي. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد، كانت الجزيرة قد باتت هاجسنا المؤرق.

***

عندما فتح الدكتور عينيه وتطلع نحو مايو، انتشى وزالت عنه آثار السكر وقفز محييًا إياه. بين الاثنين كيمياء غريبة لا يمكن فهمها. مايو والدكتور شخصيتان لا يمكن أن يلتقيا إلا في عالم والت ديزني. الفيلسوف الغامض والدكتور الأرعن يتبادلان الحديث بصفة مستمرة ولا يقولان شيئًا أستطيع فهمه. أحيانًا أشعر بأن ما يقولانه خطير جدًّا ولكنه أهبل. هل هذه شفرة ما؟ كيف اتفقا عليها إذًا؟

يقول مايو للدكتور:

"هل عاد الزهر البري من لوحة جوجان؟".

يرد الدكتور ببديهية:

"نعم، ولكن الإبريق الأزرق القاني بعته للولد الأبكم".
"أمم فليكن.. لكن تنبه جيدًا للإشارة التالية".
"عصفور الساعة.. لا تقلق فأنا في انتظاره".

يا دروب الحيرة، أخبريني ما الذي يتحدثان عنه؟ قد تستمر حواراتهما تلك لأيام وليالٍ وفي كل مرة أصغي لهما، لا أصل لجملة واحدة منطقية. بكل ثقة يتطلعان نحوي وكأن بي شيئًا مختلًا ويواصلان لخبطة الأشياء.

***

في أحد الصباحات قام بزيارتنا المدعو سانشيز وهو المحامي القصير الذي أوكلت له المهمة. لقد تولى الأمر من البداية عبر المرأة الغامضة التي حادثتها على الهاتف. لم يكن لها اسم حتى تلك اللحظة. سانشيز بمعاونة شريكه في مكتب المحاماة، هو الذي تولى تضبيط كل مقادير الطبخة الكاريبية التي تمت. هما اللذان أسسا لاحقًا شركتنا في كايمان تحت اسم "تشاك باك إنترناشونال ليمتد". لماذا هذا الاسم تحديدًا؟ في الحقيقة لم يكن الاسم بالغريب. تشاك باك لا يمكن أن ننساه أبدًا. تشاك باك هو اسم المخدر الذي كاد يقتلنا في تلك الليلة العجيبة في شقة بانكوك. بحسب وصف مايو، تشاك باك قادر على جعل الفيلة تقدم بالية بحيرة البجع.

قام سانشـيز بدعوتنا للقاء شريكه في مكتبهما وبدا أنه يرتب لشيء ما. ذهبت أنا والدكتور للمكتب المتواضع الكامن بغرب جورج تاون. المكتب لا يحتوي سـوى عـلى أربعة مقاعد وطاولة وضعـت عليها ملفات كثيرة وجهاز لاب توب قديم. المكان تفوح منه رائحة البيوت القديمة ممزوجة

برائحة شـواء تنبعث من الشرفة المقابلة. أصـوات دجاج آتية من الزقاق الخلفي ومذياع يبث موسيقى ريجيي وسيدة تصيح بالإسبانية متبوعًا بتحطم شيء ما، لقد كانت تؤدب زوجها. النساء اللاتينيات لهم أصول عربية بلا شك! لا يتركن أزواجهن دون تأديب.

كل شيء يبدو غريبًا، الدكتور يتلفت حوله ويهرش في رأسه وكأنه في لجنة امتحان ومزنوق في حل سؤال عويص. لم أفهم، هل هذان الاثنان هما مكتبنا الموثوق الذي قام بتدبير كل الإجراءات لنا؟ هنا على أنغام عزف الدجاج يتم تضبيط حسابات بنكية بالملايين؟ هناك شيء غير مفهوم!

سانشيز ساركيس قصير وذو كرش كبيرة، يرتدي دومًا حلة بيضاء وحذاء أبيض وقميص هاواي ملونًا ويحمل ملامح تبدو مألوفة لي، وكأنه يشـبه جارًا لي في مصر قبطيًا. نفس الحاجبين الكثيفين والشعر الرمادي الداكن ولـه ذقن ذات طابع. بشرته مشربة بسـمرة خفيفة وعيونه سـوداء داكنة ولوهلة بدا لي شيء آخر إضافي غير مفهوم. إنه الاسم، سانشيز اسم إسباني أما ساركيس؟! بادرته بالسـؤال فضحك وأخبرني بأن أصوله يونانية أو بالأحرى قبرصية. أما شريكه سيزا ماسكو فهو بنمي من أصل إيطالي.

سيزا لم يكن كشريكه فهو أكثر جدية وقليل الكلام، لا يعرف المزاح قط ويرمقني مليًّا كلما تحدثت. كان طويلًا بعكس شريكه ودائمًا ما يرتدي قمصانًا فاخرة من فلانتينو وجوتشي دون أن يتقيد بجاكت. تطلعت نحو الاثنين مليًّا بحيرة وأنا أفكر. قدَّما سيجارًا فاخرًا وزجاجة بيرة باردة للدكتور ولم تمض سوى دقائق حتى اكتشفنا أنهما يبادلاننا نفس الفضول

والحيرة. أفصح سيزا عما يدور بعبارة حازمة ليس فيها أي مراوغة:

"نحن في هذا المجال لا نسأل أبدًا عملاءنا عن مصدر أموالهم أو وجهتها. كما أننا دومًا نتكتم كل التفاصيل. الأمر بسيط تمامًا مثل مكتبنا هذا.. نحن نقوم بعملنا فقط دون أي تعقيدات غير ضرورية. لكن هناك شيء ما حدث وقد قررنا أن نعرض عليكما الأمر".

أومأت له فتابع:

"نحن قد بدأنا منذ سنة تقريبًا بشكل مستقل في هذا المجال.. كنا قبل هذا نعمل في مكاتب أخرى ومتمرسين في مجالنا ولكن هناك شيء هام ينقصنا.. باختصار إن ما نفتقر إليه هو المعرفة بعالم المال. لقد أعطتنا السيدة الفرصة لنقابلكما ونتعاون سويا".

صمت قليلًا بينما أخذت أفكر في تلك السيدة التي لم تطف على السطح بعد. عاد سيزا وتابع حديثه:

"أنا وزميلي عملنا مع بعض المصرفيين الذين يعملون في بنوك الصفوة الأوروبية.. تلك البنوك التي تدير حسابات سرية لصالح شركات كبرى وأشخاص اعتباريين.. لكن وللأسف طيلة قرابة عشرين عامًا لم نكن نحصل سوى على بعض المهمات البسيطة كتأسيس شركة هنا في كايمان أو بنما أو جزر العذراء.. حتى التحويلات يمررونها دون أن نعرف تفاصيلها.. ثم بدأ الأمر عندما هاتفتنا السيدة".

السيدة مجددًا؟ ما هذا الأمر؟ لو سألت مايو عنها، أعرف أنه لن يقول شيئًا مفهومًا. سأحاول معه مجددًا الليلة.

يتابع سيزا حديثه وهو يرتكز بكفيه على ركبتيه ويتطلع نحوي بكل ما فيه وكأنه يستجديني. لم أكن أفهم إلى ماذا يرمي هذان المحاميان مخلوطا الأنساب والأسماء والأشكال. يصيح الدجاج مع صوت الريجي في المذياع ويهدر صوت المرأة التي كانت تؤدب زوجها بضمير. أين نحن وماذا يجري؟ ما زلت لا أستوعب ولكن حدسي يقول بأن القادم يستحق الانتباه.

"لقد قررنا أنا وسانشيز أننا نحتاج لمساعدتكما.. أعرف أن الأمر غريب ولكن عندما اتصلت بنا تعجبنا لأنكما كشفتما لنا المبالغ وطلبتما أشياء أكثر مما اعتدنا على فعلها في السابق. لذلك بدا الأمر لنا أشبه بفرصة حقيقية لنعرض عليكما تعاونًا أكبر. لقد انبهرنا بترتيباتكما ونظن أنكما بارعان في عالم المال واعتقد أننا لو تعاونا سويا سيكون مشروعًا مربحًا لنا جميعًا".

قاطعته ودون أي تفكير يذكر:

"هناك شرطان".

تتطلع الجميع نحوي مندهشين من الرد السريع. سيزا لم يكن قد أنهى كلامه فرفع يده وكأنه يريد مني أن أتروى بينما الدكتور أوقف زجاجة البيرة قبل أن تصل لفمه وفتح عينيه نحوي مندهشًا. لقد تجمد من المفاجأة المباغتة.

أكملت طريقي دون توقف. المجنون الذي لا يأبه بالعالم يعرف كيف يواجه المفاجآت بخطة ارتجالية خاطفة. أنظر للدكتور، يكاد يبتسم دون أن يفهم ما يدور. أشعلت السيجار الثاني وتابعت:

"أولا سيكون عليكما أن تطلعانا على كل شيء يدور في تلك الجزر..

وأنـا أعني هنـا كل التفاصيـل القانونية وطـرق نقل الأموال وتأسـيس الشركات، وفي المقابل سـنقوم نحن باستقطاب الفرص أو بمعنى آخر.. الأموال.. لكن.. هناك شرط أهم.. نحن شركاء عن بعد فقط.. أي شيء سيتم بيننا سيكون عبر طرف غير معلوم لكما".

"اعذرني ولكن كيف سيكون طرفًا غير معلوم وفي نفس الوقت سيكون وسيطًا بيننا؟ أعتقد أني لم أفهمك جيدًا".

"أليس هذا ما تقومون به؟ تصنعون شركات شكلية على أرض هذه الجزيرة ومن ثم تجعلونها تمتلك الشركات الحقيقية ثم تعود الأموال ثانية لمصلحة أشخاص لا أحد يستطيع أن يصل إلى هويتهم".

"نعم هذا إلى حد كبير ما نفعله".

"إذًا لا تسأل عن هوية الوسيط الذي سيكون بيننا".

فكر قليلًا قبل أن ينظر إلى شريكه سانشيز الذي أومأ بالموافقة.

***

يومان قضيناهما في المكتب من الصباح للمساء، نطالع بنود قوانين البنوك الدولية وهيئات الرقابـة المصرفية الأوروبية، نظم الضرائب والاتفاقات الدوليـة والنظام البنكي في كل جزر الكاريبي قاطبة. نغوص في تفاصيل الشركات المحدودة وكيفية تأسيسها وطرق تحويل صناديق الاستثمار من دولة إلى أخرى. نبحر في عالم "الأوف شور" وتتلألأ الجنات الضريبية كاشفة عن شـطآن ساحرة لا يعلم مراسـيها سوى الكبار في هذا العالم. أعجبني سـيزا وسانشـيز منذ اليوم الأول، لقد بدوا مناسبين لمقاييسي، مغامرين،

عملاء ولا يأبهان بشيء. يمر الوقت علينا من الصباح للمساء في المكتب البائس ونحن ندخن السيجار الكولمبي ونأكل "البيالا" ونستمع لخليط الأصوات القادم من خلف النوافذ المطلة على الزقاق الفقير.

بالرغم من هيئتهما الغريبة، لكن المحاميان كان لديهما معلومات وحيل لا بأس بها في المجال. لقد حاولا من قبل عدة مرات العمل بشكل مستقل، ولكن الطريق كان مسدودًا بسلسلة طويلة من البنوك الأوروبية العتيدة والعلاقات المتشابكة التي تجعل من الصعب أن يقتنصا عميلًا كبيرًا. كان هذا هو الوضع حتى تحركت المياه الراكدة بحلول طلعتنا البهية. أول عميل خاص يحصلون عليه دون وسيط. ومن أين أتى؟ من دبي! الاسم البراق المغري في عالم يلهث خلف نزواته. وبالرغم من أن بضعة الملايين التي أتينا بها كانت زهيدة في عرف عالمهما، ولكن فيما يبدو أنهما كانا على يقين بأننا فقط نجس النبض ونختبر الأمر عبر عينة. لا يهم!

الدكتور ضحك وعلق على الأمر عندما انفرد بي:

"أيها الملعون، لقد صدقاك! بل قررا أن يشاركاك!".

"لم أفهم كيف اقتنعا بنا دون جهد يذكر".

"لقد أقنعت كاك وأرسلان والآن هؤلاء اللاتينو.. يا رجل نحن لا نملك أي شيء نستطيع أن نبيعهما إياه.. فلينضما للقائمة الطويلة التي تظن بأننا نمتلك التنين المجنح.. أوووه يا صديقي أنت لديك قدرة على إقناع الجميع بأنك لديك كل شيء.. هههه أحيانًا تخدعني أنا شخصيًا وأصدق وأود مقاطعتك لأسألك عما تملك".

"لا يهم هؤلاء كلهم عملاء يبيعون أنفسهم من أجل لقمة دسمة":

"نحن لا نملك أيًا من تلك الفرص التي يبحثان عنها.. يا رجل ما نملكه في عالم المال لا يساوي شيئًا تقريبًا".

"بالكاد يكفي لشراء شقتين كوندو في أحد أبراج دبي ومكتب".

"أنا أريد فيلا في الجميرا":

"كف عن المزاح الآن ودعنا نفكر".

"نفكر في ماذا يا عبقري؟ هههههه! لقد كانا يتحدثان ويتحدثان وأنا أهز رأسي كالبندول وبالكاد تمكنت من كبت ضحكاتي.. لقد أخرجت منهما أطنانًا من المعلومات القيمة دون أن نقدم لهما شيئًا يذكر... كل ما يحدث يشبه فيلمًا هزليًا لمستر بين.. كل الأشياء الطريفة تحدث لنا دون أن نقول شيئًا".

"لا أحد يستطيع أن يفهم كيف يدور هذا العالم. نحن فقط نتحاشى كوارثه".

"أعتقد أن السماء ستمطر علينا كوارث.. ستهطل عما قريب".

"هذا أكيد!".

استمعت لنا السماء وبدأ المطر في الهطول بلا توقف. احتمينا تحت مظلة ووقفنا ندخن بصمت على ضفة المرفأ، والمحيط يمتد أمامنا لا نهاية له.

ما هذا العالم الغريب؟ لم أعرف أن الكلمات التي أطلقتها هكذا اعتباطًا في فضاء الغرفة البائسة بقلب أحد أزقة جورج تاون بجزيرة الكايمان لا تتعدى حجم نقطة على خريطة العالم، ستكون حجر الأساس لخزانة المليارات السرية.

في أحد أيام نهاية عام 2005، بدأت لعبة "ماسكو وساركيس" المعروف بمصنع تدوير بلايين العالم الهاربة ومنجم الفضائح فيها بعد. من كان يتخيل أن أربعة حضروا اتفاقًا على صوت امرأة تؤدب زوجها ودجاج يصدر جلبة في الفناء الخلفي ومذياع يبث أغاني لاتينية قديمة، وقرروا بدء العمل على تأسيس "ماسكو وساركيس". لقد كان الزمان والمكان والعالم مستعدين لنا.

نعم، لقد كان العالم ينتظر "ماسكو وساركيس"!

***

بالرغم من كل ما حصلنا عليه، ظل الأمر أشبه بكتاب له عناوين واضحة ولكن الصفحات بينها غامضة وخفية. لقد كنا على جانب واحد من المحيط وجانب واحد من الحقيقة. لو كان المال يأتي إلى هنا، فكيف يخرج من هناك؟ من وراء الشطآن الملبدة بأساطين المال والأعمال؟

لم يكن نصف الحقيقة ليحركني بعيدًا أنا وزميلي، كان علينا أن نكشف كل الأرض أمامنا قبل أن نخطو خطوة واحدة في الطريق. المفتاح الوحيد الذي يلوح في الأفق الآن، هو السيدة. كنت قد حاولت مع مايو مرات عدة ليكشف لي الشيء الناقص ولكنه لم يجب. مشكلتي كانت في هذا الشيء الناقص الوحيد.

***

بينما كنا عند مرفأ السفن نحتمي من المطر، اقترب قارب صيد من المرفأ،

وبعد دقائق أطل مايو من خلف زجاج القمرة. لقد كان قادمًا ليصطحبنا لوجهتنا التالية. بقميص مفتوح وبنطال رفعه حتى ركبتيه وطاقية لاتينية، بدا وكأنه صياد سمك عجوز. يرسو على المنصة الخشبية للمرفأ أمامنا ويدعونا لصعود القارب. فرد الخريطة وتطلع في البوصلة بينما القارب يبحر بنا في البحر المظلم. جلست على كومة من شباك الصيد في مؤخرة القارب مستسلمًا للرياح وأنا أراقب مايو. يبدو كبحار متمرس، يقيس المسافة على الخريطة ويشير نحو الأفق. يتبادل الدكتور الحديث مع مايو في مقدمة القارب قبل أن يلتفت نحوي يهتف بسعادة قائلًا:

"نحن ذاهبان إلى هافانا.. كوبااااا".

ساتومي كانت تنتظرنا هناك. وأخيرًا يقرر مايو أن يأخذنا لعندها. يقرر أن يمنحني ما أبحث عنه.

تلوح أضواء الشاطئ الكوبي بعد خمس ساعات من الإبحار بمركب ذات موتور قديم. لم نكن نحمل جوازات سفر أو تأشيرات ولكن مايو لم يكن ليعيقه مثل تلك الأشياء. لقد أطفأ المحرك وأضواء المركب وظللنا ننتظر في البحر دون حراك. يجلس مايو صامتًا كناسك أطفأ العالم وسكن في عزلته. لن يجدي نفعًا إن سألته عن شيء. كل ما عليك هو أن تتعلم الصبر وتنتظره.

بعد قرابة الساعة اقتربت منا مركب شحن كبيرة. ظلت تقترب وتقترب حتى شعرنا بالخطر. السفينة ستحطم قاربنا القابع في الظلام بعد دقائق ولكن مايو لا يحرك ساكنًا.

"اللعنة.. السفينة ستصدمنا!".

يهتف الدكتور ملتاعًا وهو يشير للسفينة التي أطلقت سارينة تحذير. أنظر نحو مايو وأعلم أنه لن يحرك ساكنًا. هذا الياباني العنيد لا يتحدث إلا عندما يريد أن تصل رسالته، ولا يتحرك إلا عندما يحين وقته. ما بين السفينة العملاقة المقتربة بسرعة وموقعي، يحرك الدكتور رأسه أمامي عدة مرات وكأنه دمية كلب البلودوج التي يضعونها في السيارات.

لا يوجد ما نفعله أنا والدكتور سوى أن نتحضر للسباحة. بمنتهى الاستسلام قلت له:

"اخلع".

"ماذا؟".

"سنعوم للشاطئ إذًا.. هل لديك حل آخر.. لا تنظر لمايو فهو لن يجيبك".

وكعادة الدكتور في حالات الخطر، ما إن أشير إليه حتى ينطلق. بدأ ينسلخ من ملابسه كفص الفاكهة. نخلع أحذيتنا وسراويلنا حتى صرنا بملابسنا الداخلية، عند حافة القارب، متأهبين للقفز. نتطلع نحو البحر المظلم والمسافة الكبيرة التي بيننا وبين أضواء الشاطئ ونأخذ نفسًا عميقًا ويأتي صوت مايو من خلفنا أن توقفا. نتنفس الصعداء ونلتفت نحوه فنراه يمضي بخطوات هادئة نحو القمرة، يدير المحرك ثم ينحرف بالمقود إلى أقصى اليسار فتميل السفينة بزاوية عكسية وعندما وصلت إلينا الشاحنة كنا بمحاذاتها.

مناورة محترف خبير ربما أمضى من قبل سـنوات في البحر جعلتنا نمر إلى جوار شـاحنة كبيرة حتى لا تكشفنا رادارات خفر السواحل الكوبية. مضينا في ظل الشـاحنة حتى عبرنا الحدود البحرية ثم افترقنا عنها لنرسو على شاطئ خارج المرفأ. هذا الشاطئ المهجور كان منطقة ضحلة تغطيها أشجار المانجروف وكان علينا أن نخوض بأرجلنا في البرك والوحل قرابة الساعة. يمضي مايو ونحن نسير خلفه مبتسمين. لا نفهم شيئًا ويبدو أننا لن نفهم أبدًا. مايو يقود المراكب وكأنه بحار ابن بحار، يمررك من الحدود كأعتى المهربين. لو سألتني عن مايو سأقول لك الكثير والكثير ولكن لن أسـتطيع أن أخبرك أبدًا عن سـبب مرافقته لنا. ربما كان هذا الشيء الذي جعل ساتومي تريد أن ترى من نكون.

وصلنا إلى الطريق السـاحلي ثم مضينا معـه حتى وصلنا إلى حانة رثة على الطريق تضم بعض العجائز الذين يحتسـون البيرة ويستمعون لموسيقى الجاز. بإسبانية سليمة تحدث مايو إلى بعض الجالسين فأومأ أحدهم وقرر أن يصطحبنا إلى هافانا مقابل مائة دولار.

20

هافانا هافانا!

لا توجد بلد تشبهها في هذا العالم، إنها الأخيرة من نوعها والفريدة في زمنها. رحلة تعود بك إلى حقبة الخمسينيات حيث البشر والأبنية والحانات لم تتغير ولم يمسسها العالم بجبروته. الكل تعولم إلا في كوبا، ظلت كما هي.

سيارة بونتياك حمراء موديل الخمسينيات تجوب بنا طرقات هافانا الخاوية مع بزوغ الصباح على أنغام مذياع يبث موسيقى لاتينية أثيرة. رائحة البحر تهب من النوافذ مالحة وأثيرة، تدغدغني وتذكرني بكورنيش الإسكندرية. يشير إلينا السائق بأن نترجل هنا.

تطالعنا الأبنية الإسبانية القديمة بألوان زاهية، وتدور بنا النواصي الدائرية، ويحملق الجالسون في ياباني وأيرلندي ممتلئ ورجل ذي شعر أسود وبشرة

تلوحها شمس المتوسط، يسيرون متسخين بالوحل ويحملقون في سيارات البويك والشيفي والفورد والكاديلاك القديمة.

وصلنا إلى "إل فلوريديتا" على ناصية بيت صغير. انفتح الباب لنجد أنفسنا في الحانة الصغيرة التي كان يرتادها إرنست هيمنجواي. هيمنجواي الكاتب العظيم الذي كتب "العجوز والبحر" كان يسكر هنا كل ليلة. لقد وضعوا لـه تمثالًا من البرونز بالحجم الطبيعي في آخر البار. هيمنجواي الحاصل على جائزة نوبل انتحر ذات مساء. يقولون إنه ورث مرضًا نفسيًّا عن أبيه الذي انتحر هو أيضًا. هذا الاضطراب النفسي كان عند أخويه، الاثنان انتحرا.

لوحة كبيرة تغطي الجدار الخلفي للبار وتقبع تحتها خزانات مكسوة بالأحمر القاني اصطفت عليها زجاجات الروم والويسكي والشمبانيا. يتجه مايو إلى آخر البار ليجلس على كرسي مرتفع إلى جوار تمثال هيمنجواي فنستكين إلى جوراه متعبين بعد ليلة عصيبة. يطلب من النادل كأسًا من الساكي ويطلب الدكتور زجاجة روم بينما أطلب أنا علبة سجائر لاكي سترايك حمراء من تلك المصفوفة هناك في الخلف. الحانة الخاوية تمامًا إلا منا ونادل كوبي. يبدو أن الحانة لا تفتح في هذا الوقت المبكر ولكن ربما مايو كان لديه ترتيب ما. أشعل سيجارتي وأتأمل الدكتور الذي لم يسأل عن أي شيء ولا عما نفعله هنا، يتفحص زجاجة الروم قبل أن يغوص فيها. همس مايو إليَّ بكل صرامة وجدية بعد أن ابتلع كأس الساكي الثانية:

"لا تدخل بحر الأشجار فلن تخرج منه أبدًا".

يا إلهي، لقد فهمت ولأول مرة ماذا يريد العجوز مني أن أفهمه. ابتسمت منتشيًا فأطل في عيني لبعض الوقت وقرأت عيناه قصتي. يعرف مايو أني لا أبالي بشيء على الإطلاق، يعرف بأني أستطيع الترنح فوق العالم وليس في يدي غير خيط حرير رفيع، يعرف أني ذاهب إلى آخر الأرض ولا أبالي بالعودة، وأعرف أنه ولأول مرة يطل في عينيّ بحيرة وترقب.

"أوكيجهارا"، المعروفة باسم بحر الأشجار هي غابة يابانية تشتهر بحوادث الانتحار، يرتادها الكثيرون من اليابانيين ومن العالم لينتحروا فيها. تقول الحكايات إن البعض كانوا يتركون أجدادهم العجائز فيها بعد أن يفشلوا في احتمالهم، يلقون بهم في الغابة حتى يتضوروا جوعًا ويفنوا في الغابة. تقول حكايات المحليين إن أرواحهم كانت تخرج في الليل وتنادي. الغابة الغامضة معروفة بأن من يدخلها ويبتعد داخلها لن يجد طريقًا للخروج. بعدها بعام تقريبًا قررت الذهاب إلى تلك الغابة الراقدة عند قدم جبل فوجي الشهير. عندما دخلت "أوكيجهارا" ضرب الصمت حولي دروبًا لا تنتهي. الغابة الكثيفة الصامتة يسكنها الضباب ولا يتحرك فيها ساكن. لا ريح تدخلها ولا طيور، أنت والصمت والعزلة. هنا تجد نفسك وحيدًا ومنعزلًا وبعيدًا وتبدأ حياتك كلها في الظهور أمام عينيك. كل أشباحك المكبوته تتجسد وتحاصرك في الغابة. مايو يريد أن يحذرني مما هو قادم وأتينا إلى هافانا من أجله.

***

ما إن أطلت حتى أيقنت على الفور أن مايو محقٌّ تمامًا. يا إلهي،

ها أنا وجهًا لوجه مع بحر الأشـجار الياباني بكل غموضه ورهبته وعالمه الأسطوري. "لن تخرج منه أبدًا" هكذا قال مايو.

ينفتح باب الحانة لتدلف، ملفوفة بخيوط الصباح الساطع، يرسم الضوء هالة تحدد خطوط جسم رشيق وطويل، يتمايل في خطوات واثقة كعارضات الأزياء. تتقدم في عمق البار لتبدأ معالم الوجه ولون الفستان تظهر.

من تلك اليابانية ذات العينين الضيقتين والبشرة الصافية التي تشبه حليبًا ممزوجًا بقطرة من القرفة والعسل؟ شعرها الأسود مرفوع فوق رأسها ومشبوك بمشط صغير من الألماس. ينسدل ثوب الحرير الناعم الطويل على خصر ممشوق بغموض، وينفتح على طول ساقها اليسرى بتصريح. وبمحاذاة مايو، تلقي تحية يابانية بإيماءة وأدب شديد فيرد إليها التحية بدوره.

تقول شيئًا باليابانية فيومئ ثم ينظر نحوي. تتبعه بعينيها ثم ترنو نحوي بطرف. بمقاييس متوازنة، كانت أول نظرة وجهتها إليَّ ولم أنسها قط. تغوص فيَّ وكأنهـا المدن الغارقة في غياهب البحر وفي نفس الوقت تمر مرورًا حرًّا كالجياد الراكضة في البراري. فوق العيون السـوداء القوية، يعلو حاجبين مرسومين بدقة، كنقش من وحي أساطير الجيشا، والشفاه تصدح باللون الوردي الآتي من ربيع السـكاورا. ودون أن تهمس بشيء أشارت بعينها فتبعتها دون تردد.

لو عاد الزمان بي لما خرجت من هذه الحانة. لقد تبعت ساتومي ولم أتوقف، لقد مضيت بعيدًا في أغوار بحر الأشجار الكبير.

***

من أي زمن سقطت تلك الأساطير؟ لا أحد يعرف كيف يتدفق السحر من الأشـياء. إنه فقط شـعور مباغت يأتي من مـكان غريب في داخلك، يناديك فتتبعه.

نعـود لهافانا، إلى ذلـك الصباح في كوبا عندما قابلت سـاتومي لأول مرة. عندمـا كانت تمشي أمامي، كانت تمس الأرض مسًّـا وكأن الجاذبية خفتـت على أثر خطواتها. يضرب هواء الطرقات ثوبها وشـعرها وتمضي بينـما كل شيء حولهـا قد توقـف. لم أكن أعلم إلى أين سـتأخذني. ركبت معها سـيارة كاديلاك حمراء موديل 1968 ومضـت بي في الطرقات حتى وصلنا إلى البحر.

وقفنا نتطلع نحو أمواج الأطلنطي، مستندين على السيارة وصامتين. كانت بقعة هادئة تظللها أشجار النخيل ويتسكع بالقرب منها بعض باعة الشاطئ. رنت نحوي ساتومي وقالت:

"لا أعـرف مـاذا يـدور في ذهنـك أنـت وشريـكك، هـل لديكـما خطة ما؟".

"هل هذا السؤال له علاقة بمكتب المحاماه في كايمان؟" سألتُ.

"ما الذي تعرفانه عن هذا العالم؟ عالم الأموال العابرة للبحار؟".

"ماذا تعرفين عنا أولا؟".

أطلت في عيني بنظرة واثقة وابتسامة قصيرة قبل أن تقول:

"أنت تعجبه".

تجاوزتني وعبرت نحو خط من تلال الرمال ثم وقفت ترنو نحو المراكب

الشراعية المنثورة في المياه الزرقاء. لم أقابل مثل ساتومي قط، كل شيء في تلك المرأة طاغٍ وذكي. الحضور، اللكنة، النظرة، الإيماءة.

يطول الوقوف دون كلمات، نحدق في أفق البحر البعيد. لا أعرف ما أقول، الأمر صار معقدًا بالنسبة لحساباتي الارتجالية والمجنونة. لا، لن يفيد حدسي الآن في التلاعب بالأشياء. أعلم أنها أسرتني من أول لحظة رنت فيها نحوي. أعلم أني سأقع في غرامها دون أن يطرف لي جفن، أعلم أن عقلها سيجرني إلى البعيد، أعلم أنها الأخطر.

نعم، على هذا الشاطئ ونحن نقف على تلال الرمال في ذلك اليوم، كنت أعرف كل هذا، ولكني كنت أيضًا أعرف أن ساتومي هي بحر الأشجار. خلف كل هذا السحر والخيال تكمن غابة صامتة لا تزورها الرياح ولا يسكنها سوى الضباب. من يدخلون لا يخرجون.

كم مر من الوقت ونحن هنا؟ ساعات لم نقل فيها شيئًا، نرنو نحو البحر وكل منا غائب في عالمه. تميل الشمس في الأفق وتتحدث ساتومي بعد ساعات من الصمت:

"هل تحب الجياد؟".

"لم أركبها في حياتي قط.. أحب أن أراها تعدو وحدها دون أن يمتطيها أحد".

"هل تحب عالم المال؟".

"أكرهه.. ولكني أريده أن يعترف لي بكل شيء أولا".

"هل تحب نفسك؟".

"لا.. فأنا مجنون لا يأبه بشيء".

تبتسم هذه المرة ابتسامة طويلة وصريحة ثم تقول:

"لم أره معجبًا بأحد من قبل.. ربما أنت أول شخص أقابله".

"تقصدين مايو؟ لم أكن أعرف هذا!":

"أنـت لا تعرف الفيلسـوف بعـد.. هو يعرفك.. هـو أيضًا يعرفني جيدًا.. إنه لا يصاحب إلا الأشياء الفريدة من نوعها".

"لقد حذرني منك".

"هو أيضًا حذرني منك والأستاذ عندما يحذر من شيء فحتمًا سيكون أخطر شيء محتمل.. ولكني أردت أن أقابلك".

"هل تعملين معي؟".

رفعت حاجبها بجدية وتفحصتني مليًا بصرامة قبل أن تقول:

"هل تعلم أني لم أستمتع بالبحر هكذا من قبل؟ سألقاك في لندن في موعد لاحق".

***

كم هو غريب أن ترى بعد زمن طويل نفس الشيء مصادفة في الطريق. كم هو غريب أن يكون الحب في كل مرة مختلفًا ومباغتًا. يفعل فعلته بجبروت، يسدد على الهدف المتحرك وسط الضباب ويصيب. أعرف أني أحببت ساتومي من أول لحظة ولكن العجيب أني كنت أعرف أيضًا أن الأمر سينتهي في وقت قصير. أنا أرى دائمًا الأشياء معكوسة ودون ترتيب. لا أعرف كيف كنت أرى أحيانًا الأحداث دون ترتيب زمني مفهوم!

أنا لا أخمن ولا أتوقع، أنا فقط أراها ماثلة أمامي. أحببت اليابانية وعرفت أني سأنساها في نفس اللحظة.

21

عدنا من كوبا نحن الثلاثة وبنفس القارب ومن نفس الطريق، متسللين تحت ستار الليل، وحركة السفن، ورادارات بلاد الكاريبي الصدئة. تشرق علينا شمس الأطلنطي عند مرفأ اليخوت، يلفحنا الهواء الخفيف ونحن نتهادى متثاقلين. نسير على الرصيف البحري المصنوع من الخشب وتتلفت حولنا تائهين. لقد نسيت أين أنا وماذا أفعل منذ أن قابلت ساتومي بالأمس. لقد عصفت برأسي ولخبطت كل أوراقي. أما مايو والدكتور فكانا تائهين بالطبع بعد أن تجرعا الساكي بلا توقف طيلة رحلتنا البحرية. يتحدثان عندما ينعمان بلحظات صفاء سويا كالعادة بأشياء غير معقولة.

"سلفادور دالي" يقول الدكتور:

"فيل لا يطير.. لكنه برتقالي اللون" يرد مايو:

"نجرب شيئًا آخر.. صوت المطر" يقول الدكتور.

"سبعة إخوة غابوا وراء التلال" يرد مايو.

أين دان براون الآن ليفك لي شفرة واحدة من تلك الطلاسم التي يتبادلانها؟ ربما يريدان إصابتي بالجنون بما يفعلانه؟ ولكن الاثنين كانا يتبادلان تلك الأحاديث حتى في غيابي!

لقد مللت الاستفسار عن معنى تلك الأشياء التي يتبادلانها، وأقنعت نفسي أن الاثنين ربما عضوان في جماعة سرية لعلم الهلوسة، ويسكنان أحيانًا خلف الجدار الموجود في محطة القطار مثلهما مثل هاري بوتر. أدعهما وشأنهما وأعود لأمارس عادتي في الغوص داخل عقلي الجامح وأفكاره المتأرجحة دومًا في الهواء.

ساتومي، أنا قادم خلفك أيتها الغابة الغامضة. أنا قادم إلى لندن لنلتقي ثانية. سوف نرى كيف ستمضي تلك المواجهة؟ أنا مستعد للذهاب إلى أبعد مما قد يمر بخيالك. لن تنفعك ثقتك الرهيبة بنفسك أيتها الجميلة.

***

تودعنا جزر الكايمان بإطلالة المحامين في المطار الدولي، وملف كبير مكتوب عليه "ماسكو وساركيس للاستشارات القانونية". كل شيء موقع ومعد ولكن يتبقى فقط إمضاء الطرف الآخر، ألا وهو نحن. لكننا لن نوقع أبدًا على تلك الأوراق.

بعد كل تلك السنوات، ومنذ أواخر العام 2005 إلى اليوم، لم يعرف أحد لماذا لم نوقع أبدًا. لم يعرف السر سوى اثنين فقط، أنا والدكتور. كل

هـذا الوقت مر ونحن نملك ما لم يكن هناك إثبات على أننا نملكه. حتى ماسكو وساركيس المحاميين الضليعين لم يعرفا أبدًا. ليس بسبب أنهما غبيان ولكـن في هذا العالم الكبير أحيانًا البديهيات تمر دون أن يلحظها أحد. قد تنسـى أن توصد الباب خلفك بالمفتاح ثم تنسـى أنك قد نسيت. يحدث أحيانًا أن يسرقك الوقت بخفته ولا تنتبه حتى لأبسط الأشياء.

حتى هذه اللحظة التي أحكي فيها الحكاية وأنا أطل على مدينة دبي من أعلى، أعرف أن ساتومي لم تشك للحظة بأن الأوراق تثبت بأننا جزء من ماسكو وساركيس. العالم كله يعرف عنا الأشياء التي كان يريد أن يعرفها ولم يقرأ أكثر من هذا السطر في الكتاب. كل هذا الفساد الذي يحدث ليس سوى قمة جبل الجليد، القابع تحت الماء.

عزيزي العالم، كم تملك من درجات الفساد اللانهائية؟ لقد كنت أشعر عند كل مرة بأني رأيت قاع الفساد ولكنك كنت دائمًا تدهشني بالمزيد. أسطورة لا نهائية لا تكف عن إعادة إنتاج نفسها. من المافيا المنظمة إلى رجال البيزنس والشركات الدولية، كنت أظن أن الأمر لن يتطور كثيرًا. أطل تجار السلاح والنفط والإعلام فقلت، هذا كل شيء. لكن المفاجآت كانت تتوالى بظهور الساسة ورجال الدولة ثم رأيت أقارب الساسة وحواشيهم وشياطينهم. سـاعتها قلت هذا هو الفساد الكبير ولكن الفساد لم ينتهِ عند هؤلاء. لقد قابلت سمسارة الحروب ثم تجار مصائر شعوب وتجار اللاجئين. شعوب بأثرها تباع بسعر، نعم تباع وكسلعة فقط لا غير والحدود تفتح كالبوابات ودول تباع لدول. ويلقبونني بالمجنون؟! فليكن!

22

حلقنا من كايمان إلى مطار هيثرو في لندن بصحبة مايو. بعد أن غادرنا قمرة الطائرة ودلفنا إلى مبنى الوصول، توقف مايو وابتسم لنا ابتسامة غامضة. ارتدى معطفه الأسود الطويل، ورفع لنا قبعته في حركة معتادة يلقي بها تحية الوداع. لم أفهم إلى أين سيمضي.

"الجوازات من هذا الطريق!" أشرت إليه.

"أنا لا أحب المرور من هذه الأماكن أحيانًا.. هنا لا يحبون اسمي".

أجاب بهدوء وارتدى قبعته ثم مضى في الممر الطويل، يحمل تلك الحقيبة الجلدية القديمة. حقيبته البنية اللون تشبه حقائب السفر التي كان يحملها المسافرون قبل خمسين عامًا. لا تعرف أبدًا ما فيها ولكنه كان دومًا يحملها معه أينما ذهب.

تركنا مايو وتلاشـى في زحام المسـافرين ومضيت أنـا والدكتور نحو المفاجأة التي كانت تنتظرنا. تتطلع ضابط الجوازات نحوي متفحصًا قبل أن يصدمني بسؤال لم أفهم معناه:

"أين زميلك الذي برفقتك؟".

أول شيء خطر في بالي كان مايو. كتمت داخلي لفظًا كاد ينفلت مني "اللعنة!!". ما الذي فعله العجوز؟ نظرت إلى الضابط مترددًا وقبل أن أجد إجابة، ظهر العديد من الضبّاط الآخرين وتوجهوا مباشرة نحو شباك الجوازات المجاور. الشباك الذي كان يقف عنده الدكتور وأخذوه.

اقتادوني إلى غرفة صغيرة في المطار وتركوني. حاولت أن أستفسر عن السبب فلم أجد سوى رد مقتضب يحمل سمة الغطرسة الممزوجة باللكنة البريطانية "إنهـا إجراءات أمنية معتادة". بعد سـاعتين من الانتظار ظهر ضابط ومنحني جواز السـفر الخاص بي. لكن ماذا عن صديقي؟ ذكرت له اسم الدكتور مستفسـرًا. نظر إليَّ بلا مبالاة وأجاب ببرود:

"على الأرجح أنه مطلوب للعدالة.. أما أنت فيمكنك أن تذهب".

***

لماذا أخذوا الدكتور؟ لم أستوعب الأمر. أعتصر مخي طيلة الطريق من المطـار إلى الفندق مفكرًا. لمـاذا الدكتور مطلوب للعدالة في إنجلترا؟ هل هناك شيء ما خطير فعلناه في الشـهور الماضيـة؟ لقد فعلنا الكثير، ولكن ما علاقة الأمر بقوائم الانتظار هنا في إنجلترا؟ وإن كنا متورطين في شيء ما فلماذا قبضوا على الدكتور بينما تركوني أمضي؟

هل الأمر لـه علاقة بالقضية التي تسـببت في فصله من مهنة الطب؟ لقد قال لي إن هذه القضية أغلقت. هل الأمر له علاقة بمايو؟ لماذا لم يشـأ مايـو أن يمر من الجوازات؟ هل كان يعرف شـيئًا ما لم نعرفه؟ هل للأمر علاقة بساتومي؟ هي التي طلبت أن نقابلها في لندن. هل في الأمر خدعة ما؟ كل تلك الأسـئلة أخذت تدور في عقلي ولكن كان أكثر الأسئلة التي راودتني حيرة، كيف عرفوا بأننا أتينا سـويًّا؟ لقد دلف كل منا إلى شـباك جوازات مختلف. يبدو لي أن هناك أشياء خطيرة لا أعرفها.

أدلف إلى غرفتي بالفندق ورأسي ترهقني. جسدي يعجز عن الجلوس أو الراحة. لقد عذبني الأمر أكثر مما كنت أستطيع أن أحتمل. لقد اكتشفت أن الدكتور لم يعد بالنسبة لي شريكًا فحسب. لقد صرنا مرتبطين بقوة وأبعد مما كنت أتخيل.

أطل من نافذة غرفتي بفندق "كناري ريفرسايد بلازا" على مدينة لندن. تغرب شمس اليوم خلف أفق المدينة وتحيل الأفق للون القرمزي. تضيء نوافذ المباني البعيدة والقريبة كنجوم تتراص في السماء ويمر نهر التمز أمامي ومن خلفه مبان فكتورية عتيقة تقف على الضفة الأخرى. من أنا؟ أسأل نفسي وأنا أطل على مدينة أخرى تحدق فيَّ. مدينة أخرى في رحلة لا أعرف لهـا مصيرًا. من أنا؟ وما الذي أريده؟ هناك شيء ما فعلته أودى بصديقي ولا أعرف كيف يمكنني أن أنقذه. أشـعر بأني على وشـك الانهيار تحت وطأة التفكير المسـتمر. عليَّ أن أسـتجمع قواي. أضع رأسي طويلًا تحت الصنبور. أغسل وجهي جيدًا وأخلع قميصي وأتنفس بصعوبة.

عليَّ أن أفهم ما حدث ولذلك سيكون أول شيء أفعله، هو أن أبحث عن محامـي هنا في لندن. أبدل ملابسي وأغـادر الغرفة على عجل. ينفتح باب المصعد لأجدها أمامي. ترتدي ثوبًا أسود طويلًا وقرطين من اللؤلؤ وتلتمع حدقتاها بضوء النجوم التي سقطت في تلك الليلة الغريبة.

***

في مبنى سـكوتلانديارد العتيق، أجلس وأمامي الدكتور الذي رسـم على وجهه ابتسـامة بلهاء. المحامي الذي يتقاضى ثلاثمائة جنيه إسترليني في السـاعة كان يتفحص الأوراق بملل ويسأل الدكتور أسئلة خاوية من أي مضمون. يغمز لي الدكتور بعينه ويهمس.

"لقد كنت أتوقع هذا منه".

"سألتقي به اليوم في مكتبه".

"أرجو أن تستمتع بلقائه".

"سأنفذ ما يريد".

انقلب وجه الدكتور فجأة وصاح بأعلى صوته:

"لا لا لا... لن تفعل أي شيء يريده هذا الوغد.. لن ينال مني أبدًا! هل تفهم؟ لن تمنحه أي فرصة لينال مني.. هل تفهم؟".

هاج الدكتور وأطاح بكل شيء حوله، ضرب الطاولة بكفه واحمر وجهه وادمعت عيناه. تلك كانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها صديقي ينهار هكذا. تبعثرت الكراسي ودخل الحراس محاولين إيقافه ولكنه ظل يقاوم ويصرخ في. أقعدوه أرضًا فدفعت الحراس محاولًا تخليصه ولكنهم عاجلوني بضربة قوية من إحدى الهراوات.

رأسي تورمــت. المحامي تحول إلى الدفــاع عن حقوقي التي أهدرت. المحقق تأسف ومنحني كيس ثلج. الدكتور اقتادوه إلى محبسه بعد أن بكى كثيرًا وتمرغ في الأرض وسبّ الجميع بمن فيهم الملكة إليزابيث.

خرجت من مبنى سكوتلانديارد بعد ساعة غاضبًا. الاتهامات الموجهة للدكتور قد تجعله يقضي على الأقل سبع سنوات في السجن، هكذا يقول المحامي الذي نصحنا بالوصول إلى تسوية. هذا بالطبع ما لم يقبله الدكتور وأثار ثورته. ما رأيته اليوم يحدث أمامي أصابني بصدمة لم أكن أتوقعها. لم أكن أتوقع أن الأمر حزين إلى هذا الحد. الآن فهمت أن الأمر شخصي. قصة تعود إلى سنوات طويلة مضت.

***

في الليلة الماضية لم تكن ساتومي جميلة فقط ولكنها كانت رائقة وكأنها ينبوع ماء بارد على درب مسافر آت من بعيد. أول شيء قالته عندما قابلتني عند مصعد الفندق كان "هل تقبل دعوتي إلى العشاء؟". تطلعت إليها مليًّا واعتراني الصمت. لم أعرف بماذا أجيب، وهل هناك شيء ما مريب وراء كل ما يحدث؟ لقد أتينا إلى لندن بناء على دعوتها. لماذا حذرني مايو منها منذ البداية؟ ولماذا اختفى؟ ربما لم يكن لساتومي علاقة بالأمر فلم أجد شيئًا أقوله لها سوى:

"هل لديك محام جيد؟".

تمعَّنت فيَّ مليا وقالت بفراسة:

"يبدو أن شيئًا ما قد حدث!".

أجريت عدة اتصالات في دائرة علاقاتها النافذة حتى وصلت إلى رجل ما نافذ في مكتب سكوتلانديارد. يقول المصدر إن الدكتور مدان في قضية تبديد أموال منذ بضعة أشهر هنا في إنجلترا. عقلي ظل يحاول أن يستوعب الصدمة ونحن على طاولة العشاء. بعد فترة من الصمت قررت أن أصل إلى قلب الأمر مباشرة ولم أجد أمامي سوى ساتومي.

"لقد كانوا يعرفون من أكون.. كانوا يعرفون أني على علاقة بالدكتور ولهذا سألوني في المطار عنه.. الآن أريد منك تدبير لقاء مع جايمس مكانهان.. أعتقد أنه يعرفني".

لم يستغرق الأمر طويلًا مع ساتومي. في الصباح التالي أرسلت لي رقم الهاتف الذي أريده. قبل أن أذهب للقاء الدكتور في سكوتلانديارد كنت قد أجريت الاتصال وحددنا موعدًا في المساء.

***

تقودني فتاة إلى مكتب فخم في بناية "سيتي جروب" بقلب العاصمة الإنجليزية. ها هو يجلس خلف مكتبه الكبير ويتطلع نحوي. إنه نفس الوجه الدائري، الوجنتين الحمراوين، الكرش المنتفخة تحت القميص، نبرة الصوت المتثاقلة والشعر غير المصفف. إنه يشبهه إلى حد بعيد. إنه أبوه، المدعو جايمس ج. ماكنهان.

"كيف كانت رحلة الكاريبي؟ لقد جنيتها الكثير من المال وقد حان الوقت ليسدد صديقك ديونه".

تطلعت نحوه وهو يبتسم مزهوًا بنفسه وبدأت أفكر مليًا. لم يحكِ لي

الدكتـور الكثير عـن أبيه ولكن ما حدث هذا الصبـاح جعلني أوقن بأن الدكتـور لم يكن فقط غاضبًا من أبيه، لقـد كان يكرهه بحق. هذا الرجل لم يكن خصمًا سـهلًا. لقد تقفى أثر ابنه منذ فرّ من إنجلترا وتحضر للحظة المناسـبة. لقد كان يحتفظ بمسـتندات تثبت تبديد ابنـه لممتلكات الشركة واختلاسـه مبالغ من حساباتها. لم يستخدم تلك الأوراق إلا عندما سمع من بعض المصادر أننا أصبح لدينا أموال. ساعتها قام بفتح القضية منتظرًا سقوط ابنه في قبضته. الآن يجلس أمامي وسلسال من الغل الأسري يخرج كالدخان من تحت رماد السنوات.

"لكن اعذرني.. كيف سيقوم بتعويضك؟ تعويضك كأب أو ماذا حقيقة؟ اعذرني أنا لا أفهم كيف تفكر؟".

بدا وكأني أصبت حقيقةً ما لم يتوقع مني أن أخوض فيها، تبدلت ملامح وجهه لتعكس صورة غير مفهومة ولم أستطع قراءتها. أنا لا أعرف الكثير عن القصة الأليمة لتلك الأسرة ولكني كالعادة أحاول زعزعة الآخرين كلما مروا بي وتحدثوا إليَّ. أنا لا أفعل شيئًا مع الناس سوى زعزعتهم. لا أصادقهم ولا أبني معهم علاقات. منذ أن ألقى بي القدر في أول مهمة وأنا فاقد لأي ثقة بالبشر من حولي، أتعامل معهم جميعًا بنفس الطريقة، أبادر بالهجوم.

لا أعرف الكثير عن هذا الرجل المتعجرف ولا عن المبالغ التي بددها الدكتور من أمواله. كل ما أحاول أن أفعله في تلك اللحظة هو نفض الرجل لينقشع الغبار. ليتني ما فعلت!

عندما أتبعت قائلًا:

"بضع سنوات في السجن لن تشعره بالندم على ما فعل.. إنه سيفعل أي شيء ليجعلك تغضب".

طالعني مارد من الصلف لم يكن عليَّ إخراجه. نظر في عيني ورأيت الحقيقة.

"أنا أنجبت هذا العربيد السكير.. لو كان أخذ مالي من قبل وفعل به شيئًا في الحياة لما كنت غضبت.. لكنه بدد أغلى الأشياء بلا ثمن.. لقد أخذ ساعتي المفضلة وباعها بخمسة جنيهات في البار ليشرب بثمنها.. إنه لم يبدد مالي فقط ولكنه دأب على تبديد كل شيء غال أعتز به.. عليه الآن أن يعرف كيف جعلني أشعر.. أنا لا يعنيني الآن سوى تلك الأموال التي بحوزته.. دعنا نوفر الهراء والعواطف.. إعادته إلى السكر والعربدة ستجعلني في غاية السعادة".

يطالعني ببرود يليق برجل لا يلقي بالًا لأي اعتبارات. يتجرع من زجاجة الويسكي التي أمامه على مهل وهو يواصل فرض شروطه ودحري في كل مرة أحاول فيها أن أستثير أي شيء عاطفي. الآن فقط فهمت كل الأشياء التي لم أفهمها عن الدكتور من قبل.

أعترف بأني أجيد قراءة الناس. ربما كانت تلك إحدى أسوأ صفاتي. إنها تجعلني أطلع على أشياء لا أحبها ولا أريد أن أراها. أستطيع أن أجزم بأن مستر جايمس الجالس أمامي سيدق عنق ابنه بأي ثمن. الآن فهمت

لماذا انهار الدكتور إلى هذا الحد. أنا نفسي صرت أكره هذا الرجل بكل ما يحمله من تعالٍ وبرود.

لن يجدي معه الكلام ولا التفاوض. أشار نحو باب المكتب وهو ينهي حديثه:

"اعذرني لدي مواعيد هامة.. السكرتيرة ستقدم لك نسخة من الأوراق.. يمكنني التسوية بمبلغ خمسة ملايين إسترليني وسأتنازل عن القضايا".

لم أنم لثلاثة أيام، أسير في طرقات لندن طيلة الليل مفكرًا. سألت وبحثت في كل الأوراق وفتشت عن تاريخ الرجل ولم أجد حتى ثغرة واحدة أستطيع أن أنفذ منها. لم أعرف ما الذي أستطيع أن أفعله حتى زارتني ساتومي في الليلة الرابعة. جلست في الغرفة على الكرسي المواجه للنافذة وسرحت قليلًا قبل أن تلفت لي وتقول:

"هل تعرف لماذا طلبت منك أن نلتقي في لندن؟".

"لكي نعمل سويًا.. لكن علينا تأجيل الأمر قليلًا حتى أستطيع أن أحل مشكلة صديقي.. ربما عليكِ أن تعرفي أننا شريكان في كل شيء".

ابتسمت ساتومي ابتسامة واسعة ثم ضحكت. ظلت تتطلع نحوي وكأنها تتفحص وجهي من جميع الزوايا. شعرت وكأني قد قلت شيئًا ساذجًا بالنسبة لها. وضعت ساقًا على ساق وسألتني:

"في الحقيقة أنا لم أفكر حتى في موضوع العمل معك هذا.. لقد

اعتبرتك مجنونًا عندما عرضت الأمر.. كل ما أريد معرفته عنك هو إلى مدى أنت مستعد للذهاب؟ لو كان المعلم محقًا بشأنك فأنا أريد أن أرى بعيني لأصدق.. لهذا السبب أريدك أمامي لأفهم.. لكن دعك من هذا الآن.. هناك سؤال آخر يشغلني بشدة".

تمضي في الغرفة وتصب كأسًا من النبيذ الأحمر ثم تقف أمام النافذة وفي يدها الكأس. ترتسم أضواء الليل المتسربة من النافذة لترسم خطوطًا حول تلك المرأة. يتجلى جمالها الأنيق في الثوب الطويل المنسدل على جسمها الممشوق. تلتفت لتلقي عليَّ نظرة جانبية قبل أن تتابع:

"هل أنتما شريكان حتى في الديون والأمور العائلية؟".

أنت تلاعبينني بفضولك، فليكن. عليك الآن أن تتحملي أيتها الذكية وقع الأشياء. أجبتها بهدوء:

"بكل تأكيد.. مايو أيضًا شريك معنا".

التفتت إليَّ بجسمها كله واتسعت حدقتاها وكأني ذهبت بها إلى أبعد مدي ممكن.

"المعلم شريك معكما؟ أنت تمزح!".

قالت "أنت تمزح" بلكنة أمريكية صرف. لكنة شخص ولد وعاش في أمريكا. اقتربتُ منها ووقفت أمام النافذة. أضع يدي في جيبيّ وأتطلع نحو أضواء لندن المنعكسة على صفحة مياه نهر التمز.

"أنا أيضًا كنت أتشكك في الأمر.. لكننا وجدناه دائمًا معنا.. لا أستطيع أن أقول لك بأني أفهم العجوز أو أعرف دوافعه.. أنا لا أعرف

عنه الكثير ولا أعتقد أني سوف أعرف يومًا ما كل شيء عن هذا الرجل.. كل ما أعرفه أننا عندما نحتاجه نجده حاضرًا.. أليست هذه شراكة؟ ما الذي يريده الإنسان ليطلق على شخص ما لقب شريك أكثر من هذا؟ أن يكون معك عندما تنسد الطرق".

بدت ساتومي مشدوهة وفي حيرة من أمرها حتى أن نقطة عرق هبطت على عنقها. سألتني:

"لماذا لم تبلغه بعد بما حدث لصديقك؟".

"ليس هذه المرة.. مايو ليس لديه شيء يستطيع أن يفعله مع أمر كهذا".

"ولماذا تعتقد أنك تستطيع أن تعمل معي؟".

"أتريدين الحقيقة؟".

"هل تقدر على الحقيقة؟".

"جربيني".

"أخبرني إذًا عن الحقيقة".

"الحقيقة هو ما تنتهي إليه الأشياء عندما تفرغ كل الأكاذيب.. الحقيقة لن أستطيع وصفها لك ولكنها الصوت الذي يسكنني.. إنه يناديني لأدخل الدغل الموحش.. لا أملك بوصلة وليس هناك سوى دروب من الوحل والغيوم.. يناديني الصوت ويقول لي تعال وأنا أمضي دون توقف.. لقد حاولت أن أوقف نفسي.. هناك قوة هائلة داخلي ترسلني خلف هذا النداء البعيد".

"ما الذي ستفعله الآن؟".

"الأمـر لا يتعلق بي وحدي.. نحن اثنان.. أنا والدكتور.. عليَّ أولًا أن أنقـذه.. ربما لا أملك حلًا ولكن ليسـت تلـك أول مرة نخوض فيها حربًا لا قبل لنا بها".

***

يضع قميص في سرواله ويرتدي الجاكت وهو يخرج من البوابة. ها هو كرشه المعروفة تقترب وشعره الأصفر المنعكش. أخيرًا وبعد ليال بائسة، أطلقوا سراح صديقي وها هو يقترب والابتسامة تعلو وجهه الأحمر. نتعانق وأربت على كرشه قبل أن أناوله سيجارة وأشعلها له. يأخذ نفسًا عميقًا وينفث دخانه في سماء الحرية قبل أن يقول:

"ماذا الآن؟".

أرنو نحو الطريق وأهرش في رأسي قبل أن أجيب:

"لا أعرف".

"كم تبقى معنا من المال؟".

"أقل من أجرة التاكسي".

"أخذ الوغد كل شيء؟".

أحنيت رأسي ولم أكن أريد أن أخبره بالحقيقة كاملة في التو. لم نكن نملك مبلغ التسوية كاملًا وبقية المبلغ دفعته لنا ساتومي وصار علينا أن نسدده لها. أكذب قائلًا:

"تقريبًـا والمحامـي الوغد أجهز على آخر ألفي جنيه إسـترليني كانا معي هذا الصباح".

تطلعنا نحـو الطريق المصفوفة على جانبيه المبـاني الإنجليزية القديمة ومضينا عائدين. الدكتور هدأت ثورته وبدأ يتقبل الحقيقة. أيقن أنه لم يكن هناك شيء نسـتطيع فعله. أبوه حصـل على كل المال الذي في حوزتنا بعد مفاوضات مضنية استمرت لأسابيع. قمت بتحويل كل الأموال لحسابه في بنك بالعاصمة لندن مقابل التنازل عن القضايا. الرجل كان يعرف كل شيء عنا تقريبًا. عرفنا لاحقًا أن لديه علاقات واسعة في كل جزر الكاريبي. الأمر بدأ عندما كنا نشتري منزل في جزر كايمان. وهكذا عندما يتجلى الحظ التعس في أبهى حالاته، السمسار استدل على الدكتور عبر اسم العائلة وفي اليوم التالي قابل أحد زبائنه الكبار الذي كان للأسف أبا الدكتور. أخبره بـأن أحد أفراد عائلته كان يشـتري منزلًا. تحـرى الرجل الأمر ليصل إلى المعلومات التي كان ينتظرها منذ سـنوات طويلة. تقفى أثرنا وعبر شبكة الإنجليز المهيمنة على كل الأعمال والبنوك في كايمان، استطاع أن يستشف وجود أموال ليسـت بقليلة أتت بابنـه إلى أحد جزر تدوير الأموال. رفع قضية بالأوراق التي كانت في حوزته وتثبت اختلاس ابنه لأموال الشركة وجلس منتظرًا اليوم الذي سيعود فيه الابن الضال إلى أرض الوطن. لقد قادنا الحظ العاثر إلى الفخ المنصوب دون أن نعلم. لقد حذرنا جون عندما قابلناه في هونج كونج ولكننا نسينا الأمر. هكـذا كنت أنا والدكتور، لا نقع سوى في أغبى الأخطاء الممكنة. يعرف الدكتور أن أباه نال منه ويخفي شـعوره بالمرارة والحنق تحت ملامح وجهه. يتوقف أمام عربة آيس كريم

في طريق عودتنا ويقول:

"هل معك ما يكفي لآيس كريم؟".

"مرحبًا بعودة معدتك.. لقد افتقدتها".

نأكل الآيس كريم ونحن نتسكع على ضفة النهر ويقول:

"ربما كان علينا أن نفعل مثلما فعل مايو".

"أتقصد في المطار؟".

"نعم.. لقد تركنا وتبخر في الهواء".

"إنه عادة لا يمر من الجوازات في المطارات.. تقول ساتومي إنه عادة يحمل كارت المرور الخاص بعاملي النظافة في المطارات ويعرف الأبواب التي يمرون من خلالها.. تقول إنه دائمًا يعرف كيف يعبر حدود الدول كالشبح".

"آه ساتومي.. ما الذي حدث بينكما؟".

"لا أعـرف.. كل شيء غامـض.. مـا زلت لا أعـرف من هي، ولا ماذا تفعل".

"عظيم.. الآن ما الذي سنفعله؟".

"نحن في غاية الإفلاس حقيقة.. ولكن لدينا عميل في هونج كونج ونصف حقوق الملكية لمكتب محاماة في كايمان.. جميعهم لا يعرفون أننا بلا عمل وبلا مال.. لا أعرف ما الذي سنفعله".

"هههههه.. حقًا؟ دعك من هذا الهراء! أنت أغرب شخص رأيته في هذا العالم".

"كيف هذا؟".

"منذ متى وأنت تملك شيئًا على أرض الواقع؟ أنت دائمًا تقنع الجميع بأن هناك شـيئًا ضخمًا قادمًا.. كلهم يعرفون أنك تملك خطة ذهبية عندما لم تكـن تملك شـيئًا قط.. كيف تفعل هذا؟ كيف تقنـع الجميع بمن فيهم أنا؟".

وجهه انقلب فجأة وتحولت ملامحه إلى صرامة وجدية بالغة. يصوب عينيه نحوي متحديًا ويتوقف الزمن وأشعر بقوة المواجهة التي ترسلني داخل نفسي، وأجوب رأسي مفتشًا حقيقتي ومن أكون. الشخص الذي يقف أمام الدكتور الآن يكمن خلفه شخص آخر يشاهد ولا يعرف شيئًا.

لا يتركني الدكتور ويمسك بتلابيب معطفي ويجرني بعنف نحوه:

"لا تخبرني الآن أنك لا تملك خطة.. أين المجنون الوغد؟ أيًا كانت خطة هذا اللعين في داخلك فأنا سأتبعها حتى آخر العالم.. أبي لن ينتصر.. زبانية عالم المال لن ينتصروا علينا.. هناك جولة قادمة.. سنعود لهم".

الدكتور يريد المجنون، ساتومي تريد المجنون، كاك وماسكو وساركيس ينتظـرون المجنون. هذا العالم العجيب يطلب المجنون، إنه يريده بشـدة. إنهم يجرُّونه جرًّا للعراء، لقلب المعركة المكشـوف. إنهم يحقنون الدماء في أوردته، ويتسربلون وراءه بينما هو عليه أن يشـق طريقًا وسط متون العالم الرأسـمالي، وسط مدن من الألمونيوم والزجاج لا تعرف الرحمة وأزمنة لا تعرف سوى جبروت المال والباقي كلامٌ يُلاك.

تهطل الثلوج وتتجلى زينة الكريسماس ويقفل نجم عام غريب. 2005 يهم بالمغادرة ونحن في لندن غريبان، بلا أي شيء.

23

يطل البورد الأمريكي المكون من سبع بزات فخمة نحونا، ويسود الصمت. يهتف المدير التنفيذي للمجموعة التي تجاوزت قيمتها السوقية ثلاثة مليارات دولار قائلًا:

"هل هذا الأمر حقيقي؟!".

أشير نحو الدكتور الذي يومئ معقبًا:

"ستحصلون على ما بين 7 إلى 11 في المائة على أسوأ التقديرات".

يهز الرجل رأسه قبل أن يقول:

"لكن الأمر قد يلحق أضرارًا بالعلامة التجارية؟".

إحدى وسائل فن التفاوض، هو أن تشعر الجالس أمامك بأن ما يخرجه من هواجس ليس ذا جدوى. أطلق ابتسامة طويلة وأنا أتأمله.

يعدل رابطة عنقه بحركة لا إراديه تشـير إلى تردد يجول في رأسه. أواصل زعزعته حتى يخرج هواجسه من داخله ولا يبقيها سرًّا. من الخطر أن تترك العميل يخرج ولديه هواجس لم يكشفها لك. عادة ستكون تلك هي أخطر هواجس لديه وسيتداولها لاحقًا مع شركائه وستؤثر بشكل كبير على القرار. المهمة هو أن تستفزه حتى يخرج كل ما في جعبته حتى آخر هاجس.

هناك هدفان مباشران يجب تحقيقهما بمجرد بدء التفاوض، الهدف الأول هو أن تسرسب كل الهواجس الكامنة في العقول حتى تستطيع تفنيدها، وكسب أرض على حساب الخصم، الهدف الثاني هو أن يتم ذلك أمام كل أفراد البورد الحاضرين، حتى تتمكن من استمالة بعضهم في صفك، وعندئذ هؤلاء هم من سيقومون بالرد نيابة عنك لاحقًا لأنهم اقتنعوا أو فلنقل، اشتروا.

يخرج المدير التنفيذي زخمًا من الهواجس. يسرد تساؤلات عن التغييرات المالية والقانونية في هيكلة الشركة وكيف قد تؤثر على سعر السهم في البورصة، يلمح إلى أن ثقة المستثمرين وحاملي الأسهم قد تصبح على المحك مع حدوث تغييرات جذرية في الهيكل المالي ناهيك عن ثرثرة المحللين الماليين في السوق.

كلام جميل ولكن الرد جاهز وساطع كسطوع الشمس:

"وماذا عن وول مارت، أي بي إم، بروكتل آند جامبل، فايزر، أنتل؟".

يضبط الدكتور على أنفه النظـارة ذات الإطار العريض الذي انتقيتها له حتى يبدو وكأنه محلل الحسـابات اللوذعـي الصنديد، أكاد أموت من

كبت رغبتي في الضحك كلما حاول رفع النظارة الثقيلة لأعلى. أشير إليه فيدخل على الخط:

"أبل، جوجل، بوينج، هيلويت باكارد، بيبسيكو، سيتي جروب.. حتى ستارباكس.. هؤلاء هم أقوى الأسهم في وول ستريت وكلهم يستخدمون هذه القوانين.. في الحقيقة كل البنوك الاستثمارية الكبرى بل الاقتصاد العالمي يستخدم الأوف شور".

أتلقى دوري من الدكتور وأواصل:

"نحن هنا لسنا بصدد إقناعكم بالأمر.. هناك ثلاث خطوات لتخفيض حجم أرباحكم المعلن في أوروبا وبالتالي دفع ضرائب تقترب من الصفر.. نعم صفر هو الرقم".

أرسم بالسبابة والإبهام رمز الصفر الدائري قبل أن أستعد لتسديد الضربة القاضية. أتجرع رشفة ماء ببطء وأسترخي لأسفل على مقعدي بينما أبني تواصلًا مباشرًا بالعين مع من قرأت على وجوههم الاقتناع، لجعلهم يشعرون بأنهم الأكثر فهمًا ورؤية. بنبرة لا تهتز وأداء شكسبيري حماسي أرص القوالب تلو بعضها:

"الخطوة الأولى هي أن تقوم الشركة الأم في أمريكا بإقراض فرعكم في أوروبا مبلغًا كبيرًا لبدء العمليات وبذلك تكون الشركة الأوروبية مدينة بهذا المبلغ وعليه تقوم الشركة الأوروبية بتسديد فوائد سنوية نتحكم فيها قد تصل إلى 6 بالمائة، الخطوة الثانية هي أن نقوم بإنشاء شركة أخرى في هولندا ستكون مالكة لحقوق العلامة التجارية وسيكون على الشركة

الأوروبية الأولى تسديد مبلغ سنوي للشركة التي في هولندا سنويًا مقابل استغلال الحقوق، أما الخطوة الثالثة فهي تأسيس شركة قابضة عابرة للقارات عن طريق مكاتبنا في جزر الكاريبي لا تقوم بدفع أي ضرائب.. الآن دعونا نقم بالحساب.. شركتكم الأوروبية ستكون مطالبة بتسديد ديون وفوائدها بالإضافة إلى حقوق العلامة التجارية ومن ثم كل هذه الأموال ستعود إليكم صافية".

الآن حان موعد النبرة الثانية المواربة:

"فلنتفق على شيء هام واحد. التغيير قادم وكل منافسيكم الكبار في السوق الأوروبية يحولون أرباحهم عبر الأوف شور. لن تستطيعوا مجاراتهم لأكثر من ثلاث سنوات بناء على الإحصاءات التي عرضناها عليكم. لكن إذا تركتم لنا المهمة سنقوم بوضعكم على رأس السوق ثانية. التغيير قادم يا أيها السادة المحترمون والنمو في السوق يحتاج إلى طرق أكثر حرية في نقل الأرباح وإعادة ضخها في تطوير المنتج والتسويق".

هناك نوع واحد من الموسيقى يفضله رجال الأعمال. إنها أوركسترا كلاسيكية خالدة تسمى حب المزيد. تعلو الكمنجات مع نغمة النمو، يهدر التشيلو مصورًا فخامة العائد، قبل أن تضرب الإيقاعات مارشات الحرب على المنافسين. هذه هي الموسيقى التي تدغدغ حواسهم. يتلقى الدكتور عصا المايسترو ليجهز عليهم قائلًا:

"على الشاشة كما ترون المعدل المتوقع الذي قمتم بإرساله إلينا. دراساتنا على نفس النموذج البياني تشير إلى تلك الأرقام".

تشرئب أعناقهم لبعض الوقت وتتفحص عيونهم استنتاجاتنا المغايرة على نفس النموذج ويتهامسون مع المستشار المالي الذي يؤكد أن تحليلنا دقيق.

يأخذ الأمر بعضًا من الاستفسارات والمداولات التي يصول فيها الدكتور ويجول بحرفية. يمتد الوقت لساعتين إضافيتين قبل أن نصل إلى نهاية الماراثون. يقول الدكتور:

"أيها السادة فلنتحدث عن النموذج المناسب طبقًا لنموذج الأعمال الخاص بكم. الساندويتش الأيرلندي الهولندي هو الأنسب لكم".

انتهى الاجتماع الأول والأخير معهم. إستراتيجيتنا كانت تعتمد على أن يكون الاجتماع مرة واحدة فقط. ليس أمامنا فرص أخرى. لقد درسنا كل شيء وذهبنا مستعدين. اتفقت أنا والدكتور في الطريق على أن نبدأ التفاوض عند أصعب النقاط وأشدها خطورة ودون مقدمات، تحليق من أعلى لأسفل. خطة الصقر للقنص في الماء، نصوب نحو السمكة ونضبط السرعة والاتجاه ومعدل الانحراف قبل أن ننطلق بأقصى سرعة ممكنة نحو الفرصة الوحيدة. ضربة وحيدة قوية ومستميتة على الهدف. الدكتور لم يكن فقط يتمتع بنظارة سميكة ولكنه قد قبل التحدي وشمر عن ساعديه وسن أسنانه لشريحة الستيك الأمريكية النيئة. كل ما مر به منذ قدومنا إلى لندن قد جعل منه عفريتًا خرج من قمقمه. كان يذاكر كل شيء طيلة الليل، يحفظ الأرقام ويحلل المراجعات المالية ويهاتف أصدقاءه في كل المراكز المالية حول العالم. لم يكن يملك حق زجاجة شراب ليسكر، ولم يعد لديه ما يخسره.

يرمـي الأرقام التي انتقاهـا بعناية، يصفعهم بها الواحـد تلو الآخر. لقد أصبح سريعًا كالبرق، آلة مذهلة في رص معدلات الضرائب ومؤشرات التحليلات وأسعار السوق والمراكز المالية المغلقة والمفتوحة والمستحيلة. قبـل أن يفيقوا كنا قد حاصرناهم في الركن الضيق. من يقدر علينا عندما نكون في الأوج؟ حتى اليابانية صارت تعرف هذا جيدًا. تلك كانت الصفقة الرابعة لنا معها بعد شهرين من إقامتنا في لندن. ننهي المفاوضات المتعثرة مقابل سداد ديوننا.

في مكتب ضيق لا يتسـع سوى لطاولة عمل وكرسيين وبعض أرفف الكتب ومدفأة، استأجرته لنا، نقضي الأيام والليالي. كان علينا أن نتناول القهوة والعشاء على سطح المبنى القديم حيث لم يكن هناك متسع في المكتب. ندخن سجائرنا في الأمسيات في النافذة المطلة على حي "هاكني" وأراقب النافذة المقابلة التي كان يلوح فيها شبح من خلف الستائر. أعلم أنه يتبعني إلى هنا ولكني لا أسـتطيع أن أفعل شـيئًا حيال هذا. موقن بأنه يعرف أني أراه طيلة الوقت ولكنه لا يختفي. سـأتجاهله وأعود لأراقب الحي الفقير والمكتظ بمتسكعي النواصي وغجر رومانيا، أتابع مشاجراتهم وموسيقاهم وضياعهم. لم نكن نخرج من هذا الحي البائس سوى مرة كل أسبوع لاجتماع جديد مع مجموعة من المسـتثمرين أو المدراء التنفيذيين لشركات أمريكية وأوروبية كبرى. سـاتومي تنسـق كل شيء عبر ألبرت الذي يعطينا ملفًا فيه خلاصة منتقاة عن أسرار الشركة وموقفها المالي، نعكف على دراسـته قبل الموعد المحدد.

أنهينا الاجتماع مع البورد الأمريكي وتسلمهم ألبرت كالعادة ليؤكد على الخطوات التنفيذية. مهمته في الاجتماعات هي تكسير الجليد وتوطيد العلاقات.

ألبرت كان داهية متحركة، تعرف ساتومي كيف تستفيد منه جيدًا. مصرفي قادم من كريمة الطبقة العليا لبنوك لندن الخاصة وأخطبوط يعرف شخصيًّا غالبية زبائنه من الأثرياء. معروف في أندية رجال الأعمال وملاعب الجولف وقاعات المزادات. يعمل مستشارًا شخصيًّا، يقدم الخدمات للأثرياء القادمين إلى لندن. لائحة عملائه تضم شيوخًا خليجيين وبارونات روسًا ورجال أعمال صينيين ومستثمرين يابانيين وأمريكيين.

المدعو ألبرت ذو الحاجبين الكثين لم يكن يرتاح إلينا على الإطلاق ونحن كنا نبادله نفس الشعور الكريم. من دون شك ساتومي خططت لهذا عن عمد، اليابانية التي لا تثق بأحد، تنتقي أشخاصًا متنافرين في فريق واحد مع جعل هدفهم مشتركًا. ألبرت يكرهنا ولكنه مفاوض فاشل، هو يستطيع أن يحضر رجال الأعمال للطاولة، يستطيع أن يدبر لهم طاولة خاصة في مكان مميز بأندية لندن الليلية وزجاجات شراب نادرة ونساء فاتنات، ولكنه لا يعرف كيف يجعلهم يوقعون. أنا والدكتور نستطيع فعلها. الثنائي المجنون والجريء الذي يتلاعب بالأرقام والتشبيهات وكل شيء للوصول للهدف.

بعد الاجتماع طلبت من ألبرت أن يقابلنا خارج المبنى. وقف ينظر إليَّ أنا والدكتور بعدم اكتراث ونحن نبلغه بما نريد.

"نريد أن تبلغ ساتومي بأنه حسب الاتفاق لقد أنهينا أربع صفقات. الآن نريد تفعيل ماسكو وساركيس":

"ماسكو وساركيس؟ لا أفهم ماذا تعني بهذا؟!".

"هـذا الأمـر لا يخصك.. هي تعـرف. أبلغها بأننـا في انتظار الرد".

سكب علينا آخر ما لديه من عدم الاكتراث ومضى. فليذهب إلى الجحيم أو أي شيء. أخلع رابطة عنقي وأقذف بها في أول صندوق قمامة ونحن نمضي مبتعدين. الآن لم يعد لدينا شيء نفعله. نتسكع قليلًا قبل أن يبدأ الثلج في الهبوط على طرقات لندن وتأخذنا أقدامنا إلى جسر لندن. يفرك الدكتور كفيه ثم يحكم الوشاح حول رقبته. أعطيه سيجارة وأتطلع إليه عن كثب، منذ أن خرجنا من الاجتماع وهو صامت لم يتفوه بكلمة. وضعت يدي على كتفه قائلًا:

"لقد كان هذا كل شيء".

أحنى وجهه لأسفل وتجنب النظر إليَّ. كانت عيناه تدمعان وكان قلبي يتكسر، بينما الغيوم والثلوج تضرب علينا غربة لم نشعر بها من قبل.

24

يحدث أحيانًا أن أتخيل الأشياء دون ترتيب مقنع. إنها تبدأ في الهبوط كالمطر ودون مقدمات وساعتها انطلق في عالم آخر لا أعرف له ملامح ولكنه يشير دومًا إلى اتجاه ما، وكأنه بوصلة قلقة تدور وتقف بلا قانون. تباغتني صور متتالية لأشياء لا يجمعها ترتيب زمني مفهوم ولكنها تلوح أمامي واضحة وقريبة. أرى نهايات لبدايات لم تحدث بعد وأتلقى رسائل لا يستطيع فتحها أحد سواي.

في اليوم الذي احتجزنـا فيه كاك، مقيدين في مرآب، كان عقلي ينبؤني بـشيء واحد؛ هذا الرجـل ينقصه شيء ما. إنه عميـل موهوب ولكنه لا يعرف كيف يحرك نفسه. إنه يشبه مدرب الكرة الذي ينتظر هجوم الخصم أولًا في انتظـار ثغرة. لقد كان كاك ينتظر كل الأطراف لتأتي إليه في ملعبه

ليفعل شيئًا. نقطة ضعفه في أنه لا يبادر ولا يذهب إلى أرض الخصم. لقد كان ينقصه التهور الذي أمتلكه.

قدرتي على مبادرة كاك بسرعة هي ما كان دومًا يربك حساباته. لقد أثبتت السنوات أن كاك كان دائمًا ما يفشل في قراءة خطوتي التالية. ربما هذا هو ما جعله بعد ذلك يتحرك خلفي دائمًا بخطوة.

لقد جندت الهونج كونجي الطويل وقبض مني مقدم أتعاب لعمليات لم أكن أعرف تحديدًا ما هي عندما بدأ الأمر. دفعت له مقدمًا وقد حان الوقت أن أحركه في الاتجاه المناسب. لم يكن كاك يجهل أني من أدخلت أرسلان في اللعبة وأرسلت به في طريقه. لقد فعل تمامًا ما توقعته ونجح في أول مهمة أوكلتها له بطريقة غير مباشرة. لقد ثبت التهم على الشريكين وتركهما في فم أرسلان الذي قضى على الشريكين تمامًا ومحا أثرهما.

لا تلعب مع الذئاب إن لم تكن ذئبًا. أرسلان كان يريد نصيبه من الصفقة ولا يهمه من أين سيحصل عليه. لقد قام كاك وبحرفية معهودة بتلفيق الأمر ليبدو أنه وسيط في الأمر ليس إلا وأن كل شيء كان بترتيب من الشريكين. ربما دبر له لقاء مع رجال أعمال صينيين ليقوموا بدور ما مثلما فعل معنا أو لعله كشف جزءًا من الأوراق يثبت أن الشريكين هما من دبرا كل شيء دون أن يتركا أي دليل واحد يشير إليهما. خازوق سيكون قويًا لدرجة أن أبو وليد وشريكه سيختفيان لسنوات. المقر تم تأجيره لشركة أخرى وسوزانا انتقلت للعمل في شركة أخرى. ظلت تراسلني طيلة الوقت بكل المستجدات مذيلة بأشواق وأغاني الحب والقبلات. وفية تلك المرأة و.. ملتهبة دومًا!

كاك أثبت لي ما كنت أتوقعه منه. هو الرجل المناسب للمهمة التي أحتاجها. العميل الذي سيحرق كل الأدلة في اللحظة المناسبة ودون أن يهتز أو يطرف له جفن. كاك الطويل الأنيق اللبق الحديث، هو رجل المهمة الأول.

25

عند سقف العالم.

ما الذي يأخذك للبعيد؟ كل هذه المسافة قطعتها عبر الجبال وحدك وتركتني لأتبعك. أحكم الكمامة على فمي وأنفي وأحاول ألا أواجه الرياح القاسية. أضرب بعصا السير في الطريق الصاعد لأعلى ولا أكاد أستبين شيئًا وسط الضباب. أنا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، أنبأتنى اليافطة التي مررت عليها قبل قليل. كيف قطع العجوز تلك المسافة كلها وحده؟ كيف يملك تلك الإرادة داخله التي يمضي بها في كل جنبات هذا العالم الكبير؟

أتبع إشـارة الجي بي إس التي تحدد موقعه. أرسـلها لي منذ خمسة أيام عندما حطـت قدماي في مدينة كاتماندو. عليَّ أن ألاحق الفيلسـوف عبر مسار طويل في الجبال. قدماي تكادان تنهاران وجسدي يحاول أن يتماسك

في مواجهة برد الجبال القـاسي وصدري يتعبني من آثار التدخين ونقص الأكسـجين على المرتفعات. عليَّ أن أجد العجوز وليس أمامي سـوى أن أتبع الطريق الطويل أينما مضى بي.

يضيق المسار وأصل إلى حافة الجبل المهيب. وسط الضباب الكثيف يظهر لي شبح يلوح، شبح يقف على حافة العالم كأنه آخر شخص. والعالم من ورائه قد يتهاوى في أي لحظة وبلا رجعة.

يشعل حطبًا ويسخن قهوة في كوب من الصفيح بينما كنت أضرب خيمتي إلى جوار خيمته. يناولني القهوة وأعطيه تبغ غليونه المفضل الذي طلبه مني. تبغ لا يصنع إلا في مدينة نائية بجواتيمالا. يدخن العجوز على مهل ويقول:

"لقد أتيت".

"كيف قطعت كل تلك المسافة وحدك؟".

"ما هي المسافة؟ كيف تحدد مسافة ما بين الأشياء؟".

"بداية ونهاية؟".

"البداية قد تكون نهاية رحلة سابقة والنهاية قد تكون بداية أخرى.. على هذا الجبل القمة ليسـت نهايـة.. القمة هنا هي بدايـة المعرفة.. بداية الحكمة".

يقف أمام الريح بلا ساتر أو غطاء يقيه البرد. يسقط الليل علينا وتنقشع الغيـوم وتقترب النجوم أكثر. هنا في أعـلى الجبل تبدو النجوم قريبة أكثر من أي وقت مضى، ويبدو مايو بعيدًا وهو على بعد خطوتين مني. يواصل

حديثه وهو ينفث دخان الغليون على مهل:

"المسافات تكمن في كيف تقيس الناسُ الأشياء. في القرية الكامنة عند حافة الغابة، قطف الثمرة يحتاج خطوات قليلة ولكن في المدينة الكبرى عصير تلك الثمرة يأخذ رحلة طويلة تحتاج إلى شحن جوي، جمارك، كوب كريستال فاخر، ضريبة خدمة وفندق ذي إطلالة مميزة.. نفس الشيء ونفس المذاق يحسب بحسابات مختلفة ويقطع مسافات مختلفة. في المدينة العظمى تتفاقم المسافات ويضاف كل ما ليس له معنى.. سيضيفون لك في النهاية شعار عصير طبيعي ليقنعوك بأنك تحصل على الأفضل.. الرأسمالية لن تكتفي بهذا فقط ولكن ستحتل الغابة وتحولها إلى مزارع وتهجن الأشجار لتنتج أكثر وتبيعك منتجًا كتبوا عليه شعار أورجانك وطبيعي وديتوكسك. هذا هو المشروب الطبيعي في ثوبه الجديد.. الآن دعنا نحسبها.. لقد تم تحويل المسافة ذات الخطوتين وتحولت إلى فكرة مختلفة ومنظومة من مسافات طويلة ومعقدة.

كل ما يحتاجه الإنسان يصير في العصر الحديث أبعد من متناول يديه. لقد تم خلق مســافات طويلة لتحصل عليه عبر سلاســل من الوســطاء. هؤلاء الوسطاء هم الرأسمالية الجديدة.

الآن دعني أســألك مجددًا، ما هي المســافة التي تريد أن تقيسها؟ انظر حولك وفكر.. ما خلقه العالم من حولك من مسافات.. كله مزيف".

يعيد ملء غليونه ويصمت طويلًا متأملًا النار قبل أن يعاود:

"المسافة الحقيقية الوحيدة هي المسافة بينك وبين نفسك... كلما دنوت من نفسك تقدمت".

يقول لي مايو الأشـياء التي تؤرجحني على حافة الهاوية. على أطراف سقف العالم وعلى جبال التبت يقول مايو لي مجددًا إني تائه.

عدت إلى كاثماندو وتركت مايو في الجبال، تركت مايو خلفي ولكنه لم يتركني أبدًا، كلماته ظلت تتردد في رأسي.

"المسـافة الحقيقية الوحيدة هي المسـافة بينك وبين نفسك". ولكني كلما كنت أقترب كان جنوني يزيد.

26

في لندن في أوائل العام 2006 كنت أعلم أن الجولدن جيشا سددت باقي المبلغ حتى نقع في الأسر. الحصول على خدماتنا كان هدفها المعلن. المرحلة التي قامت فيها بتجريب مهاراتنا والتعرف على قدراتنا كانت إحدى أسوأ تجاربنا في عالم المال. علاقة الدكتور بساتومي لم تكن جيدة على الإطلاق طيلة السنوات التي تلت. كنت أتعجب طيلة الوقت عن سبب كراهية الدكتور لساتومي ولكني اكتشفت لاحقًا أن الدكتور لم يمقت ساتومي قط، لقد كان هناك شيء أخطر لم أكن ألاحظه بالرغم من أنه كان أمامي طيلة الوقت. كيف كانت تسقط مني الأشياء البديهية؟ لم أكن آبه بشيء، تلك كانت أقوى أسلحتي وأغباها على الإطلاق.

يتطلع نحوي الدكتور ونحن نحتسي الشاي على شرفة المبنى الكالح في لندن ونتطلع نحو الأسفل. دون مقدمات يقول:

"علينا مغادرة تلك المدينة".

"أكره هذه المدينة مثلك تمامًا ولكن... للأسف تلك المدينة هي مفتاح عالم المال".

"نعم للأسف.. تلك المدينة هي الأقوى.. هل تعلم أن في قلب لندن توجد مساحة ميل مربع لا تستطيع ملكة إنجلترا دخوله دون تصريح من حاكم لندن؟ في لندن يحق للشركات التصويت في الانتخابات مثل الأشخاص. لقد حولوا كل جزر التاج البريطاني لجنات ضريبية لكي يخفوا فيها أموال العالم".

صار يدهشني بكم ما اكتسبه من معلومات. لم أتخيل أن محننا المتعاقبة كانت تخرج لي عبقريًا لم أكن أحلم بوجوده خلف هذه الكرش والملابس المترهلة التي يرتديها دومًا. هذه الدنيا لا تعطيك إلا المفاجآت من أقرب الأشياء عندما كنت تبحث بعيدًا. ما حدث لنا في لندن قد منح الدكتور سمعة جديدة بين الشركات ورجال المال حتى أن بعض البنوك قدمت له عروضًا ليعمل محللًا ماليًا لديها. لقد صار الدكتور دكتورًا يتحدث عنه رجال المال بتوقير. عاد الدكتور ليضرب من جديد.

يعاود على مسامعي طلبه:

"علينا أن نغادر هنا".

"سنغادر ولكن أريد أولًا أن أوصل الخيوط ببعضها".

"اليابانية؟".

"نعـم.. أولًا لا تنـسَ كاك.. لقد قبـض منا مقابل أتعابـه.. ولدينا مكتب ماسكو وساركيس لو أضفنا ساتومي سيكون لدينا مفتاح البداية لنبدأ العمليات":

"كيف سنستفيد من هذا المثلث؟".

"ساتومي هى مفتاح الوصول للطبقة الثرية.. ماسكو وساركيس هما من سيقومان باستقباله عبر البحار.. كاك هو الذي سيدور الشركات والحسابات وسيلعب دور الوسيط".

"ونحن؟".

"لن نفعل شيئًا على الإطلاق...".

"هههههـه يا لها مـن خطة عبقرية.. ولكن.. أممم.. للأسـف أنا لم أفهم شيئًا".

ابتسم سعيدًا، لقد عاد الدكتور لسابق عهده.

"يا مستر بطيخة.. لقد كنت عبقريًا البارحة فقط فماذا حدث؟ لماذا تفهم كل شيء في عالم المال المعقد وتأتي عندي برأس حمار.. نحن ببساطة سوف نركب تلك الأشياء مع بعضها بحيث تمر من خلالنا وفي نفس الوقت نحن لسنا موجودين".

"أشباح؟!".

"بالطبع.. الدرس الذي تعلمناه هنا في لندن هو أن علينا أن نصبح أشباحًا لا يراها أحد.. لا نملك شيئًا يستطيع مخلوق أن يتتبعه. أبوك وصل إلينا لأننا ظهرنا وتلك كانت جريمتنا الكبرى التي لا يجب تكرارها..

لا يجب أن نظهر بعد الآن.. وهناك شيء آخر.. لن نوقع على أوراق ماسكو وساركيس".

"ولكنهم وقعوا العقود!".

"نعم شكرًا لهم.. نحن نملك مستندًا يمنح الحق في نصف الشركة دون توقيع في خانة المالك.. فكر قليلًا.. هذا المستند نستطيع أن نبيعه في أي يوم عندما يصير لماسكو وساركيس قيمة ودون أن يصل إلينا أحد".

"أشباح".

ابتسم الدكتور وفهم ما أرمي إليه. نشعل سيجارتين بنفس القداحة ونطالع ضباب لندن الذي لا ينقشع في انتظار عودة ساتومي من نيويورك.

***

تجوب الأفق أفكار غير مترابطة. لا الزمن يوقفني ولا المكان. عشت لا آبه بشيء ولذلك أطلقوا عليَّ لقب "المجنون". كلما تنقلت من مدينة إلى أخرى ظلت سيرة دبي تلاحقني. بالرغم من أن دبي ليست مسقط رأسي ولا أتحدث لكنة أبنائها ولا أرتدي ثيابهم البيضاء ولا أحمل جنسيتهم، لكني من صنعها. صدقني، فأنا لست وحدي، تلك المدينة المطلة على خليج النفط الأسود صنعت كثيرًا من النماذج. آثارها في كل مكان. هذا الخليج وأمواله غيَّر كل شاب عربي في العقود الخمسة الأخيرة. لقد عصف بنا النفط وزمانه وبنيت على أثره ثقافة جديدة مزروعة بالأسمنت والسيارات والمدخرات المحولة. على تلال الرمال الزاخرة بالزيت الأسود نبتت ثقافة ملايين من شباب العرب، صار المال هو محور حياتهم وتجرعوا العالم دفعة واحدة من كأس خليجية مذهَّبة.

لقد أتيت من تخوم منيل الروضة، تلك الجزيرة القابعة في منتصف نيل القاهرة لأطالع ناطحات السحاب في مدينة الحلم. لم أكن أعرف من أنا وماذا أريد، ثم ذات يوم تغير كل شيء. هناك الكثير من الروايات يتداولها الناس عني، يقولون إني أمير من إحدى العائلات الحاكمة ولي نفوذ واسع في الإمارة وسلطاتي تتيح لي فعل أي شيء في دبي وأسواق العالم. يقول آخرون بأني واجهة لأكبر الأثرياء العرب وأدير أعماله بينما هو لا يظهر في الصورة. يحلو للبعض أحيانًا أن يقولوا إن المجنون لا يعرفه أحد وإنما هو شخص خيالي اختلقه البعض لتمرير أموال طائلة في عمليات غامضة ومريبة. روايات وروايات تحكي قصصًا أشبه بخيال ملتبس وغريب، أما الحقيقة فلم يكن يعرفها سوى قليلين، سيتبخرون في الهواء ذات صباح ولن يبقى منهم أحد سواي.

وحيدًا، أطل على مدينتي والمهلة التي منحتها إياي كاميليا تمر بسرعة. المعلومات التي جمعتها مني كانت تستطيع جري إلى أسوأ سيناريوهات محتملة. لقد سلمتني كاميليا لنفسي وتركت لي مخرجًا واحدًا أخيرًا. لقد تركتني مع أصعب اختيار على الإطلاق. اختياري لنفسي.

من كنت؟ ومن سأكون؟ هذا هو أصعب سؤال قد يمر برأس أي شخص على الأرض. إنه أكبر صدمة ممكنة. مهما كانت درجة معرفتك بنفسك، لا يعني هذا الكثير. إنه فقط جزء من صورة كبيرة تتشكل من أحداث تذكرها وأخرى لا تذكرها. لقد علمتني الحياة أن ما نذكره عن أنفسنا هو جزء صغير ومجتزأ من سياق كبير. استيعابك لذاتك يحتاج أن

تجمع كل شيء مر بك حقيقي، وكل شيء حلمت به في خيالك، وكل فكرة حية فيك، وكل هاجس خفي في أعماقك، ثم تحلل عقلك المعقد إلى شاهد حيادي، وتقوم بالحساب. لا تحاول. أعقد شيء تفتش عنه هو أنت.

بينما أجلس إلى الطاولة الزجاجية وأفتش في ذكراتي، أتطلع نحو العملة المعدنيـة التي في يدي وأتذكر مايو وهو يطـل نحوي. يرفع قبعته ويطيل النظر إليَّ ثم يشير إلى العملة قائلًا:

"لو أعطيتك خيارين. الأول؛ لو قلبت تلك العملة في الهواء وصارت وجهًا.. سأعطيك عشرة آلاف وإن لم تكن لن أعطيك شيئًا. الخيار الثاني؛ أعطيك ألفًا دون أية ألعاب.. ماذا تختار؟".

"أنت تعرف".

"نعم.. ستختار اللعب.. ولكن لنعتبر أنـك مفلس تمامًا ولا تملك ثمن وجبة عشـاء فهل ستختار اللعب أم ستختار الألف التي أكثر أمانا؟ أعلم أنك ستختار اللعب أيضًا ولكن أكثر الناس سيتجنب الخطر ويأخذ الألـف والآن ودون تردد.. البشر يقضون حياتهم في محاولات مسـتميتة لتجنب الغموض بأي ثمن".

يصمت قليلًا ثم يتابع:

"أنت غير مرتبط بشيء. إنه قانون الضد".

"ما هو قانون الضد؟".

"إذا أمسكت بأنفاسك داخلك ولا تريد إخراجها ستموت. إذا أردت أن تعلو سطح الماء ستغوص ولكن إن قررت أن تترك جسدك للماء

سيطفو بك. إن تعجلت سيظل الهدف بعيدًا ولن تصيب وإن انتظرت سيقترب أكثر".

يصمت مجددًا ويطول تأمله لي قبل أن يقول:

"تقول الحكمة القديمة إن من يخاف على نفسه أكثر يموت أولًا.. أنت غير مرتبط بشيء لتخاف عليه".

"ولكني مرتبط بأشياء.. الدكتور.. ساتومي.. دبي".

يأخذ نفسًا من البايب ويحول نظره بعيدًا ثم يقول:

"كل هؤلاء هم رفاق الخطر.. ليس لك فيهم أي شيء إن انتهى الجنون".

27

تطالعني بطرف عينها وتصمت. لا شيء يخرج منها وهي تمتص العالم على مهل ودون أن يهتز لها طرف. ساق على ساق وذيل الثوب الأزرق يفترش المسافة بيننا. كلما تحدثت، تقيسني كمن يحسب كم خيط في طرف الضوء المتدلي من النافذة. يحدث أن تميل بوجنتها على كف يدها وتتنفس ببطء شديد أكاد أشعر بوقعه دون أن أعرف السبب. يمر الوقت وكأنه قد أوصد شراعاته وأسدل عليها ستائر الغياب.

من نحن؟ أنا وساتومي هنا على طرف مقهى في لندن بعد منتصف الليل بقليل ولا أعرف ماذا نفعل، ولا ماذا نقول! لا تمر هواجسي القوية من أي طريق. لقد تلاشت تمامًا، ولأول مرة لا أستطيع أن أفعل ما كنت أجيده دومًا. لا أستطيع أن أبادرها بشيء. لو صدقت نفسي في تلك اللحظة،

لأيقنت بأن ساتومي تفتش عن شيء ما أبعد بكثير مما قد يخطر ببالي.

ساتومي الحاصلة على ماجستير إدارة الأعمال من هارفارد هي الابنة الوحيدة لملياردير ياباني مات قبل بضع سنوات منتحرًا في غرفة بأحد منتجعات لوس أنجليس. يقولون إنها كانت ابنة غير شرعية من أم أمريكية لم يعترف بها أبوها حتى بلغت الثامنة عشر من عمرها. لا أحد يعرف أين نشأت، وكيف اعترف بها أبوها! كل ما يحكى لم يكن ليفسر الكثير عنها. في وول ستريت يحكون عن إجادتها الاستحواذ على الشركات الخاسرة بأقل ثمن ثم تحويلها لشركات ناجحة وبيعها. في لندن يقولون إنها استحوذت على سلسلة من أفخم بيوت الأزياء الأوروبية وقامت ببيعها سرًا لأمير عربي بعد أن جنت أرباحًا طائلة. يعتقد البعض أن سبب غموضها هو نشأتها المعقدة وانتحار أبيها. يسمونها في أوساط الأعمال بنيويورك ولندن بلقب "جولدين جيشا" ويحسب الجميع حساباته جيدًا قبل أن يقترب منها.

كل من قابلني في حياتي بهذا العالم كان يسألني عن ساتومي ويحاول أن يستفسر مني عن حقيقتها إلا شخص واحد. الدكتور لم يسألني قط عن ساتومي. لم يكن يقيم لها وزنًا قط ويشير إليها دائمًا بمصطلح "اليابانية".

يخلو المقهى من الرواد ويخلو رأسي من الكلمات. لا تحرك عينيها بعيدًا عني ولا تتركني أفلت من وراء أسوار الزمن الذي أوصدته عليَّ. ترفع حاجبًا وتمرر أصابعها في دروب شعرها الأسود الطويل وتسألني:

"ماذا ستفعل لو عرفت أني موقنة بأنك صفقة فادحة بالنسبة لي؟".

فكرتُ قليلًا وأنا أستعيد بذاكرتي ما قاله لي مايو عن ساتومي وبحر الأشجار الذي لن أخرج منه، قبل أن أقول:

"وماذا عني؟ هل لدي فرص للنجاة؟".

ابتسمت ساتومي أحلى ابتسامة رأيتها على وجهها ولمعت عيناها قبل أن تقول:

"هل تأتي معي لمكان أريدك أن تراه؟".

وهكـذا وصلنـا إلى مدينة كيوتو في صباح ضربـت فيه عاصفة ثلجية الطرقات. على باب البيت الياباني القديم، تقف مرتدية ثوب من الكيمونو ذي وردات زهرية وعقصت شعرها بمشبك من الخشب المنقوش. تتطلع نحو طرقات البلدة بينما أنا جالس في صمت، أستند بظهري إلى عمود من الخشب وتدمع عيني من شدة البرودة. ما الذي تريده مني ساتومي؟ لماذا أتت بي من لندن إلى حي "جيون" القديم في كيوتو؟ يطول الصمت وتنهمر الثلوج أكثر بينما تضوي المصابيح بخجل من نوافذ الأزقة والحوانيت.

"ماريسـا كانت طالبة أمريكية ساذجة لم تتجاوز الواحد والعشرين، أغرمت بشاب انتقل ليعمل مع الجيش الأمريكي في اليابان، تبعته مدفوعة بأحلام وردية ولكن... الحقيقة تكون أغرب من الأحلام أحيانًا. ذات ليلة وفي حانة بطوكيو، قابلت رجلًا غامضًا جعلها تنسـى الرجل الذي أحبته وأتت من بلدها لتبحث عنه. بعد أسابيع وعندما عادت لبلدها اكتشفت أنها حامل من الرجل الغريب. ليلة عابرة خلفت بعدها سنوات من الحكايات. مـن غصن واحد قد ينبت الدغـل الكثيف الذي سـيبتلع الأفق. عادت ماريسا ثانية لتفتش عن الرجل الذي قابلها في الحانة وعندما واجهته بالأمر

أنكـر.. فعلت مثلما فعل وأنكرت هي الأخرى الطفل. وضعته ورحلت من حيث أتت.. هنا على تلك العتبة الخشبية التي تقف عليها تركتني أمي أمام بيت عائلة أبي ومضت. الجدة والجد ماتا بعد سـنوات قليلة وتركاني للعمة الفقيرة التي لم يكن لديها أبناء.

كان لدي ثوبان فقط.. ثوب في الشتاء وآخر في الصيف. أدور أنا وعمتي بعربة الكستناء نبيعها للسائحين الذين يزورون المدينة. كنا بالكاد نجمع ثمن وجبة من الأرز والحسـاء. في يوم ما وأنا في الرابعة عشر من عمري توقفت عمتـي أمام بائع الصحف ولم تتحرك.. كانت تتطلع نحو صورة رجل عـلى غلاف مجلة.. العنوان فوق يقول إنه صـار إمبراطورًا صناعيًّا شهيرًا.. سـبَّت عمتي الرجل الذي على الغلاف وبصقت عليه.. عرفت لاحقًا أن هذا هو أخوها.. أبي.. الرجل الذي أنجب من سائحة أمريكية فتاة وتركها ليربيها أهله الفقراء.. هذا الثري لم يعر أخته الفقيره يومًا زيارة ولم يرد على خطاباتها ولم يرسل لابنته ينًّا واحدًا طيلة أربع عشرة سنة. بعد شهور قليلة ماتت العمة بالسل. أغلقت هذا الباب وغطيت كل شيء كما ترى ما زال على حاله من يومها.. أما أنا فقد ذهبت إلى أوكيجهارا".

أتخيل ضباب الغابة الكثيفة وأرى أمامي ساتومي تسير بخطوات مرتعشة وسط المجهول. أوكيجهارا المشهورة باسم بحر الأشجار، هي الغابة التي يقصدها هؤلاء الباحثون عن شفير الحياة والموت. إنها نهاية الرحلة.

"حراس الغابة وجدوا فتاة على شفا الموت جوعًا.. كتب صحفي ما تقرير جمع فيه بعض الروايات من سـكان الحي الذي سكنا فيه.. التقرير حمل عنوانًا سـاخنًا عن ابنة ملياردير شهير تحاول الانتحار وروايات عن

الفقـر المدقع الذي عاشـته الابنة مع عمتها التي ماتـت قبل بضعة أيام.. ذاعت القصة وصارت حديث اليابان كلها.. قصة الملياردير قاسي القلب الذي لم يحن قلبه يومًا على أسرته.. حاول أبي غسـل سـمعته بكل الطرق ولكـن تلك القصة ظلت تطارده طيلة حياته.. لم ينج منها وأودت به بعد عدة سنوات.. ظل يهذي في شهوره الأخيرة ثم انتحر".

لقد نجت ساتومي من بحر الأشجار لتصبح هي بحر أشجار لا نجاة منه. لقد صدق مايو.

في مطعم قديم نتربع على الأرضية ونشرب الماتشا على مهل. تقول أخيرًا بصوت خفيض:

"أنت لا تأبه بشيء على الإطلاق وبالرغم من ذلك تتطلع دومًا نحوي وكأنك تخشى شيئًا ما".

هي محقه فماذا سأقول؟ ربما أسأل عن شيء آخر:

"ساتومي لماذا أتيت بي إلى هنا؟".

"لأني سأعطيك كل شيء".

لا أفهم شـيئًا من اليابانية ولكن مايو يزورني من وراء ضباب الأفكار ويذكرني، لن تخرج من بحر الأشجار. لماذا لن أنجو؟ لحظة واحدة، كيف عرفت أني لا آبه بشيء؟ كيف يعرفني مايو منذ اللحظة الأولى؟

يمضي القطار بنا عائدًا إلى طوكيو قاطعًا الطريق بين الجبال والمنحدرات المغطاة بالجليد. ساتومي التي يخاف منها الجميع كانت تنام على كتفي، بحر الأشجار قد غاب فيَّ وغبت فيه.

28

في دبي وعلى الطاولة الزجاجية تعاودني ذكريات من كل مكان في رأسي.

"الدبابة كانت على بعد أمتار ونحن في قلب الحفرة الرملية. صرير العجلات يعلو مقتربًا، يدوي ويدوي! كنا ثلاثة ولم يتبق لنا سوى ثوان قبل أن تفرمنا أطنان من الصلب. يهتف الاثنان فيَّ ويصرخان، اضرب! أكاد لا أسمعهما ولا أرى الذعر في عيونهما. لم يكن في رأسي أي شيء على الإطلاق. كل ما كنت أراه في تلك اللحظة هو شيء واحد، صقر كان في السماء!".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

أسأل سـؤالي بعد أن استثارتني القصة لأبعد الحدود. طفل لم يتجاوز السـابعة، يسـتمع لأبيه وهو يروي له حكاياته عن الحـرب. بكل هدوء يهمس:

"أقـف عندمـا تصـير أمامـي مباشرة وأضربهـا في نقطـة المفصل".

لقـد ضربها على بعد خطـوات في نقطة المفصل ما بين البرج وجسـد الدبابـة. إنها نقطة الضعف التي تودي بالدبابة العتيدة أمام ضربة قصيرة المدى. لقد انتظر ليطل في عيني الوحش عن قرب. أشعر بالإثارة وأبتسم، ليس لأنه أصـاب الدبابة في مقتل ولكن لأنه رأى الصقر المحلق في تلك اللحظة، هذا ما أعجبني!

بعد كل تلك السنوات أتذكر هذا الرجل وأفكر فيه. لقد أورثني هذا المدى الفسيح الذي يبتلع أمواج الخوف ولا يتزحزح. لقد أورثني الصقر المحلق في السماء!

24 سـاعة فقط، هكذا قال الرجل الذي راسـلني. ليس هناك شـك لدي بأن كاميليا هي التي فعلتها. تمر في مخيلتي عيناها القويتان وابتسامتها الطويلـة التي لا تتركني في حالي. سـتقول لي الآن "الـكل يريد أن يعرف الآن ما تعرفه".

جالس القرفصاء فوق الطاولة الزجاجية الكبيرة وأضواء دبي في الليل تعرف كيف تشتتني عما لا أريد أن أعترف به، سحرها يريد أن يأخذني بعيدًا عما قد بدأ بالفعل. الصقر بدأ التحليق!

لم أعد آبه بمرور ساعات المهلة وما وراءها، لقد حان موعد الصقر.

29

عندما عدت من رحلتي مع ساتومي، سألني الدكتور عما حدث ولم أعرف بماذا أجيبه. أطل وجه ألبرت الكئيب علينا في المساء. فردة حذاء هذا أم وجه؟ يسكب علينا امتعاضه كالعادة وينتظر طويلًا ليعلن عن موافقة ساتومي لتفعيل صفقة "مايرز" وعمليات "تشاك باك" مع تمويل مفتوح دون شروط. لماذا ألقت بنا أولًا في وضع بائس نقتات فيه على بعض فتات صفقاتها لتسديد ديوننا ثم فجأة تفتح كل الأبواب؟ ساتومي ترتب لكل شيء. تلعب الشطرنج ولا تحرك القطع إلا عندما يحين وقتها. ترسم إستراتيجية معقدة لا يفهمها أحد سواها. إنها ساتومي ولا أحد غيرها يستطيع أن يفعل هذا.

نغادر الشقة المزرية في ضاحية لندن بلا حقائب متجهين إلى مطار هيثرو. يبصق الدكتور بصقة كبيرة وهو يغادر الجوازات قبل أن يهتف:

"عدني أن نعود يومًا ما لنقطع خصيتي جايمس".

فكرت للحظة ولكن شيئًا ما باغتني على حين غرة وجعلني أتجمد في مكاني.

ظل الدكتور يتطلع نحوي منتظرًا إجابة ولكني لم أنطق بشيء. أشرت نحو مقاعد انتظار المسافرين في آخر الممر. نظر الدكتور خلفه ثم رمح كالغزال إلى حيث أشرت.

يا إلهي! ما أعجب هذا العجوز! عندما سينفجر العالم يوما ما سيكون هو جالسًا هكذا غير آبه بشيء، يضع قدمًا على قدم وقبعته تميل للأمام لتحجب وجهه. ها هو في انتظارنا في نفس المكان الذي افترقنا عنده قبل بضعة أشهر. يقف وينحني بأدب كعادته. يباغتني إحساس لم أعتده كثيرًا في حياتي، لم أعتد أن أفتقد أحدًا ما ولكني افتقدت مايو.

نمضي نحو بوابة الطائرة. ها قد عدنا نحن الثلاثة. نفترق ونتلاقى في أغرب الأماكن والأزمان.

طيلة الرحلة من لندن إلى إسطنبول، عاد الدكتور ومايو ليمارسا هوايتهما الغريبة في تبادل أحاديث غريبة وغير مفهومة.

- وحيد القرن كان يمشي ومعه حلوى القطن.
- لا لا.. فيل على زجاجة.
- هل هذا هو؟
- خو كت عند البامبو الحزين.
- حساء التوم يام إذًا.

- ساعتها لا تفكر.
- ما العلامة؟
- عندما يغادر المجنون المدينة.

رنت آخر جملة في أذني بقوة. حديثها المفكك فجأة أصابني بصدمة لا أعرف ما هي. ترن الجملة في رأسي مرارًا ومرارًا:

عندما يغادر المجنون المدينة

عندما يغادر المجنون المدينة.

***

يحدث أن تتوقف الحركة وتنقلب الطرقات وتدور السحب لتمر من بين الأقدام ولا أعرف تفسيرًا لما يحدث. يقول مايو إني أقوم بتفكيك العالم وتركيبه وفقًا لأفكاري. يقول مايو إني لا آبه بالسياق الطبيعي للأشياء وبأني دومًا أريد تغييره.

أطل على كل ما حدث وأتذكر ضحكة كاميليا عندما رنت في أرجاء المكان. كانت تجلس على الشرفة وساقاها الطويلتان تتحركان في الهواء وكأنها على أرجوحة. شمس الصباح تنير وجهها وشعرها الطويل، بينما أنا على مقعدي أحتسي القهوة وأفكر فيما قالته للتو.

"لقد خبأت المال لمن سرقوا بلادك بحيث لا يصل إليه أحد ولا حتى أنت؟!... ههههههه.. حقًّا؟!".

"نعم، لقد قمت بهذا منذ العام 2011 وحتى الآن. ماسكو وساركيس كانت تحول تلك الأموال من سويسرا إلى جزر العذراء وكايمان ثم من شركات في هونج كونج ولوكسمبرج تم محو أثرها".

"كم سرقوا منكم؟".

"ما مر من خلالي من أموال السياسيين يتجاوز عشرة مليارات دولار".

"خطأ".

أتطلع نحوها مستفهمًا فتتابع:

"لقد سرقوا مصائر بشر وأعمارهم".

اللعنة، كاميليا محقة، تصفعني بالحقيقة مجددًا ثم تبتسم، تشدني من ذراعي وتربط لي أزرار القميص وهي تطل في عيني.

"سأظل أحبك".

لا أعلق، أمضي وبدلًا من أعود على العشاء، أركب الطائرة المغادرة إلى دبي. أتركها هناك في نيويورك تنتظرني وأفر بجلدي من كل ما تفعله بي. أريد أن أصل إلى أبعد مسافة تفصلني عن كاميليا، أريد أن يتوقف رنين ضحكتها في رأسي ولا أستطيع. بعد ثلاثة أيام أفتش عن مقالها الجديد على موقع الأخبار. أقرأه عدة مرات حتى أحفظه. لقد كانت تتحدث عني، تصفني بالرجل الوسيم الغامض وتتحدث عن حكاياتي التي أقصها عليها.

كلما حكى لي عن شيء أكتشف أن هذا العالم الذي نعيش فيه مليء بالخداع. يقوم الرجل الوسيم الغامض بسرد القصة الغريبة على مسامعي وهو يدخن سيجارته في المقهى الإيطالي القديم بالجادة الحادية عشر.

يقول إنه في العام 2010 قابل مليارديرًا فرنسيًا إسرائيليًا يحمل عقدًا لحق امتلاك مساحة شاسعة في دولة غينيا التي تعد إحدى أفقر

الدول في العالم. الرجل استغل علاقته بالرئيس وزوجته وحصل على حق التنقيب في نطاق جبل تتجاوز مساحته آلاف الهيكتارات. العقد لم يتجاوز بضعة ملايين. زوجة الرئيس حصلت على حصة كبيرة منها. ماذا فعل الفرنسي بتلك الأراضي الشاسعة؟ لا شيء، لقد انتظر عدة سنوات قبل أن يبيع 51 % من حق الانتفاع لشركة تنقيب برازيلية مقابل مليارين ونصف. حسب التقديرات تلك المنطقة تحتوى على خام يشكل في قيمته ضعف الناتج المحلي لتلك الدولة التي يعاني غالبية سكانها من فقر مدقع. لكن معظم الأرباح لا تعود إليهم، بل تذهب إلى المتنفعين. مئات الملايين سنويًّا تخرج من أودية وجبال الدول الأفريقية ولا تعود.

أين تذهب تلك الأموال؟ يقول الرجل الغامض إنها تتبخر. تعبر المحيط لتمر عبر حسابات بنكية مختلفة ومنها إلى حساب شركات أوف شور تحت أسماء متعددة وفي النهاية تتبخر بلا أثر مثلما يتبخر الرجل الغامض ويتركني هنا وحدي.

أقوم بتفكيك حكاياتي مع كاميليا وأتوقف أمام النهاية. أعرف أنها ستقضي عليَّ وأتذكر كلمات أغنية حزينة::

"حبيبي.. هل عدت؟ لتقضي علي!".

الأغنية تبدأ بسؤال تقليدي وكأنها في انتظار عودة حبيبها للبيت ثم تفاجئك بعدها بما سيحدث وكأنه مصير محتوم وبديهي. أرى نهايتي على يد كاميليا وأعلم أن كل ما أقصه عليها يقربها من الرجل الذي لا يعرفه أحد. الرجل الذي غاب وراء المجنون طيلة تلك السنوات.

أعود إلى مانهاتن بينما كان خريف نيويورك يجوب الطرقات بلا هوادة. خريف بارد ومحمل بأوراق الأشجار القرمزية الوحيدة. أجلس في غرفة كاميليا ليلًا، أطالع الصور التي التقطتها لي وعلقتها على الحائط. الساعة تقترب من العاشرة وقد حان موعد عودتها من العمل. صوت وقع خطوتها يقترب من الباب.

"حبيبي هل عدت؟ لتقضي علي!".

30

المدينـة هي دبي ونحـن كما نحن، نعود في كل مرة مختلفين تمامًا عما كنا عليه. ودعنا مايو في إسطنبول ومضى إلى وجهة غير معلومة ودون تذكرة مرور.

طائرتنا المحلقة تقطع صحراء الجزيرة العربية واللون الأصفر المفروش يعيدنا إلى ما كنا عليه. إنه ربيع العام 2006 والبرج الكبير بدأ يلوح في الأفق هناك على شاطئ الخليج. الدكتور كان سعيدًا بالعودة وكأنه قد عاد إلى حيث ينتمي، قرد انفك من الحبس، يقفز من فوق كرسيه عندما تلوح دبي من نافذة الطائرة.

هذه المرة دبي تبدو أكثر قربًا وبريقًا من أي وقت مضى، دبي هي الآن مركز الأرض بالنسبة لنا. يا هلا بكم، تعالوا إلى محور الجاذبية ونقطة التقاء

الشرق بالغرب، سوق الأحلام المركزي المفتوح للجميع، أسطورة المستقبل المزروعة وسط رمال الصحراء والشمس الملتهبة. تعالوا ولا تخافوا من حرارة الصحراء، فلقد وضعنا لكم مبردات هواء في كل مكان، رصعنا المولات بكل معجزات العولمة، ورفعنا سقف الأحلام بأبراج تنطح السحاب، وحتى السماء ستسقط أمطارًا صناعية عما قريب. نحن السوق الحرة المفتوحة لرأسمالية ما بعد الحداثة حيث كل شيء أحدث وأطول وأضخم وأكبر.

بزتان تقفان على باب المركز المالي للمدينة. يتقدم الأول وهو يشير بيده مرحبًا:

"تفضل معاليك..".

"لا يمكن.. أنت في المقدمة".

ينطلق المصعد نحو الطابق المفضل لنا، الطابق الخامس عشر. تشير اللوحة إلى مكتب شركة "مايرز المحدودة" وهي فرع لمؤسسة "مايرز فاينتشال" ومقرها الرئيسي هو لندن. الإخوة العرب هنا يهرولون خلف الأسماء الأوروبية الفخمة ويثقون بها ثقة عمياء خصوصًا تلك القادمة من عاصمة الضباب. كل ما عليك هو أن تنتقي اسما أوروبيًّا فخيمًا وقديمًا ومعتقًا مثل زجاجة النبيذ الفاخر.

مايرز للاستشارات المالية لم يكن بالطبع اسمًا من بنات أفكارنا ولم يكن اسمًا مختلقًا، لقد كانت بالفعل شركة مرموقة تمتلكها ساتومي. بعد اتفاقي معها في لندن على تسهيل عمليات مكتبنا في كايمان، طلبت منها الحصول على اسم مايرز وقبلت بالأمر. نقلت ساتومي لنا الملكية

بينما أبقت على عقار الشركة في لندن تحت ملكيتها مقابل إيجار سنوي يبلغ خمسة جنيهات إسترلينية. العلامة التجارية المرموقة ذات التاريخ الطويل والموظفون الحاليون لمايرز صاروا ملكنا. نعم، هكذا كان الاتفاق السري.

نحن في قلب مركز دبي المالي، قبلة المستثمرين وملعب الأحداث وأحد محركات الدفع لصاروخ دبي المنطلق في سماء المنطقة. الدكتور وأنا في بزات إيطالية مرموقة وفريق من التنفيذيين الأوروبيين ذوي العيون الزرقاء والياقات البيضاء في انتظاركم بمقرنا الجديد. إن الأمر يشــبه المشهد الذي يهبط فيه جميس بوند بالبارشـوت ثـم يعدل رابطة عنقه بكل ثقـة، لقد هبطنا على السـوق بعلامة تجارية عريقة عمرها أكثر من سـتة وسبعين عامًا، تاريخ طويل في الاستشارات المالية ومركزات عبق الفخامة البريطانية يقع تحت تلك العلامة التي نقلت ملكيتها لنا سرًّا. لدينا مجلس إدارة في لندن يضم أساتذة اقتصاد في جامعة أوكسفورد، يرتدون البابيون وسترات الصوف الأيرلندى من متاجر هارودز وشهيتهم مفتوحة للتنظير حول أهم الأسس الاقتصاديـة بمعدل موضوع لكل شـهر أو عام وأنـت وحظك، لو مت بين أيديهم من الملل والرتابة سيضعون الباقي في سبع مجلدات ويمنحونه للورثة. الشركة التي أسسها اللورد ديفيد مايرز وتوالت على إدارتها ثلاثة أجيال من العائلة الشـهيرة في عالم الاستشارات المالية، واكتسبت سمعة مرموقة طيلة عقود، في الحقيقة لم تكن تساوي شيئًا، مايرز فاترينة منحتنا إياها ساتومي.

قبل بضع سنوات الشركة البريطانية تدهورت أحوالها وأصبحت شبه مفلسة، اشترتها ساتومي في صفقة غير معلنة وأبقت على كل شيء فيها كما هو، من أول العلامة التجارية وحتى مجلس الإدارة الذي تحول إلى لجنة شكلية ليظل الأمر كما هو، ويظل الاسم في السوق. مايرز المالية كانت تشبه خبيرًا عمره سبعين عامًا يتحدث اللكنة البريطانية ويمتلك سيرة ذاتية لا غبار عليها، هذا الخبير يقف في قلب مركز دبي مالي مقدمًا خدماته. مرحبًا بكم في مايرز للاستشارات، ستقودك سوزانا - التي صارت تعمل لدينا - بكنزتها الضيقة وتنورتها القصيرة التي تبرز بياض ساقيها، إلى مكتب الاستقبال المصمم على الطراز الإنجليزي الفخم ومنه ستعبر نحو ردهة تحوي لوحات اللورد المؤسس للشركة وبعض اللوحات المقلدة بحرفية لمناظر من الريف الأوروبي ترجع لعصر النهضة. سينفتح الباب الكبير على غرفة كبيرة تحوي مكتبًا فخمًا مستوردًا من بلجيكا وسجادة فاخرة من أصفهان ومجلدات من الكتب القديمة ذات الأغلفة الفخمة حشوها صفحات فارغة وكتب طبخ. يمكنك الآن الجلوس والاسترخاء بينما تتحدث عن ثروتك فأنت في أيدٍ أمينة.

ما الذي كانت تفعله مايرز حقيقةً؟ لم يكن يأتي أحد إلى مايرز ليتحدث عن الاستثمارات، لم يكن حتى المستثمرين يأتون بأنفسهم إلينا، مايرز لم تصمم لهذا الغرض، مايرز صممت ليزورنا سمسارة السوق ومدراء محافظ الاستثمار التقليدية العاملين في سوق دبي، مايرز لم تكن سوى فاترينة عرض فخمة وأنيقة للمارين، أما زبائننا الحقيقيون فكانوا لا يعرفون أي شيء عنا،

لقد بقيت مايرز وراء الستار طيلة تلك السنوات، شركة إنجليزية مسجلة في سوق المال مثل المئات من الشركات الأخرى ولا غبار عليها.

***

أتطلع نحو ساعتي السويسرية ماركة "أوديمارس باجيت". تشير إلى منتصف الليل تقريبًا بتوقيت دبي. تلك الساعة التي ربما يتجاوز ثمنها الستمائة ألف فرنك كانت هدية حصلت عليها قبل أعوام من مصرفيين سويسريين كعربون تعاون. أتطلع نحو أفق المدينة وأعود بالذكريات.

في مساء بعيد أذكره جيدًا، في العام 2009، وقف الدكتور تحت إحدى المظلات وتطلع نحو المطر المنهمر في ساحة بور دي فور بمدينة جينيفا السويسرية. كنا قد أنهينا اتفاقًا استغرق ثلاثة أسابيع كاملة من المفاوضات والترتيبات مع بنك خاص سويسري يدعى "برودير فاج". أخذ الدكتور نفسًا عميقًا من سيجارته ثم قال:

"بالرغم من أننا لا نفترق وبالرغم من أننا شريكان في كل شيء.. إلا أنني صرت أخاف منك أحيانًا".

ضحكت وأنا أمسح المطر عن معطفي وأجبته:

"لا تقلق.. إذا حدث شيء سأمنحك قارب النجاة الوحيد".

"لا أظن أن هناك أي قوارب نجاة على مركبنا هذه.. انظر حولك.. نحن في جينيفا.. نحن في قلب الأحداث.. المال المخزون في تلك البنوك ليس ملكًا لشركات تجارية.. الأموال هنا سياسية حتى النخاع.. الأموال الموجودة هنا ليست فقط أموال تجار السلاح والمخدرات والشركات متعددة

الجنسيات.. الأموال الموجودة هنا فيها أمور مرتبطة بأنظمة العالم وأجهزة مخابرات وبلاوي لا تحصى ولا تُعد".

"إذًا".

"إستراتيجيتك كانت في البداية مفهومة ولكن الحظ أخذنا بعيدًا الآن.. أعرف أنني السبب منذ البداية منذ أن ورطتك في العمل معي ووقعنا في فخ تلو الآخر.. لكنك أبديت موهبة عجيبة في توظيف الكل.. الواحد تلو الآخر.. من أول كاك وماسكو وساركيس وحتى ساتومي وصفوان والآن هؤلاء السويسريين.. أنت دائمًا لديك عرض جاهز لأي وغد يمر بك صدفة على الطريق.. والأغرب حقًّا أنهم كلهم يقبلون.. لا أعرف كيف تفعل هذا؟".

"أنت تعرف كل شيء.. لا يوجد شيء أخفيه عنك".

"نعم أنا شريكك الأزلي في كل خطوة خطوناها.. منذ أن كنا نقتسم البيتزا على الأريكة في مسكن دبي.. منذ أن كنت أستعير جواربك وسيارتك وعبوة الشامبو الخاصة بك.. كل شيء فعلناه سويًّا ولذلك عليَّ أن أخبرك بأني لا أخشى حقيقة تبعات ما قد يحدث لنا يومًا ما.. ما يقلقني هو أنت.. هل ستظل تغامر هكذا طيلة الوقت؟ أنت تذهب إلى أبعد مدى.. هذا هو حافة الجنون بعينه".

"هل أنا حقًّا مجنون؟".

"لا أعـرف يا صديقـي.. ربما أنا أيضًا مجنون.. ألسـت شريكك في كل شيء؟!".

عصرت رأسي بكلا كفي ونظرت إليه مليًا وأنا أقول:

"لا.. على أحدنا أن يظل عاقلا".

تتطلع إليَّ مبتسمًا وكأنه لا يقيم وزنًا لتلك الجدية التي اعترتني وساد الصمت بيننا للحظات، أخذنا نتطلع فيها إلى المطر المنهمر قبل أن يقول:

"إنه تشاك باك.. عقار مايو الملعون هو السبب في تدمير خلايا أمخاخنا.. ربما هذا العقار يعيد ترتيب المخ بشكل خطير.. ربما على مايو أن يسقينا جرعة جديدة".

"هل تذكر عندما كنت أريد خنقك؟".

"وعندما كنا نركض في طرقات بانكوك ونصرخ".

انفجرنا في الضحك طويلًا قبل أن أقول:

"يبدو أن المطر لن يتوقف.. هل تسير معي تحت المطر؟".

"هل هذا لقاء غرامي؟ أسير معك تحت المطر؟".

"يا قاموس أوكسفورد لكل مرادفات الحماقة.. لقد بدأت أشعر بالبرد وأريد العودة".

"نحن نملك أكثر من مائة مليون دولار وتريد أن تذهب للفندق مشيا تحت الأمطار؟ ثروتنا لن تنفد إذا دفعنا 50 فرنكًا للتاكسي يا أيها الرومانسي البخيل!!".

الدكتور في تلك الليلة هو من أطلق أول تحذير، لقد حذرني من نفسي والآن بعد كل تلك السنوات، أعرف أن كل شيء فعلناه كان خطيرًا جدًا، أخطر من أن يشكل خطرًا علينا، لقد كنا خطرًا على العالم كله.

31

أوائل العام 2007، في قلب مانهاتن وفي إحدى ناطحات السحاب في شارع الوول ستريت بالطابق السابع والثلاثين، كان مكتبنا يقع بجوار مكتبها. لقد منحتنا ما قدمنا من دبي لتحقيقه. نحن في قلب الحدث. الدكتور والمجنون أتيا هنا لينالا حصتهما. مايرز تبحث عن أولى صفقاتها في قلب وول ستريت ودبي الآن قادمه لتدخل على خط المواجهة الأول.

تقدمنا فتاة الجولدن جيشا إلى عالمها الكبير. لقد منحتنا الضوء الأخضر للدخول في اللعبة. تشير نحو عتاة المصرفيين الجالسين خلف الزجاج.

"هؤلاء ليسوا اللاعبين" تقول ساتومي وهي تشير نحو الغرفة:

"هؤلاء هم من وضعوا قواعد اللعبة.. هؤلاء هم اللعبة نفسها".

تضع سيجارتها في المبسم الطويل قبل أن تحكم ربط كرافتتي الحمراء.

نحن تحت سيطرة الجولدن الجيشا. هي التي ستشتري لنا ذلك الوقت الذي لا نستطيع تحمل ثمنه. يعدل الدكتور نظارته السميكة المزيفة، يضع قميصه في بنطاله، يأخذ الطبق الذي يحوي باقي قطعة التشيز الكيك، فمه يلوك الكيك وهو يضرب بالأرقام في كل جنبات غرفة الاجتماعات. أجلس غاطسًا في كرسيَّ حتى تأتي لحظتي.

"أيها السادة.. نحن لسنا واثقين بعد.. ولكن كل الأشياء الممكنة قد تحدث".

الصمت يخيم. لا أحد يفهم ولكننا قد أوشكنا على الوصول لما نريد. ساتومي لا يطرف لها رمش وهي تطل نحو ما تريد. الجولدن جيشا لا تهتز ولا حتى تبتسم عندما تكسب. إنها تتحدى الحياة بكل ثقة. الفتاة البيضاء النحيلة التي عادت من حافة الموت وراء بحر الأشجار، تبتسم فقط عندما تخسر.

تشعل البخور في غرفتها وتركع على ركبتيها لتبدي احترامها لآلهة الشنتو. لا تؤمن بهم ولكنها تُبدي الاحترام.

***

العالم لا يُدار من أروقة البيت الأبيض ولا مقر الاتحاد الأوروبي. يو بي إس وسيتي بنك وجي بي مورجان وفانجارد ودويتشه بنك وجلودمان وإتش إس بي سي هم من يديرون قوانين الرأسمالية. هؤلاء هم من يضعون القانون ويقسمون الغنائم. البنوك الكبرى هي من تملك صندوق الأسرار. من يكسب ممن؟ وبأي نسبة توزع الأرباح؟ أين ترفرف الأموال؟ وأين ترقد آمنة بسلام؟

"ليس كل من يعرف الأشياء، يفهمها.. تتطلع أمامك لساعة ثم اقطع خطوتين فقط" هكذا يقول مايو.

أحكموا رباط العنق أيها السادة فلقد كان على المجنون والدكتور أن يعودا. علينا أن نفعلها مع العالم مثل كل مرة. تلك هي لعبتنا؛ نقنع الجميع بأن لدينا كل شيء عندما لا يكون لدينا شيء.

يقف الدكتور أمام الشارت المرسوم والعام 2007 قد بدأ يشتعل. ما هو مستور كان أكبر كارثة عرفها البنك في تاريخه الحديث. ليس فقط هذا البنك العملاق ولكن العالم كله تلوح في أفقه رايات الخطر.

الدكتور كان قد جمع معلومات خطيرة عن وضع المجموعة المالية من الداخل. التسريبات مررت مع تقارير سرية عبر وسيط دفعنا لها خمسين ألف دولار في لقاء سري بحانة في مانهاتن. الأمر كان فرصة سانحة لنا والسؤال غير المعلن بعد، من سيدفع ثمن الفاتورة؟ المراكز المالية ستنكشف والكثير من فضائح السيولة ستخرج للعلن. هناك شيء واحد فقط يحتاجونه في هذا التوقيت؛ الكاش، الكثير منه. مليارات من الدولارات. هناك عمليات يريد مدراء البنك تغطيتها حتى لا تنكشف في حالة إذا ما ترنح سوق المال.

كانوا يبحثون عن الغطاء المناسب ونحن لم نكن نملك غطاء ولا يخزنون. خطتي أنا والدكتور كانت بسيطة إلى حد الهبل. كم كنا متهورين! لقد وقفنا أمامهم وكلنا ثقة.

***

"لقد كان الأمر صدفة إذًا!".

"ليس تحديدًا.. فلنقل مغامرة".

أجيبها قبل أن أسرح متابعًا حلبة التزلج في قلب السنترال البارك. الثلج بدأ يهطل وهي ما زالت تحدق بعينيها الواسعتين وكأني شبح يصعب رؤيته في هذا العالم.

"كيف حدث هذا؟".

"عندما ذهبنا إلى دبي في العام 2006 وبعد شهرين فقط من تأسيس مايرز.. أتى إلينا هارون.. لقد كان يعلم بحكم علاقاته الواسعة بديوان الحكم في إمارة خليجية أن تطلعاتهم الكبيرة تبحث عن صيد ثمين. هناك نية لنقل مدخرات بالمليارات من حسابات سويسرية إلى أصول استثمارية طموحة. الاقتراحات كانت مفتوحة والبحث جار عبر وسطاء لاختيار أصول ذات قيمة استثنائية. تطلعات الإمارة كانت عالية ولا تتناسب مع العروض التي وصلتهم. الكل عرض عليهم أذونات خزانة وعقارات شهيرة وحصصًا في شركات عملاقة ولكنهم لم يكونوا مهتمين بها وصلهم. الإمارة كانت لا تبحث عن استثمار مربح. ليس لديهم أكثر من المال ويتطلعون إلى ما هو أكثر بكثير. لم يفهم أحد ماذا يريدون إلا شخص واحد.. العميل هارون".

عندما أصمت تضع قطعتي سكر في قهوتي وتحدق في الفنجان. أنا أذوب وكاميليا لا تفعل شيئًا سوى هز إحدى قدميها ببطء. تقل الحركة في طرقات نيويورك التي غطتها الثلوج ونحن لم نغادر طاولتنا بالمقهى الصغير منذ خمس ساعات. كيف كنت أنا وكاميليا نستمتع بأبسط الأماكن وأقل التعبيرات؟ نسير في الطرقات بلا أي اتجاه ونجلس على قارعة الأرصفة

ونأكل من أي عربة طعام. المقهى يغلق ونلجأ إلى آخر وما زالت تفتش عن تكملة لقصتي.

"العميل هارون.. كان يفهم ما يتطلعون إليه ولكنه لم يعرف أين يجده. أيقن بحس صياد الفرص أنه ربما عليه توسعة دائرة الفرص والبحث بطرق غير تقليدية عند أشخاص مجانين. عندما أتاني وعرض الأمر واتتني الفكرة.. أخذنا نحسب حساباتنا أنا والدكتور ثم أيقنا أن علينا الذهاب إلى قلب وول ستريت والغوص في المياه العميقة.

الخطوة الأولى هي تحريك الجولدن جيشا لترتيب لقاء مع الرئيس التنفيذي للمجموعة المالية. الخطوة الثانية شراء تقارير من قلب البنك نستطيع من خلالها كشف نقاط ضعفهم وملاعبتهم خلال الاجتماع للحصول على أفضل عرض ممكن.. أو بمعنى أدق عرض خيالي يجري لعاب الإخوة هنا.. عرض يتيح لهم التواجد على طاولة الكبار في عالم المال.. مدراء البنك في نيويورك تطلعوا نحو عرضنا الغريب ولم يفهموه".

لم تكن كاميليا أيضًا لتفهم من أول وهلة ما قصصته عليها. رئيس إحدى أكبر المؤسسات المالية العالمية وثلاثة من المكتب التنفيذي كانوا مستعدين للإنصات حتى النهاية قبل أن يسألوا بصوت عالٍ:

"من أنتم؟".

يهمس أحد الجالسين:

"هذا المجنون من دبي والآخر هو الدكتور".

***

نجلس نحن الثلاثة في الغرفة المغلقة. تتطلع ساتومي نحوي أنا والدكتور بطرف عينها. تلك النظرة التي ليست بهينة على الإطلاق. أهز رأسي نحو الدكتور ليقول ما لديه. يفتح حدقتيه كالضحية ويهتف:

"ماذا بكم؟".

"أخبرها!".

يزفر مستسلمًا:

"أوكيه.. فليكن.. هذا الأمر سيكون أصعب بكثير مما ظننا في البداية.. لقد عرضنا عليهم أن نوفر لها سيولة ضخمة في مقابل السيطرة على جزء من البنك وتمرير سياسات مالية جديدة".

ها هي ساتومي تتحول نحونا وتحدق فينا بينما قدح الماتشا بين يديها يطلق البخار في الهواء. يبدو أن اليابانية بدأت تدرك فداحة حجم الجرأة التي يبدو عليها الأمر. الاثنان الجالسان أمامها لا يمتلكان شيئًا وأتيا ليتفاوضا مع أحد أكبر بنوك العالم من أجل أشياء مستحيلة.

كان عليَّ ألا أشرح وحسب، بل أن أجعلها تقتنع بخطتنا. هذا ليس من السهل عندما نتحدث عن الجولدن جيشا. تضع ساتومي رأسها على كتفي حتى الصباح، لم تقتنع بخطتي ولكنها كانت تحب جنوني.

ساعتها كانت إستراتيجيتنا تتلخص في خلق صفقة بين طرفين نحن لا نمثل أيًا منهما.

بعد عدة جولات بدأ مدير البنك ونائبه يلمحان إلى أشياء بعينها. تولت ساتومي الأمر وعرضت عليهما أرباحًا من الصفقة. هكذا يتحرك الكبار،

عندما تكون المكاسب أكبر من أن تمر بلا طائل.

تأتي الخطوة التالية بعد عدة أشهر. يلتقم العميل هارون اللقمة ويرسل الوفد الخليجي إلى لندن ليلتقي بمدراء البنك وبحضور ساتومي التي سيصبح دورها إدارة الصفقة عبر مجموعات شركاتها الاستشارية. أما نحن فسنختفي من الصورة.

"وتمت الصفقة؟"، تسأل كاميليا بفضولها الصحفي الدائم.

"نعم وعدنا إلى دبي من جديد بعدة مكاسب ومن أهمها ثقة العميل هارون في قدراتنا والبدء في صفقات أخرى".

32

تحتسي شاي الماتشا الياباني ودون أن يهتز لها طرف تسقط مجموعة مالية رأسمالها عشرات الملايين. تفككها وتفوز بنصيب الأسد ثم تطلب تارت الكرز للتحلية. تدخل بكل ثقة وتلقي بالرهان على شيء لا ينظر نحوه أحد. تدير الطاولة كلها نحو ما تريد بينما هي تدبر صفقة أخرى غير معلنة. كل من على الطاولة مشغول بالرهان الذي سيخسر ولكنهم لم يلحظوا كيف منحت نفسها فرصة أخرى خفية على الجانب الآخر من الطاولة وقبل أن يكتشفوا الأمر تكون هي قد خلقت الفرصة التي تريدها وخرجت.

قال لي مايو إن هذا هو أول درس علمه لها:

"اخلقي لهم سوقًا ليضاربوا عليه واخسري معهم ولكن في نفس الوقت ستكونين هناك على الطرف الآخر من اللعبة.. لكن احذري..

عليك الخروج دومًا قبل أن يلحظوا أنك تلعبين الدورين".

***

تتأملني كاميليا وهي تتشكك في الأمر. تتشكك فيما وراء اليابانية وحكايتي عن مايو. أنا أفهم تلك الفتاة عندما تميل برأسها على جنب وترمقني بنظرة خاطفة، تشبه طبيبًا قرر أن يباغت مريضًا بحقنة بعد أن أصابه الهذيان. أنتظرها لتضرب ضربتها وأنا مبتسم. عندما تتشكك في روايتي وتغلبها طبيعتها الصحفية، أمنحها صمتًا وابتسامة لتصوغ السؤال عدة مرات. لا أتعجل في كشف الأشياء لها وأمارس معها لعبة أبي في حكي الحكايات. كان لا يتعجل السرد عندما تحاصره بالأسئلة، يميل برأسه للأمام ويدعك تتفاعل مع فضولك حتى يختمر. نلعب اللعبة سويًا وتخاف أن تخسر الحكاية فتحاورني بدلال أنثوي لبق وخفيف الظل:

"مايو هذا يظهر للبشر أم أنه حصري؟".

أتطلع بعيدًا ولا أرد:

"أوكيه.. سأحاول مرة أخرى.. هل يقابل صحفيين؟".

أعرف ما ترمي إليه. كاميليا تحاول أن تجرني لدليل على وجود مايو ولكنها تعرف جيدًا أن هذا الأمر لن يحدث. الأدهى أنها توقن أن الشخص الجالس أمامها الآن صامت، لا يهتم بما تصدقه وبما لا تصدقه من حكاياته. تعلم أني لم أكن أروي لأثبت لها أي شيء. أنا وهي في عالم يشبه كرة كريستال تدور، وما هو بأعلى يهبط لأسفل والعكس. عالم معلق في فضائه لا يحمل خيوطًا ولا مبررات.

الغرفة التي تقع تحت سقف من القرميد بأعلى مبنى قديم في نيويورك، تكتظ بالكتب وأسطوانات موسيقى الجاز وحائط من ذكريات طفولتها وأيام الدراسة وشاب وسيم يدعى كلارك أحبته وما زالت تحتفظ بصورهم معًا. في منتصف الحائط وضعت صورة لي بالأبيض والأسود وأنا أقف على رصيف مرفأ دبي القديم مرتديا معطفا أسود طويلا. لا أعرف متى وضعت تلك الصورة ولكني لأول مرة ألاحظها. لقد التقطتها لي خلسة قبل ثلاث سنوات.

تشير نحو الصورة وتقول:

"أتعجبك؟ لقد وضعتك في المنتصف.. المجنون يقف الآن وسط كل الأشياء".

تصمت وتغيب ثم تعود بينما أنا أقف جامدًا لا أتحرك، أتطلع نحو الجدار ولا أفهم لماذا أنا هنا الآن؟ تعاود السؤال:

"هل سأقابل صديقك الفيلسوف يومًا ما؟".

فجأة أتذكر الحديث الذي دار بين مايو والدكتور:

- ساعتها لا تفكر.

- ما العلامة؟

- عندما يغادر المجنون المدينة.

ما الذي كان يعنيه الاثنان بهذه الكلمات؟ لماذا صار يخشاني الجميع؟ ما المعرفة التي يمتلكانها وأنا أجهلها؟

أتطلع نحو كاميليا الجميلة وتتطلع هي نحوي، ويدور عالمنا في طريق

لا مفر منه. مواجهة صامتة ستنتهي يومًا ما لا محالة على وقع دوى كبير.
لقد فعلتها الصحفية النيويوركية وسلمتني لمصير لم يخطر على بالي.
لقد قررت أن تجبرني على الرحيل من المدينة. وها أنا جالس منذ ساعات إلى طاولة الاجتماعات، أحملق في المدينة وأتذكر كل الأشياء التي تحيرني وتوجعني.
كيـف كان الجميع يعرف أن على المجنون أن يغادر المدينة؟ كيف كان كلهم يعرفون إلا أنا؟

***

نجحت صفقتنا الكبرى واشترى الخليجيون حصة إستراتيجية من البنك ونصيبًا في إدارة هذا الأخطبوط المالي المتوغل في كل أركان العالم. الكل خرج رابحًا وانفتحت أبواب دبي لنا عن آخرها.
عندما حصلنا على المال الذي نريده، أصبح علينا المضي قدمًا في الخطة التي رسمناها. مهنتنا الجديدة بدأت في الخروج لأرض الواقع وأول نقلة شطرنج ستكون بخروج "تشاك باك" للنور.
راجعنا الحسابات البنكية بعد أن أتخمت برصيد ذي سبعة أصفار وقمنا بالاتصال بالرجل الآسيوي الطويل. على كاك أن يتحرك. يسألني الدكتور إن كنت متأكدًا من اسم الشركة، فأومئ بكل ثقة.
في غضون أيام تم فتح مقر لشركة "تشاك باك المحدودة" في قلب هونج كونج. الشركة المحدودة هي شركة مملوكة لشركة أخرى أسسناها في جزر كايمان وتدعى "تشاك باك القابضة" وقام باعتماد ورقها مكتب "ماسكو

وساركيس للاستشارات القانونية". تم فتح أكثر من خمسة حسابات مصرفية في كل من هونج كونج وكايهان وسنغافورة ولوكسمبورج ونيوزلندا. كل شيء مسجل تحت مدير اعتباري يدعى "جون كلارك دو". عليك أن تتذكر هذا الاسم جيدًا لأنه فيما يبدو لم يلاحظ أحد شيئًا غريبًا في هذا الاسم.

من هو "جون" إذًا؟ إنه رجل بيتزا من نيوزلندا سيصبح فيما بعد المدير الاعتباري لأكثر من 189 شركة في غضون سنوات قليلة.

كل الأوراق تم ترتيبها عبر مهاتفات ورسائل وبريد إلكتروني، مررت ما بين هونج كونج ودبي وكايهان. بعدها بشهر تقريبًا، هبط كاك على أرض كايهان لعدة أيام بصحبة المدعو "جون دو" قبل أن يسافرا سويًا إلى مدينة أوكلاند في نيوزلندا، ثم أنطلقا إلى سنغافورة ومنها إلى لوكسمبورج، وانتهيا في هونج كونج. لقد نفذ كاك المطلوب منه بسرعة وحرفية وبدا مستعدًا تمامًا للمهمات القادمة.

33

خريف العام 2009. الطائرة تحملنا من مطار زيورخ إلى دبي رأسًا بعد أن قضينا عدة أشهر في جزر كايمان نتباحث مع ماسكو وساركيس. عمليات كايمان قد وصلت لمنحنى صعب تحت ضربات الأزمة المالية العالمية. أغلب العملاء الذين حصلنا عليهم توقفت حساباتهم عند كايمان ولم تعد تتحرك. على الجانب الآخر من الكوكب كانت تشاك باك بلا عمل يذكر. كان يجب أن تستمر العمليات بأي شكل وإلا ستتوقف الإمدادات الفارة من جحيم بورصات نيويورك وطوكيو ولندن.

الطائرة البوينج العملاقة المتجهة إلى دبي لا تحمل سوى بضعة مسافرين فقط. هبطنا في المطار لنواجه مشهدًا لم نتخيله حتى في أفلام الخيال العلمي الأمريكية.

صفوف طويلة من المغادرين مكدسة في طرقات المطار وكأنهم نازحون يفرون من الفيروس القاتل. صفوف من السيارات تمتد لكيلومترات على جانبي الطريق، تركوها في طريق المطار وغادروا إلى بلادهم.

التاكسي يحملنا عبر طرقات المدينة التي بدا عليها الحزن والحداد. المشروعات متوقفة، ناطحات السحاب متعطلة عن الصعود، الرافعات العملاقة التي كانت لا تكف عن العمل ليل نهار تلوح كخيالات المآتة. المدينة ضربها الطوفان العالمي لأزمة الرهن العقاري. بنوك عالمية أفلست ومشروعات بالبلايين قد ألغيت والشركات العالمية سرحت نصف الوافدين. الشركات الصغيرة في دبي أغلقت مكاتبها ورحل أصحابها. أصدقاء كثيرون أرقامهم لم تعد متاحة. سوق الذهب وشارع نايف شبه خاويين، البارات التي لم يكن بها مقعد، صارت تشبه ساحات بلا مارة.

لقد تغيرت قواعد اللعبة الآن وتبخرت الأموال التي كنت تمرر إلى مكتب مايرز الأنيق. لقد تبخر أصدقاؤنا في دبي. الملاعين تلاشوا مثل الفئران المذعورة في غرفة انفتح بابها فجأة على رجل يدور في أكوام القمامة. أولهم كان أبو وليد الذي أتى بقدميه إلى مكتب مايرز عشية ليلة مشئومة مثل وجهه المزيف.

***

"حقًّا!!!".

قالها الدكتور وهو لا يصدق أذنيه. يجلس إلى جواري في حانة "القرية

الأيرلندية" ويتطلع نحوي وكأني مجنون. أشار للنادل فناوله كأسًا أخرى، تجرعها مرة واحدة حتى احمر وجهه وصار يشبه صوص الباستا.

"أعد ما قلته ثانية!".

طفقت أشرح له من جديد ما سنقدم على فعله وهو فاغر فاه وكأنه نفق الشندغة، يهز رأسه بلا توقف غير مصدق. يعود ليقول مجددًا:

"أعد ما قلته".

"كف عن الغباء.. هذه خامس مرة أشرح لك فيها".

"يا مجنون!! انظر حولك.. حتى تلك الحانة التي كانت تعج بهم صارت شبه خاوية.. الكل فر من هنا.. الوضع سيئ... ما تقوله هو ببساطة أن نرمي تلك الأموال في الهواء.. لن يوافق أحد على ما تقوله".

"ليس صحيحًا.. نحن نشتري في الوقت المناسب.. الكل الآن يبيع بأبخس الأسعار ونحن سنشتري".

"فلنعتبر أنك مأفون وستنفق كل ما لدينا.. ولكن من سيمنحك أمواله؟".

"ساتومي ستأتي بكل ما في جعبتها".

"لا أفهم!".

"ساتومي ستمنحنا سيولة من محافظ استثمارية تحت يدها".

"نعم؟! لحظة واحدة.. لماذا ستمنحك اليابانية كل تلك الأموال؟ يا إلهي!!".

"ماذا؟".

"أرجو ألا يكون الأمر كما أظن!".

"ماذا تعني؟ أها.. لا لا تقلق.. لن أتزوج ساتومي إذا كان هذا ما تظنه".

"أووه.. جيد.. كنت قد بدأت أقلق.. هذه اليابانية ليس لها أمان.. ولكن الأمر فيه مخاطرة كبيرة جدًا.. كم حجم الاستثمارات التي سنقوم بها في دبي؟ بضعة ملايين؟".

"مئات الملايين.. ماسكو وساركيس سيرتبان كل الأوراق المناسبة وستمر عبر كايمان".

"أووه.. مئات الملايين؟! لا لا.. سأغلق أذني!".

"ليس الآن من فضلك يا أيرلندي.. أريدك أن تفكر قليلًا في الأمر".

"نعم.. سأفكر قليلًا.. ها أنا أفكر قليلًا.. عليك أن تعرف أن الاقتصاد العالمي معقد أكثر من أن يفهمه حتى أنبغ الاقتصاديين.. قد تستطيع أن تتوقع الخطوة التالية ولكن ليس هناك ضمانات لهذا.. قد يواصل الاقتصاد العالمي السقوط أو قد تظهر بالونات جديدة لتحل محل القديمة.. لا أحد يعرف.. لكن.. أحقًا ما تقوله؟ لا أحد سيأتي إلى دبي.. المدينة صارت خاوية والكل يتحدث عن ديونها الكبيرة و..".

"ولكن كل الأبواب في الغرب والشرق موصدة الآن.. تبقى دبي!".

"لماذا دبي؟".

"الأمر بسيط.. لماذا أتيت إلى دبي قبل سنوات؟".

"لا أعلم.. لقد هربت من إنجلترا".

"بالضبط.. مرحبًا بك في الأرض الجديدة.. أرض الأحلام".

"ليس الآن.. دبي جزء من الأزمة نفسها!".

"لا.. قد تكون لوقت قصير جزءًا من الأزمة ولكنها لها سحرها.. تتطلع حولك نحن الآن نقف على أرض الأحلام".

أهتف جملتي الأخيرة بصوت مسموع فيتطلع نحوي النادل وبعض السكارى بدهشة. من هذا المجنون؟

يتطلع الدكتور نحو كأسه وهو يغمغم:

"لقد أفقدته هذه المدينة عقله".

أضربه على رأسه الكبير وأهتف سعيدًا.

"لا تخف".

"لا أعرف.. هل أنا خائف؟ أنا لست خائفًا.. أنا جائع".

"يا إلهي.. كرشك لا تتوقف عن التدخل في أي أحاديث.. نوبات غبائك هذه ستودي بحياتي".

"أنــت الذي طلبــت أن أفكر قليلًا وأنا عندما أفكر يذهب عقلي إلى معدتي".

أخذ يلوك أكبر قطعة من لحم الأستيك استطعنا الحصول عليها وبدأ يطلق النكات الأيرلندية الرديئة. بدا كأنه لم يكن مذعورًا قبل قليل في الحانة. بعد أن أكل وشبع طفنا بالسيارة في طرقات دبي الليلية الهادئة وبينما

أنا أواصل عرض خطتي عليه وصلني رده في صورة شخير. لقد شرب وأكل والآن يغط في النوم اللذيذ. كل ما ينقصه هو دبدوب ليحتضنه.

على شاطئ الجميرة ركنت السيارة وتركت الدكتور بها يعزف ألحانه الشجية. تطالعني أضواء الخليج في الليل وأنا أفكر ولا أفكر. لم تكن خطتي التي عرضتها على الدكتور تؤرقني، لقد كنت أتذكر ما دار بيني وبين أبو وليد الملعون.

34

أهلًا دبي،

نحن الملوك الآن، افتحي ذراعيك على مصراعيها. نحن نمتلك كل هذا المال الذي سيدغدغ عواطفك السخية ويوقعك في غرامنا. نحن طوفان الأدرينالين المنهمر. الكل يبيع ونحن نشتري. الكل يفر ونحن قادمون بكل ما نملك.

في العام 2009 عندما طحنت الأزمة المالية المدينة، كانت الأسعار تهوي ونحن نبتاع. مايرز كانت تستحوذ على أنصبة كبيرة من الأصول الاستثمارية بأفضل التسهيلات الممكنة وبالتقسيط الممل. هنا تأتي لعبة السوق الذي أنتابه سقوط عاجل بعد صعود بسرعة مركبة فضائية في فيلم خيال علمي.

بتمويل مفتوح من صناديق استثمارات ساتومي المتخمة، لم نترك صيدًا

إلا طاردناه. مفاوضات الاستحواذ التي كانت تستغرق شهورًا طويلة من قبل، الآن تتم في بضع ساعات. استحوذنا على نصيب الأسد في ثلاث شركات عقارية كبري تمتلك ناطحات سحاب فخمة. اشترينا توكيلات تجارية، وشركات دعائية كانت على شفا الإفلاس، ومساحات مكتبية، وأسهمًا لمجموعات كبرى، ومطعمًا خمس نجوم، وحتى مجموعة من السيارات الفارهة باعها أحد الأثرياء الفارين بسعر بخس.

نعم، نحن الباهظون ونشتري كل ما اكتنزه الأثرياء طيلة السنوات السابقة من الرخاء الذي حكم المدينة. الفارين اعتبرونا مجاذيب، أما المواطنون في سـوق المال بالمدينة، فاعتبرونا ملائكة منقذين، والدكتور يعتبر الأمر كله مثـيرًا للضحك. يطل من الكوندو الفخم على دبي مارينا من أعلى قبل أن يقفز في جاكوزي تكلف تصميمه آلاف الدولارات. نحن ننتحر بحسب وصفـه! ودون عناء يذكر يشرع في الخبط على بطنه وهو يسـجل طلبات الشراء وكأنه قد التقم وجبة دسمة.

كنا نشتري بشراهة. الكل يبيع ونحن الوحيدون المخابيل. السوق كله يتحدث عنا. صيتنا كان يتردد على طاولات العشاء في حانات لندن الفخمة وأروقة وول ستريت ومنتجعات سويسرا وبورصات الخليج. يتحدث المستثمرون عن رجل معروف باسم "مجنون دبي" وشريكه الملقب بالدكتور. طوابير من المتعثرين والفارين من سوق دبي المتهاوي، اصطفوا بعروضهم. الكل يريد تسييل أمواله والخروج. إنه الفرار الكبير الذي حدث في لحظة بعد انفجار بالونة دبي الأرض الموعودة.

ساتومي التي دلتنا على الطريق ذات يوم ووقفت ترنو نحو المدى بعيونها

الغامضة، لم تتخيل كيف سنذهب بعيدًا هكذا. لم يخطر على بالها أن تشاك باك كانت ضربة جنونية انطلقت بدون مكابح. وضعت يدي على كل ما تحت يديها ووقفت تشاهد لعبتي الخطرة من ركن بعيد.

أموال تهبط على شواطئ الكاريبي كالموج الهادر هربًا من بنوك أمريكية وأوروبية تنكمش وتتداعى. أموال تفر تحت جنح الظلام وتتبخر بلا أثر. لا أحد يرى خدعة الساحر ولا أحد يصدق أن حتى بعض مصرفيي البنوك الكبار سهلوا الأمر لأنهم يعملون سرًا تحت إمرة ممولين كبار ويخدمون مصالحهم.

وفي الكاريبي كان مكتب ماسكو وساركيس يعمل ليل نهار، يخلق مستندات لكل شيء مهمتها محو آثار الملايين المتدفقه، يؤلف شركات ليس لها مقرات سوى على الأوراق، يؤسس لكيانات من اللاشيء الفخيم. أما على الطرف الآخر من العالم، فقد كان كاك يفتح فمه لتمرير الأموال عبر علاقات شراكة وأوراق مالية وسلاسل من الشركات الحقيقية والسماسرة في قلب آسيا. يحركهم عبر رشاوى وعمولات قبل أن ترسل إلى دبي مع خالص التمنيات بالرفاء والبنين. محافظ استثمارية تتحرك كالعرائس ولا أحد يرى الخيوط أو الفنان في الخلفية المتشح بالأسود.

كل هذه الأموال لن يعرف لها التاريخ مكانًا ولا زمانًا. لقد كانت تطير من مكان لمكان في لحظات ودون أن يلحظ أحد ما نقص وما زاد. اجلس أنت على مقعدك في هذا العالم وحاول بشدة أن تعرف ولكنك لن تعرف أبدًا. السبب بسيط للغاية. هذا المال يستطيع أن يشتري راحته وسريته.

إنه يمتلك حتى من يمتلكونه ويقودهم إلى حيث يريد أن يكون. الكل في تلك اللعبة ليسوا سوى عبيد له يسخرهم حيث يشاء.

***

مر عامان ودبي بدأت تستعيد مكانتها مع انفراج الأزمة وتعود لسابق عهدها. الأصول التي اشتريناها تضاعفت أسعارها وساتومي منحت بسخاء فوائد لعملائها. أما نحن فكنا قد وصلنا للقمة. المجنون كسب الرهان. كل من قامروا عليه كسبوا الرهان. ماسكو وساركيس افتتحت عدة مكاتب في جزر الكاريبي وتشاك باك توغلت في شرق العالم وافتتحت مكتبًا في شنغهاي وآخر في طوكيو.

لقد صرنا أغنياء مجددًا ومتعجرفين وباهظين للغاية.

***

أطلق لحية يشوبها الشيب وتأنق ببزة سوداء فاخرة عندما أتى إليَّ. مرحبًا باللص القذر. بضع سنوات مرت منذ أن أحكم علينا فخه. اختفى من المدينة وعاد من جديد. يبدو أن لا أحد يستطيع أن يشفى من هذه المدينة. يرسم ابتسامة ويعتد بخبث له ما يستند عليه. أين ذهبت السبعة ملايين؟ لا يهم، لقد أتى بلعبة جديدة وكبيرة.

يشعل سيجارًا ذا مبسم ويخرج مع الدخان المتقطع لمحات لمشروع مبهم ولكن الصبر قد هرب مني، ودون تردد، أقوم من على مكتبي وأجره من قفاه وألصقه بالنافذة الزجاجية ليلتاع صارخًا ومتوعدًا. لا أبالي بما يقول. أفتح النافذة ثم أنزع عنه بزته قطعة قطعة وألقي بها في الهواء لتسقط في الطريق. يصرخ ويتوعد وهو في سروال داخلي واقفًا في منتصف الغرفة

مذعورًا كطائر خائب وقع في يد صياد فقد عقله.

"ثيابك الداخلية من كليفن كلاين يا لص.. مين بيدفعلك ها المصارى؟".

"أنت مجنون!! شو عم تعمل؟".

"أيه أنا مجنون.. الكل عم يقول هيك.. الآن باحكي الدكتور منشان يجـي يقص خصيتيك.. أمنيته من زمـان أن ياخد أحد خصيتيك ويحتفظ بهـا تذكار.. خرج من السـجن عـن قريب بس ما بيهانـع يرجع وفي أيده خصيتك".

يقفز في مكانه مرتعبًا ويجري نحوي متوسلًا:

"فينا نحكي.. بترجاك".

أتطلع نحوه وأفكر قليلًا قبل أن أقرر:

"أوكيه.. بس عشر دقائق".

جلس أبو وليد يتصبب عرقًا، وبدأ يعرض ما أرسلوه من أجله. ساعتها فقط بدأت اكتشف مدينتي بشكل آخر. أبو وليد لم يأت طواعية ولكنهم أجبروه وأجبروني لاحقًا أن نقف جميعًا عند أطراف اللعبة.

دبي، شـئت أم أبيت سـتأخذ منك كل شيء قبل أن تعطيك أي شيء. كان عليَّ أن أقبل وجود الجميع على الطاولة، حتى البغضاء منهم، هذه هي شروط المدينة. أنا أفهم تلك المدينة مثلهم، فلنلعب إذًا تلك اللعبة ولكن قبلها عليهم أن يتلقوا الرسالة الأولى: المجنون في المدينة.

35

الدكتور ينام على ظهره ويتأمل الفتاة الروسية ذات القوام الجهنمي وهي تتعلق على حبال الشراع. ترى كم ستكلفنا تلك الفاتنة عما قريب؟ أتساءل وأنا أتطلع إليه بتوجس. ترسل له قبلة في الهواء وهي تتمايل بدلال فيمد زلومته بقبلة ممطوطة كالأبله. يبحر بنا القارب السويدي الفخم في مياه الخليج العربي الهادئة وتلوح دبي بأبراجها الشاهقة ومن ورائها شمس الغروب.

يخـرج صفوان من قمرة المركب مرتديًا قميصًا أرماني مفتوحًا ونظارة شمس من مارك جاكوب والابتسـامة العريضة تكشف عن دهائه الذي يحاول دائمًا أن يداريه. يرفع يده بزجاجة نبيذ فرنسي "شاتوه مارجاو" التي تباع حصريًا في مكان واحد بالعالم، متجر "لو كلوس" فرع السـوق الحرة

بمطار دبي. الزجاجة الواحدة منها تساوي مبلغًا تستطيع أن تشتري به قرية في أحد البلاد العربية.

"ستندم".

يقولها لي قبل أن يأخذ رشفة من كأسه ثم يتابع بالإنجليزية مندهشًا:

"كيف لا تشرب وأنت صديق الدكتور؟ هههه.. الدكتور هو الشخص الوحيد الذي قابلته ويستطيع أن يشرب أكثر مني.. يستطيع أن يحتسي المحيط في سهرة واحدة!".

"صفوان.. ماذا في جعبتك؟".

"لا لا لا.. اهدأ يا رجل.. عليَّ أن أشرب أولًا لأن ما هو آتٍ يحتاج لشجاعة كبيرة.. هذه المرة ليس الأمر بضع مئات من الملايين".

يشرب رشفة أخرى ويتابع:

"حساب مفتوح!".

"ماذا سيفعلون به؟".

"وماذا يهمك يا رجل؟! منذ متى ونحن نسأل لماذا ومن؟ أنا لا أهتم.. هل تهتم يا دكتور؟".

يهرش الدكتور في كرشه ويقول:

"مطلاااقًا".

"هكذا يكون الكلام.. في صحتك يا دكتور".

أخرج سيجارة وأفكر قليلًا قبل أن أقاطع حديثهما الجانبي:

"صفوان.. اسمع جيدًا.. أنا لا أهتم بأي شيء ستفعلونه.. لكن المونكي بيزنس هذا لن يمر".

يشير للفتاة لتنزل إلى القمرة ثم يخلع نظارة الشمس. يقترب مني:
"لماذا إذًا؟".

"سوق العمليات القذرة.. سمِّ ما شئت ولكن ملياراتهم هذه ستجر وراءها كل البلاوي":

"إنهم لا يحتاجون لي في هذا البيزنس.. السوق مليء بكل أنواع الوسطاء الجاهزين.. السفارات العربية في تلك البلاد لديها قوائم انتظار من السماسرة المستعدين لإتمام أية صفقة وفي أي وقت".

ها هو يكذب ويعرف أننا نعرف أنه يكذب. الكل في عالم المال يكذب لأن المال بطبعه كذاب كبير.

"في دبي مايرز تقدم فقط استشارات ولا شيء غير هذا".

"وأنا لم أقابلكما حتى ولا أعرف عنكما شيئًا".

"إذًا نحن متفقان".

"بكل تأكيد.. ما أريده هو فقط خدمة من الدكتور".

يتدخل الدكتور:

"أنا لا أعمل وحدي.. نحن نقرر كل شيء سويًا.. أنتم العرب تحبون الكلام الكثير.. إذا كنت تريد شيئًا فأعلن عنه الآن".

"هـوه هـوه! مهلًا يا رفاق.. الأمر ليس هكـذا.. أنا لا أقصد الأمر بهذا المعنـى ولكني لا أسـتطيع أن أربط الأمر بالمجنـون.. عذرًا ولكني أخشاك".

يقولها وهو يتطلع نحوي، فلا أتمالك نفسي وأنفجر ضاحكًا. يضحك

الدكتــور هو الآخر ويتطلع نحونا صفوان وقد بدا عليه التوجس ولأول مرة منذ أن عرفناه. غابت ثقته وابتسامته الدبلوماسية المعهودة. لا يفهم ما هو المضحك في الأمر ولكننا لم نستطع كبح ضحكاتنا. الأمر صار مفهومًا الآن. يهتف الدكتور:

"صفوان.. لماذا لم تقل هذا من البداية يا رجل؟ لا يجب أن تخشى الأمر".

يقول متوجسًا:

"ولكنكما لا تفهمان! أنا..".

"لا تقلق.. سندبر لك مخرجًا ولكن ليس عن طريقنا".

"هل هو موثوق؟ أنا لا أثق بالسويسريين".

يضحك الدكتور مجددًا ويتناول رشفة من النبيذ قبل أن يقول:

"هذا النبيذ باهظ الثمن بحق".

"هو هدية.. كذلك الفتاة.. إنها بطلة روسيا في الباليه الإيقاعي".

يطل صفوان نحو مياه الخليج حائرًا، تداعب الروسية الفاتنة شعرها متدللة، يحملق فيها الدكتور ببلاهة، أدخن على مهل وأكاد أجزم أن هذا العالم كله من صنع الخيال.

صديقنا صفوان، وبالرغم من عملنا سويًا في صفقات كبيرة، لم أهتم أن أعرف عنه المزيد. لم أعرف جنسيته ولم أعرف أيًا من لكناته العربية هي لكنته الأصلية ولم أعرف تفاصيل مصاهرته للأمراء. ذكي ولبق بشكل عجيب ولكن سمعته في اللهو والبذخ كانت توقعه في مشكلات جمة. يُروى

عنه أنه في ليلة استلف أجرة التاكسي ليعود للفندق بعد أن خسر مليونًا ونصف مليون دولار على طاولة الروليت في لاس فيجاس. يروى أيضًا أنه دفع ثلاثمائة ألف دولار لمغنية أمريكية سمراء شهيرة مقابل ليلة واحدة. كل هذا لم يكن يعني أي شيء على الإطلاق. أنا أعرف الجانب الآخر من صفوان. الباب السري لهذا الطويل ذي الشعر الكث والسيجار، يأخذك لأهم الأروقة في القصور الرئاسية والدواوين الملكية. صديق مقرب من صفوة العائلات المالكة ورؤساء أهم دول المنطقة ومستشار عقاري لهم، يقوم بانتقاء أفخم العقارات والقصور في لندن والريفييرا وأمريكا. ليس هذا كل شيء، صفوان يدبر لهم كل شيء وأي شيء، مجموعة ألماس نادرة، تمويل الانتخابات الأمريكية، لوحة فنية شهيرة لزوجة رئيس، فيراري نادرة اللون وسهرة أحلام في بيفرلي هيلز وفيجاس مع أشهر عارضات الأزياء لابن الشيخ المدلل. كل هذا مجرد خدمات تافهة يقوم بها صفوان ولكنه في آخر الدهليز الطويل من الفضائح، صفوان كان في الأساس سمسار سلاح.

***

نعم السلاح. التجارة الأهم في العالم والأكبر. أول شيء علمني إياه صفوان أن زبائن السلاح هم الديكتاتوريون، ولذلك يحميهم صناع السلاح ويطيلون بقاءهم.

يقف العميل هارون في قلب الشرق الأوسط كوسيط لكل شيء. هذا هو ثاني شيء علمني إياه هذا الرجل. عندما تخرج أموال ضخمه من قلب

الوطن العربي إلى أي مكان، فسيكون صفوان أول شخص تصله المعلومة. شبكته في القصور ستجر المال إلى وسطاء مصرفيين أوروبيين وأمريكان. جميعهم يعمل لدينا.

أنا لا أنكر إعجابي بالرجل بالرغم من أنه فاسد حتى النخاع. يعجبني خفته في العمل، فهو يتحرك أسرع من مسبار ناسا عندما يشم رائحة المال. يعجبني أيضًا أنه يوزع على عملائه ببذخ، لكل عملية يخط شيكًا كبيرًا، يدفع للجميع ما يريدون وكأنها أموال من خزائن لا تفنى.

منذ أول عملية لنا معًا في 2007 وصفوان يتخذنا شركاء، كنت أعلم أنه يعتبرنا الأكثر احترافًا، ومهارتنا كانت تمنحه الأفضلية لدى عملائه. لكن وبالرغم من كل شيء لم يكن الرجل يأمن أي شيء حوله. حاول مرارًا اختراقنا بألاعيب عدة كان أحدها إرسال أبو وليد بعرض مغرٍ لجرنا إلى أرضهم المكشوفة وفشل. أيقن أن اللعب مع المجنون قد يجر عليه خطرًا لم يفهمه.

على يخت أنيق، أقر صفوان بأنه يخشى على أمواله إن انقلبت الطاولة عليه في أي لحظة. لم أعلم من أين استشعر الخطر ولكنه كان يريد منا أن نوفر لأمواله غطاء. أن نخفيها له عبر كايمان ثم كاك بحيث لا يصل إليه أحد. كانت تلك آخر السنوات الهادئة، سنة 2010.

36

في دروب اللعبة، حملتنا الأحـداث حتى وصلنا للعمق المظلم. كيف كنا ننفذ العمليات؟ الأمر كان معقدًا. دهاليز عالمنا، طبقات تتراكم فوق بعضها وتتداخل حتى تصير كتلة مشفرة لا يملك من هم خارجها مدخلًا لحلها.

عندما شرحت الأمر لكاميليا في نيويورك، كانت تفتح فمها وتسألني أن أعيـد شرح الأمـر مجددًا. الأمر كان معقدًا لأنـه يتعلق بالمال، وكل ما هـو متعلق بالمـال يصير معقدًا. ليس هذا فقط، بـل تخيل معي الكثير من المال، ثم أضف إلى ذلك أن هذا المال سري للغاية، أو دعني أقل إنه يرتبط بمصالح كبرى.

هل وصلت إلى صورة معينة في خيالك؟ الآن ربما يمكنك أن ترى

الصورة التقريبية لأنشطة تشاك باك عبر البحار.

تشاك باك القابضة ومقرها هونج كونج تمتلك فريقًا من المفاوضين والتنفيذيين رئيسه الإقليمي مستر كاك الطويل. ما الذي تفعله تشاك باك؟ إنها معمل تسيير أعمال الشركات المسماة "شركة ذات مسئولية محدودة"، ويخلق لتلك الشركات مسارات شرعية ومجالس إدارة وأسهمًا وتعاملات ورقية، متنقلًا بها من مكان لمكان قبل أن تهبط مجددًا في بنوك أوروبا. عندما تعود تلك الأموال تصبح غير قابلة للتقفي ولا يستطيع أحد تتبع مسارها أو معرفة أصحابها الحقيقيين.

تشاك باك كبرت حتى صارت تضم أكثر من ألف موظف، غالبيتهم يعملون في مكاتب بآسيا والباسفيك. تبدأ مهمتهم عندما يتلقون إشارة البدء من مكتب ماسكو وساركيس. مكتب الكاريبي هو المكتب المختص بإنشاء الحسابات البنكية في الكاريبي وإقامة الهيكل القانوني للشركات المسماة باسم "ذات مسئولية محدودة". يقوم المحاميان في مطبخهما بعجن وخبز كعك الشركات حسب متطلبات العميل وأسلوب نقل الأموال المستخدم.

أما ساتومي فقد كانت عبر شبكتها الواسعة من مصرفيي البنوك الخاصة الكبرى وشركاتها الاستشارية توفر أول نقطة التقاء للعميل. العملاء كانوا يفدون عبر قنوات مثل العميل هارون أو بعض المصرفيين الكبار في أوروبا، وكانوا بالطبع ينالون عمولات خيالية.

"وماذا كان دوركما في كل هذا؟" تسألني كاميليا مندهشة:

"نحـن ببسـاطة كنا الحلقـة الأكثر غموضًا في تلـك العمليات.. أنا والدكتور في مكتب مايرز، كنا المفتاح الذي يفتح هذا العالم ويمنح شفرة المرور للأبواب السرية. كل تلك الشبكة الكبرى كنا نصمم عملياتها دون أن نغـادر أماكننا أو نلتقي بأحد أو نوقع ورقة واحدة.. نحن المهندسـان لتلـك العمليات ولكننا في نفس الوقت لا يعلم بوجودنا أي من العملاء أو البنوك أو الوسطاء".

"كيـف لم يعـرف أحد من أنتم؟" تسـأل كاميليا والحيرة تسـتبد بها والشكوك تعتلي قسماتها.

"الأمر بسيط.. عندما يكون هناك ملياديريريد تهريب أمواله سيبحث في دائرتـه عـن مصدر موثوق وسـاعتها سـيظهر بعض رجـال الأعمال المقربين الذين سـيمررون له اسم مصرفي سويسري أو إنجليزي.. رجال الأعمال هؤلاء هم إما زبائن أو سمسارة يتعاملون مع هارون أو ساتومي في الأساس".

"هل قلت أن الأمر بسـيط؟ ما زلت لا أفهم ما الذي يفعله المدعو هارون".

"إنه يرتب خروج الأموال من الداخل في أحيان كثيرة ويرتبط بعلاقات واسـعة في دواويـن الحكام والمصـارف المحلية.. سـيخرج المـال مقابل نسبة له".

"وكيف تخرج هذه الأموال؟".

"مئات الطرق المجربة والفعالة التي تمارس منذ السبعينيات.. عقود

كبرى للتوريدات الحكومية تقتطع منها أتعاب استشارية ضخمة ليتم سرقتها.. فروق في الفواتير التجارية والتصديرية لمواد خام وبترول وغاز تخرج من البلاد.. سمسرة عقود التسليح.. مقتنيات ثمينة.. أضيفي إلى ذلك أموال ساخنة تخرج في صورة سائلة من مصارف محلية".

"إذا كان هارون هذا يستطيع إخراج الأموال إلى مصارف سويسرا ولندن فلماذا يحتاجكم؟".

"إنه يحتاجنا للسرية.. لو ذهبت الأموال للمصارف رأسًا وتم إيداعها بشكل مباشر سيكون من السهل تقفيها فيما بعد أو وربما ستطولها أنوف الساسة الأوروبيين والأمريكيين وسيصبح العميل مهددًا في يوم ما بالضغط عليه.. الساسة يخافون تقلبات السياسة ورجال الأعمال يخافون الساسة.. إنهم ذئاب تخاف على الجيفة من أن تجلب رائحتها الفضائح... السرية كانت لعبتنا.. ساتومي ومن خلفها نحن.. كنا قادرين على إدارة العملية كلها في الخفاء.. سيخرج المال من الداخل رأسًا إلى حساب سري يديره مدير حسابات نرشحه في سرية تامة.. يذهب العميل في رحلة أوروبية ليقابل مدير حساباته الذي سيذهب إلى جناحه الخاص في الفندق وسيبدأ الإجراءات التي تبدأ بحساب سري في أوروبا ثم ينقل عبره المال إلى كايمان لاحقًا وهناك يعرف ماسكو وساركيس ما عليهما فعله".

"والكل يقبض..".

"هارون سيأخذ عمولته ما إن يخرج المال.. مدير الحسابات سيتلقى

أتعابه من البنك لإدارة الحساب.. العميل عبر البنك سيدفع لماسكو وساركيس مقابل إنشاء شركات الأوف شور والأتعاب القانونية.. ثم يدفع ماسكو وساركيس عمولات تشاك باك مقابل نقل المحافظ المالية عبر العالم في علاقات تجارية شرعية وتسميات لشركات مختلفة.. في النهاية ستعود تلك الأموال من رحلتها لتسقط في حجر البنك الأوروبي في صورة نظيفة تمامًا وقانونية ودون أثر يمكن اقتفاؤه.. يدور البنك الأموال في محافظ تستثمر وتتملك في لندن ونيويورك وسنغافورة ودبي وهكذا".

"وماذا عنكم؟ كيف تربحون؟".

"نحن نجني حصتنا عبر الجولدن جيشا التي تجني الأموال من ماسكو وساركيس وتشاك باك وعمولة من البنوك.. ثم تعطينا حصتنا بعد خصم كل العمولات التي تفرقها.. ساتومي أيضًا كانت تكسب من إدارة بعض المحافظ لتلك البنوك وللعملاء.. علاقتها بالبنوك كانت متميزة".

"كم تبلغ أرباحكم؟".

"الكثير".

"حدثني عن الجولدن جيشا تلك..".

ها هي تلتقط طرف الخيط وتنقِّب في ذاتي. تطل في عيني مليًّا وكأنها تفتش في حطب نار خمدت لعلها تعرف متى رحل من كانوا حولها؟ تعيد السؤال لعلي أجيب، ولكن بحر الأشجار من الصعب أن يجتاز ضبابه أحد.

***

هل سـيفهمني أحد؟ لا يهم. هذا أبسط ما يمكن أن أقوله لهذا العالم. الحقائق أعنف من كلماتي. شهادتي على الأحداث لا تعني شيئًا لأحد. عالمي أسوأ من عالمك، ولم يكن لينفع فيه سوى رجل مثلي يقود الأشياء نحو حافة الخطر بسرعة جنونية. عالمي يمتلك شره الشياطين ويرمي عمولاته للجميع لينضموا، وسطاء للوسطاء وبنوك ومحاسبون ومضاربون وشركات كبيرة وصغـيرة في كل بقاع العالم والكل يعمل بشرعية البنوك المركزية والنظام المالي العالمي العظيم، إنه العالم الذي يخرج مليارات الفقراء ليتمتع برفاهيتها الأثرياء، إنها حلقات وحلقـات من صفقات المال التي تغير العالم في كل لحظة تمر علينا ونحن نتحدث.

أين بدأنا؟ إنه ذلك اليوم بالمرآب عندما قام كاك باحتجازنا بعد أن تتبعناه، ساعتها قدمت له عرضًا أن يعمل معي. الفكرة التي راودتني ساعتها كانت خيالية. مقامرة لا تستند على شيء.

ما لم أكن أعرفه أن تلك المقامرة قادتني بالصدفة فيما بعد إلى فكرة تشاك باك. لا أعرف حقيقةً هل هي ساتومي أم هو مايو أم الجنون؟

37

في بداية العام 2011 بدأ كل شيء يتغير وانفتحت الأبواب على مصاريعها. اشتعلت المنطقة ودبت الثورات كالنار المستعرة في خمس دول عربية في غضون أسابيع. أطل المال النجس القادم برأسه من فتحة الباب، ملتاعًا ويبحث عن ملاذ. أموال الدهاليز الأكثر عتمة كانت أكثر بكثير من أي وقت مضى.

الدكتور يتابع محطات الأخبار بكل عاطفة ومشاعر جياشة. يسألني بحماس:

"هل سيطيحون بالديكتاتوريين الفاسدين؟".

"لا أعرف.. ربما".

"لماذا أنت متبلد هكذا؟ أحقًا أنت تنتمي إليهم؟ أحيانًا أشك في أن لك وطنًا".

أوشك أن أرد عليه نافيًا، ولكن للأسف لم يكن هناك شيء داخلي. في الوقت الذي خرجت فيها الملايين في كل مكان، وانقلب العالم بما فيه ليعلن دعمه لشعوب منسية خزنت في براميل صدئة لعقود، كنت لا أشعر بشيء على الإطلاق.

كالعادة يطل المجنون، وتدور عيناه يمينًا ويسارًا، ويفغر فاه غير مبالٍ بأي شيء كان. هل أكذب مثلًا؟ أنا في الحقيقة كنت وما زلت أتطلع نحو العالم على أنه زير ماء، تظنه كبيرًا وسيروي عطشك، ولكن عندما تطل داخله لن تجد سوى عنكبوت معمر يخرج لك لسانه. العالم بالنسبة لي تافه. أتفه من شراب الموكا فرابتشينو في كوبه العملاق.

علاقتي بكلمة وطن لم تخضع يومًا لنوبات القشعريرة والأغاني الوطنية. لم أكره بلدي يومًا ما ولكني لم أجد نفسي مقتنعًا بالطريقة التي يدعي بها الناس حبهم لبلدهم. لم أفهم قط لماذا يرفع البشر الأعلام ويتباهون بالعرق ليقولوا نحن عظماء؟ لم أر في هذا العالم المسطح ما يدعو لتماهي البشر في تحليل أساطين خلقوها لأنفسهم ليعبدوها لاحقًا في شكل خريطة وألوان عَلَم. هل من أبدعوا في هذا العالم كانت تلوح في داخلهم صورة الوطن عندما جلسوا ليحلوا مشكلات الفيزياء؟ هل كل من صنع سلالًا لنقل طعامه أتفه من صناع الانشطار النووي؟ أنا لا أرى فيهم من هو أعظم من الآخر. ربما أقوى فقط. لم أزل أظن في قرراة نفسي أن الأقوى هو الذي سيستمر. صناع السلال في أقاصي الغابات عاشوا إلى الآن.

تزأر الحشود المليونية على الشاشات وتتوالى الأنباء، والدكتور يحملق في الشاشة، ويتفاعل بكل حواسه حتى أنه نسي بطنه. يتطلع إلى شزرًا بينما

أنا مشغول أفكر في أمر آخر. كنت أتطلع نحو الهاتف وأعرف أنه سيرن دون توقف لليالٍ وشهور قادمة.

قد يكون من الصعب أن تتخيل الأمر ولكني كنت أوقن بأن كل ما ذهب لن يعود. أتطلع نحو الشاشة وأتابع مشاهد البسطاء الذين احتشدوا في الشوارع. كم أود أن أقول شيئًا ولكني لا أقوله. آه لو يعرفون الحقيقة! إنها حقًا مجحفة. الدكتور أيضًا يعرف الحقيقة ورأى بنفسه كل الأموال التي أخرجناها في العامين الماضيين. يعلم أنه في غضون ساعات سيهاتفنا الوسطاء بحثًا عن ملاذ للودائع الكبيرة.

"القطط السمان ربما قد بدأوا بالفعل في تهريب الأموال".

"أكاد أجزم بأن كل شيء قد خرج بالفعل بينما نحن جالسان".

"كانوا مستعدين بالفعل؟ كيف هذا؟".

"هل تمزح؟ أنت بنفسك أخرجت الكثير من قبل.. ثم بغضِّ النظر.. هل رأيت لصًّا يسرق شيئًا ويتركه دون أن يخفيه؟ لا يوجد في الداخل سوى الأرض المحروقة وبعض الفكة".

"وماذا عن هؤلاء الغلابة؟".

"عزيزي أنا وأنت لا نفهم في عالم السياسة ولكن دعني أقل لك إن الأمر كله الآن يشبه عالم المال.. إنه أشبه بشركة رئيسها متهم بالفساد.. سيغيرون رئيسها ليبدو الأمر وكأن هناك تغييرًا كبيرًا حدث ولكن للأسف مصير الشركة سيبقى في يد المضاربين بالخارج.. هم من يتحكمون في رفع أسهمها وخفضها حسب مكاسبهم الشخصية.. هم من يمتلكون السعر

وكل من سيأتي سيطبق لهم ما يريدونه.. إن التغيير فقط حدث في جزء من الصورة التي يراها الجميع.. إنه الجزء الأهبل.. إنه فقط مجرد تغيير وجوه".

"اللعنة عليك أيها المتعجرف.. كم أتمنى لو كنت مخطئًا ولكن للأسف أنت على صواب.. اللعنة عليك لقد أحبطتني.. سأطلب بيتزا وأحاول أن أنسى".

يعود الدكتور لطبيعته ويتذكر بطنه أخيرًا، ولكن قبل أن يتحرك من مكانه كان الهاتف قد بدأ في الرنين. يغمغم ثم يهتف يائسًا:

"هذا مبكر بعض الشيء! الضباع بدأت تجر الجيفة.. صفوان الوغد لن يتركنا نأكل بيتزا الليلة".

لم نأكل بيتزا يومها ولا منذ هذا الحين، صرنا نأكل الجيف.

صفوان يطل بوجهه على الصورة ويحتل المشهد كله. تلك السنوات كانت سنواته. صار يملك المقاليد ويختم على كل دولار، يدور داخل كل حلقات اللعبة القذرة. أول القصيد كانت أموال نسيب أحد الرؤساء المخلوعين، ثم تبعه في اليوم التالي رجل أعمال ووزير سابق هبط على أرض دبي، ثم أتى الجميع بأولادهم وزوجاتهم وأصهارهم. كل اللصوص أتوا تباعًا حتى من بلاد لم تمسسها نار الثورات.

سويسرا أعلنت بعد عدة أسابيع عن كشف لأرصدة متخمة لديها، ولكننا بالطبع كنا نعرف أن ذلك الكشف ليس سوى فقاعة، إنه فقط مجرد إعلان عن ودائع سيكون عليها الانتقال إلى الكاريبي. إعلان لا يعرفه سوى أمثالنا.

صفوان يدبر اللقاءات كلها في أوروبا وتدور عدادت الحسابات البنكية معلنة عن تصفير المئات من الحسابات في وقت قياسي. يهطل المال على شركائنا المحظوظين في كايمان قبل أن يبدأ كاك الحريف في تطويف المال حول العالم عدة مرات. تشاك باك العظيمة هي مدينة الملاهي والمتنزه السعيد للأموال الخفية. تنفتح شركات في هونج كونج وسنغافورة وتُشَفَّر الحسابات للأبد.

تدور الأرجوحة وتعلو ولتنسى كل الأوراق التي تثبت من يملك ماذا ومتى؟ حتى الدول لا تستطيع اقتفاء تلك المليارات العابرة للمحيطات دون أي أثر. حتى العفاريت الزرقاء لا تستطيع الوصول. لم نكن الوحيدين في تلك اللعبة ولكننا كنا ملوكها المتوجين. نحن السحرة الذين لا يصلهم سوى الصفوة. سجل في السجلات التي لا أحد يعرف لها طريقًا. لن يعرف أحد أين يختبئ الفيل في هذا المنديل الصغير.

"لقد كنا نفعل كل شيء ولكننا كان علينا في نفس الوقت أن نهرب مما هو أسوأ بكثير".

تنظر إليَّ غير مصدقة ما أقول وتهتف:

"هل هناك ما هو أسوأ؟".

"عزيزتي كاميليا، إن الشيطان نفسه ليقف مندهشًا أمام قدرة البشر على خلق الشر".

كاميليا الصحفية التي سجلت واقتفت أثر العشرات من الفضائح الاقتصادية والسياسية خلال أزمة انهيار الأسواق العالمية، كانت تستمع

إليَّ كطفل صدمه الواقع في لحظة. أروي لها ويلات أكبر عما يحدث هناك على بعد آلاف الأميال في قلب الشرق الأوسط.

تعال معي حيث تغير الزمان والأحداث وصار الشرق الأوسط موطن كل الكوراث والصراعات. هذا فقط ما كنت تراه، ولكن المال كان كل شيء في الأمر. نعم إنه المال الذي لعب الدور كاملًا. إنه المال الذي سمم الماء والهواء وزرع الأرض قتلى ولاجئين وأمطر من السماء قذائف. لقد هبط المال ذات ليلة على تصدعات الأرض المنشقة على نفسها وقرر أن يشتري الصراع وبأي ثمن.

عندما طلبوا منا الضلوع في التحويلات كان علينا أن نتفادى وبأي شكل لعبة مرعبة تلوح في الأفق. الأمر بدأ عندما بدأت أموال أخرى تظهر على الساحة. في البدء لم يكن أحد يفهم إلى أين ستذهب الأموال التي تخرج من خزائن رسمية لدول في المنطقة. لكن وجود صفوان وأرسلان التركي على الطاولة ومن تحت الطاولة أبو وليد وأبو حمدان ومئات آخرون يلعبون أدوارًا في كل بقعة من الخليج إلى المحيط، قد أجج أكبر المخاوف التي رأينها في حياتنا.

السياسة لعبت دورها وخرجنا من حسابات تلك اللعبة الجديدة. لسبب ما لم يكن أحد يحتاج أن يمرر دولارًا واحدًا عن طريقنا. لقد كان المال رسميًّا ويخرج من حسابات مفتوحة في العلن. إنها لعبة السلاح وصراع المصالح الذي نشب في المنطقة.

الأموال الرسمية كانت تخرج من حسابات رسمية ليعاد توزيعها في حسابات تمويلية تصب في جيب العملاء المكلفين بتغطية نفقات

الصراع. سمِّ ما شئت من مستلزمات الصراع من سلاح وعمولات وشراء سياسيين ومرتزقة ونفط ومحطات بث فضائي وحتى أوراق التواليت. سمعت حكايات أحيانًا عن أن الأموال كانت تذهب كاش، وفي سيارات تتنزه على الأرض، لأطراف الصراع في البؤر الدامية.

رأينا أبو حمدان يعود كسمسار لإحدى الدول بينما شريكه أبو وليد يعمل لدولة على الطرف الآخر من الصراع. لم يعلم أحد أن كلا السمسارين كانا يمرران المال من نفس الطرق وبنفس الأفراد.

رأينا أرسلان التركي، ملكًا متوجًا بلا منازع خلال أعوام الحرب وظهور التنظيمات. كان يشتري ويمرر ويبيع على الحدود وداخل مناطق النفوذ. سمعنا حكايات عن أبو وليد وكيف كان يلتقي تجار الحرب في بيروت وبغداد وأربيل، بينما أبو حمدان كان يجول في صنعاء وبني غازي.

العميل هارون لم يأت إلينا عندما اشتد الوضع في المنطقة. كانت تجارة السلاح تتضخم وكان مشغولًا عنا بما هو أكبر منا بكثير. سمعنا حكايات من عملائنا في مصارف باريسية وسويسرية عن فتح حسابات علنية لا تجف، كلها تحت إمرته. الصراع كان مفتوحًا بقوة، والهدف كان ألا يتوقف مهما حدث.

في العام الماضي 2013، بدأنا نتوارى عن المشهد وصرنا نقف في الظل. اقتصر دورنا في المنطقة على عملاء سابقين واستثماراتنا في دبي. ساعتها قررنا الذهاب شرقًا والعمل مع مليارديرات الصين وروسيا والجمهوريات الشيوعية السابقة الغارقة حتى أذنيها في الفساد.

***

عندما هبط أبو وليد على أرضي قبل سنوات وجرَّدته من بزته، جلس أمامي مذعورًا يعرض عليَّ أول عرضٍ مغر أرسله به مهندسو تحركاته. لقد عرض أن تعمل مايرز لجلب أموال خليجية من دول الجوار لشراء مشروعات عقارية في دبي. قدم لي عرضًا سخيًّا يضمن حصولنا على هبات كبيرة مقابل أن يلعب مكتب مايرز دورًا في رفع قيمة تلك الاستثمارت بأكبر شكل ممكن.

أدركت ساعتها أنهم يحاولون استدراجنا لصفوفهم. أرسلان ورجاله يتوجسون من تواجدنا في السوق على الرغم من عدم يقينهم مما نفعله. كانوا يتطلعون إلى استثماراتنا التي غزت دبي خلال سقوط السوق وتتطاير استفهاماتهم في مجالس المدينة وشبكات الأعمال فيها. لم يكن أمامهم حلٌّ سوى جرنا لأسفل لنصير على مقربة منهم. في هذه المدينة، تتضمن شروط اللعب، أن يقف الجميع على نفس خط التماس.

هذه هي مدينتي مهما تضخمت أمام الأعين، ظلت في الواقع مشروع جني أرباح مفخمًا يدار وفق مصالح محسوبة جيدًا. الكل هنا يهمه ألا يخل أحد بشروط اللعبة.

يطالعني أبو وليد مدعيًا الذكاء ويخبرني بأنه كان على علم بالصفقات التي أجريناها في الخفاء على المنصة بعد هروبنا من المدينة. يدعي بخبث أنه هو بنفسه سمح لنا بربح الأموال التي سددناها في هونج كونج. يدعي أنه هو من ترك لنا هذا المخرج لننجو.

مرحبًا بأبو وليد في دروبي الوعرة. لقد حسب كل شيء ولكنه أغفل

أهم شيء. لم يكن يعلم أني قد أصبحت مجنونًا. لم يكن يعلم هو ومن وراءه بأن مايرز مجرد لافتة وأن هناك خلفها ساتومي وماسكو وساركيس وكاك صاحبه القديم. لقد تسرعوا وانكشفوا لي دون أن يعلموا.

"سأعتبر السبعة ملايين التي اتهمتنا بها دينًا مستحقًا عليك تسديده لمايرز.. يمكن لمن أرسلوك أن يسددوه ليأمنوا جانبي".

"أنت تهددهم؟ هل تعلم أنه..".

أشير بيدي لينصرف:

"سأكتفي الآن بأن تخرج من المكتب بلباسك الداخلي وتمر في أروقة المركز المالي هكذا".

بعد شهور قليلة أرسل التركي أرسلان اثنين من محاسبيه أحدهما هندي لبق والآخر أسترالي. طالبا بتسوية للحسابات القديمة ووافقت على أن يسددوا تعويضًا ماليًا لنا ووافقا. بعدها بيومين ظهر صفوان ليطلب إنهاء الأمر وعدم النبش في الماضي. عرفت ساعتها لأي مدى كان صفوان خبيثًا ويعرف ما لا يعرفه أحد سواه. إنه كالذئب يفتح عينيه وسط العتمة دون أن يدري به أحد. ولكن يبقى صفوان الأذكى بين الجميع. إنه لا ينبش في الجوار طالما يحكم يديه على الصيد البعيد. تيقنت أنه يريد منا ما هو أكثر بكثير. إنها السياسة والفساد الذي تتقيحه الأرض كما تتقيح النفط.

38

يحدث أن يطل علي رجل ذو وجه أسـمر وملامحه ليسـت غريبة عليَّ، يرتدي عـلى الدوام جاكيت بنيًّا داكنًا، وذو لحية بيضاء مشـعثه وخفيفة. ألمحه وسـط زحام قطار مانهاتن وأنا عائد في المساء، في مقهى ستاربكس بالجادة السادسة كان يقرأ الجريدة، وعندما توقف بي التاكسي في الإشارة كان أيضًا يقرأ الجريدة في التاكسي الآخر المحاذي. منذ أن قدمنا إلى نيويورك قبل ثلاثة أشـهر وأنا أصادف هـذا الرجل كل بضعة أيام. عندما حكيت للدكتور طالع زجاجة الويسـكي التي أمامـه وتفحصها ليتأكد إن كانت قد نقصت قائلًا:

"يبدو أن تأثيرها قوي".

هذا الرجل اختفى تمامًا بعدها، ولم أره سوى بعد سنوات. في أحد الأيام

كنت أجلس في أحد مطاعم فندق الجميرا ووجدته جالسًا يأكل وحده. هذه المرة لم يكن يرتدي ملابسه التي اعتدت على رؤيته بها. لقد كان هذه المرة يرتدي لباسًا خليجيًا. ذهبت إليه وجلست على المقعد المقابل فرفع عينيه نحوي ولم يقل شيئًا، ظل يأكل ببطء وكأني هواء.

"أخيرًا التقينا.. لقد تبعتني لسنوات.. من أنت؟ وماذا تريد؟".

يتطلع الرجل نحوي ولا يعلق. مهما حاولت معه، لم يكن لينطق بشيء على الإطلاق. لم أعرف أبدًا من هو! ولا ماذا يريد مني! لم أجد إجابة منه ولم أصل لاستنتاج ما واضح حتى صرت أتعايش مع الأمر.

كان داخلي هاتف ما ينبئني بأن هذا الرجل سيظل موجودًا مهما حاولت الهروب منه. عندما كان يلوح لي في أمكنة مختلفة من العالم، لم أتحاشَه أو أحاول الهروب. ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى إحساس غريب لم أفهمه. لقد صار لوجوده من حولي وقع غريب على نفسي، وقع فيه راحة ما.

***

تناديني كاميليا من وراء كل الأشياء. تضع في يدي قلم رصاص وورقة بيضاء وتقول ارسم شيئًا، فأرسم صقرًا مغمى العينين. تشرب قهوتها وتزفر في الهواء:

"يجب أن نصل إلى شيء.. نفتش عن المستفيد؟".

"كل شيء قانوني نحن لا نكسر القوانين".

تفتح حدقتيها وتبلعني في عالمها، تفتش بفضول أنثوي في جبهة المجنون الذي يصدمها بأرض الواقع فتثور متمردة:

"لماذا؟ لا بد أن هناك شيئًا يستطيع العالم اقتفاء أثره".

"لن يصل أحد لشيء".

"كيف هذا؟".

"لسببين: الأول أن العالم متآمر ومتورط في هذا الأمر.. البنوك الكبرى التي تودعون فيها أموالكم وتقترضون منها أنتم والحكومات حتى استفحلت هي التي صممت هذا النظام وجعلته قانونيًا مائة في المائة.. أما السياسيون حول العالم فيستفيدون من الأمر".

"والسبب الثاني؟".

"هذا المال قادر على شراء حراسة وقوانين وأنبغ المستشارين وأذكى المحترفين".

"مثلكما؟ المجنون والدكتور!".

"مثلنا وآخرون.. هل تظنين أن صحفيًا ذات يوم سيفتش ويتقصى ويصل للحقائق؟".

"لم لا؟".

ها هي كاميليا تحب العالم ولكن عليها أن تفهم أن العالم لا يبادلها المشاعر:

"الحقيقة أن هذه الأموال ستشتري صحيفته والمؤسسة التي تملكها.. وستأتي بمقالات وتحليلات مغايرة.. وسيصنع السياسيون أحداثًا سياسية.. والرأسماليون أحداثًا اقتصادية تذيب العالم في دوامات أخرى لا نهائية.. وسيمضي البشر على هذا الكوكب أعمارهم تحت رحمة معدل البطالة والفائدة

والتضخم ونسبة الوظائف وقروض السكن وإعلانات المنتجات وأروقة الهايبر ماركت وتذاكر رحلات الإجازة ولن يهتموا بالحقيقة.. يقفون في الصفوف الطويلة لينتخبوا من يسرقونهم ويتكالبون على منتجات الشركات التي تستعبدهم ولن يفتشوا عن أي حقيقة.. بالعكس.. سيهربون من أي حقيقة أخرى.. تلك هي الحقيقة".

تمسك رأسي بكلتا يديها وتطل في عيني عن قرب وتهتف:

"أنت الحقيقة.. أنت العالم الآن بالنسبة لي.. عليَّ أن أشفيك من المجنون وعليَّ أن أخرج للعالم الحقيقة".

أقوى من الصخر عزيمتها، وأنعم من النسيم نبرتها الهادئة. تطويني كأم تحمي طفلها من قذائف الحرب وتبتسم ألا يخاف وتعبر به المتوسط في قارب يغرق وينجو من هلاك عالم يتداعى بلا توقف.

39

"ما كل هذا؟".

تقول ساتومي مندهشة، وترفع حاجبيها قليلًا. تجلس على حافة حمام السباحة المطل على شاطئ الخليج بينما أنا والدكتور نجلس متقابلين على البار. لقد قدمت ساتومي في بداية العام 2012 إلى دبي لتتحدث بقلق بالغ عن كم الأموال التي صارت تمر عبر ماسكو وساركيس.

يحضر الدكتور زجاجة ساكي فاخرة ويملأ لها كأسًا قبل أن يغمز مبتسمًا ويتسرب تاركًا المكان. لقد صار ماكرًا بعد أن قضى على آخر مخازن البلاهة في الكوكب. ما الذى فعلته بالدكتور؟ لقد عاشر المجنون وصار يضرب بخبث. يعرف أن ساتومي لم تأت إلى هنا لتسأل على المال. لقد هرب لأنه يعرف أن ساتومي قد جاءت لتتحدث إليَّ.

يعرف أن الشوق ألقى باليابانية في أول طائرة بعد أن طال انتظارها.

ما الذي فعلته بساتومي؟ لقد أحبتني!

تضم أصابعي في كفها برقة يابانية لا يعرفها هذا العالم. يلمسون الأشياء بحب وتفانٍ لا مثيل لها. تعرف كيف تلمسني وكأنها ترسم على ورق ياباني بريشةٍ قصةَ أسطورة حزينة. لا تنظر في عينيها يا مجنون فتزيدك جنونًا. اخشع ولو مرة أمام المجهول، وتوقف عن الاستهتار بالعالم. نظرة في بحر الأشجار سترسلك خلف كل ضباب العالم ولن تخرج. تذكر العجوز وتذكر كلماته ولا تعدُ خلف الزمن الذي سيسجنك للأبد. لن تخرج المجنون منك ولن يدعك ترحل إن ذهبت خلف أشجار ساتومي.

أنا وأنت من عالم واحد. هيا بنا نهرب من بعضنا بعضًا. فلنتسابق مبتعدين حتى يصير بيننا بحور وشطآن وبلاد وبشر ومدن تضوي في الليل ولا تنام. أنا وأنت من عالم واحد ولذلك علينا أن نبتعد.

في 2012 اقتربنا حتى احترقنا ثم ابتعدنا حتى صار الزمن أبعد من أن يعود. تركت أصابعي وذهبت في عالمها. نتبادل الصفقات ونتبادل اللقاءات المتقطعة، ولكن اليابانية ذات اللمسة الساحرة قد تركت يدي وودعتني في انتظار لقاء أخير، لقاء سيأتي بعدها بثلاثة أعوام. لقد كانت غابة الأشجار تغوص في الظلام وتنطفئ آخر ومضات الأساطير.

***

لم يتوقف انهيار الأموال بينما العالم ينهار من حولنا. الدعاية الكبرى التي حصلنا عليها منحتنا زبائن من كل بقاع العالم، مليارديرات روس

وجنرالات أفارقة ومسئولين آسيويين ورجال أعمال صينيين.

يهبط كاك على شاطئ الخليج ويدلف لمكتبنا:

"هناك عراقيل بدأت تظهر.. الحكومة الصينية بدأت في تضييق الخناق علينا في الصين.. لو توقفت العمليات في جوانزوا وشنغهاي سيكون من الصعب التصرف".

يتطلع نحوي مترددًا وكعادة كاك يريد مني أن أحركه، إنه دائمًا لا يخرج من دور العميل وينتظر الإشارة:

"في الصيف الماضي ذهبت في إجازة إلى كمبوديا وبينما أنا في منتجع شاطئ يدعى سيناهوفيل سمعت أن أحد المليارديرات الروس هرب بأمواله من روسيا خوفًا من السلطات واشترى جزيرة من الحكومة في كمبوديا تبعد عن الشاطئ الذي كنت أقف عنده بضعة كيلومترات.. يقول الناس هناك إن السلطات الروسية أرسلت بطلب لتسليم الملياردير الهارب.. ذهبت إليه قوات جيش وشرطة ومسئولون رفيعون في قصره الكبير الذي أقامه على الجزيرة ليلقوا القبض عليه.. فما كان منه إلا أن دعاهم لعشاء فخم وقام برشوتهم جميعًا.. خرج المسئولون من القصر أغنياء وبدلًا من تسليمه تركوا له عددًا كبيرًا من القوات لتحميه".

"هل نشتري السلطات في الصين؟".

"الصين سيأتي منها أكبر العملاء الذين سيشترون العالم.. ادفع".

"إنهم شرهون ويحبون الطمع".

نتبادل أنا والدكتور النظرات للحظة قبل أن يضحك الدكتور وينظر

لكاك نظرة ذات مغزى. تخلى كاك عن قلقه المعهود وابتسم وهو يفرد قامته ثم أخذ يطالع طريق الشيخ زايد عبر الزجاج. أنيق كعادته ورشيق، يرتدي قميصًا إيطاليًّا ضيقًا وشعره مصفف بعناية ومستعد دومًا لإشارة. لم يكن يرهقني عادةً بالأسئلة ولا يبادر بالمفاجآت، ولكنه في بعض الأحيان قد يفكر بغموض يليق بعميل، عميل فطن قد يبيع قناعاته في أقل من لحظة عندما لا يطمئن لشيء ما. يهمهم وهو ما زال يراقب المدينة قبل أن يقول:

"العمل مع الصينيين ليس بسهل.. إن كل شيء لديهم مقامرة.. قد يكسبون كل شيء أو يخسرون كل شيء في لعبة واحدة.. إنهم ليسوا مثلكم أنتم العرب".

يضحك الدكتور أكثر ويعلق:

"العرب؟ أنا أيرلندي وهذا الرجل ليس له بلد تقريبًا".

يتطلع كاك نحونا مندهشًا:

"أووووه.. حقًّا؟ طيلة تلك السنوات كنت أظنكما عربيين.. لقد أختفيتما وظهرتما بسبعة ملايين.. العرب هم وحدهم الذين يأتون بأموال كثيرة كهذه من اللاشيء.. اعذراني إن كان لدي بعض الفضول ولكنكما منذ بداية عام 2011 هطلت من بلادكما أموال لا تحصى ولا تعد وفي غضون أشهر قليلة.. لا أحب أن أتجاوز حدودي ولكني لم أفهم و..".

يقاطعه الدكتور مقهقهًا:

"هههههه اسمع.. أنت لا يجب عليك أن تسأل شيئًا في حضرة المجنون حتى لا توقع نفسك في المشاكل.. منذ متى وأنت تسأل عن أشياء كهذه

يا مستر كاك؟ على أية حال أنا مثلك كنت أعتقد أن العرب يملكون كل أموال العالم حتى ظهر أقاربك الصينيون.. زيارة واحدة لفانكوفر أو حسابات لندن وستجحظ عيناك".

"أنا لست من الصين.. أنا من هونج كونج في الحقيقة".

يصمت قليلًا ولكن يبدو أن شيئًا ما لا يزال يؤرقه فيتابع:

"أنا لا أحب أن أسأل ولكننا صرنا أصدقاء و..".

يقاطعه الدكتور ببرود جم:

"لا لسنا أصدقاء".

يخبط بعدها على بطنه ويبدو غير مكترث بأي شيء. ماذا حدث للدكتور؟

يرمقنا كاك بطرف عينيه بنظرة حادة فأقرر أن أقطع الأمر بحزم:

"كاك.. ادفع لهم ما يريدون.. لن تمضي شهور قبل أن يكتشفوا أن تلك الأموال هي مأزق ويريدون إخفاءها فكلهم مسئولون ويخافون التفتيش في حساباتهم ورقابة الحزب الشيوعي.. ساعتها سيأتون إليك لتخفي تلك الأموال في الخارج.. سيصبحون عملاءنا هم أيضًا وستصبح كل المصالح مشتركة ولن يقدروا على فتح أفواههم".

يتخشب العميل في مكانه منبهرًا والدكتور يرسم ابتسامة الإيموجي العريضة وهو يسند وجهه على قبضتيه. وتمر أشهر قليلة قبل أن يهطل المزيد من الأموال علينا.

***

في دبي هناك أشياء لا يجب أن تعرفها أبدًا، سترى الأشياء بكلتا عينيك ولكن في الصباح ستمحى آثارها، كل ما يمس اسم المدينة يجب أن يبقى براقًا ونظيفًا. لو تطلعت حولك فلن ترى أمثالنا مهما دققت النظر، نحن نغوص في متون المدينة ولا يظهر منا شيء، كل ما ستراه هو المال والمزيد من المال، سترى الأبراج، سترى المنتجعات الفارهة، سترى الماركات والسيارات والفاتنات ولكنك لن ترى أمثالنا، نحن شرايين تنبض ليل نهار تحت البشرة النضرة لساحرة الخليج والعالم.

من خلف لافتة مايرز العالمية يقبع مكتب لا يدل على شيء مفهوم، شركة وسط آلاف الشركات رأسمالها المعلن لا يتجاوز سبعة أصفار، ولكن خلف هذا المكتب كان هناك اثنان يديران طاولة اللعب في أركان الأرض.

وبالرغم من كل شيء، بالرغم من كل ما حققناه وربحناه بدأنا نتغير رويدًا رويدًا.

منذ زيارة كاك وبعد ازدهار أعمالنا في آسيا بدأت تتغير الأشياء. لم يعد الأمر كما كان عليه من قبل. لم يكن السبب هذه المرة هو عالم المال. بل أتى الأمر من القلب، من الداخل، من الدكتور.

ضرب الفتور علاقتنا وبدا كأني فقدت حلقة كانت تجمعنا ولم أكن أعرف ما هي؟ الأمر كان أشبه بعلاقة تخفت دون أسباب وينحدر الأمر نحو شعور بالغربة دفين لا تعرف كيف تتحاشاه.

شيء ما حدث له ولم أفهم ما هو. صار في الكثير من الأحيان لاهيًا ومتعاليًا، يسخر من كل شيء ولا يعير انتباهًا لأي مكاسب نحققها. فقَدَ

صفاء ذهنه وعاد للانغماس في الشرب. يرافق كل يوم فتاة جديدة، ينفق عليها أموالًا طائلة ثم يتملكه الضجر فيسبها ويطردها. حديثنا صار يتضاءل مع الوقت، وذات صباح ولأول مرة منذ أن التقينا، يقرر أن يترك المسكن وينتقل للإقامة في أحد الفنادق.

لم أعد أفهمـه ولم أجهد نفسي لأفهم ماذا دهاه. كنت غارقًا في كاميليا التي اخترقتني ولم تترك ذرة في كياني في حالها. كل بضعة أسابيع أحلق إلى نيويـورك لأقضي سـاعات بصحبتها. لم يحب الدكتور سـاتومي ولم يحب أيضًا كاميليا التي قابلها مرة واحدة فقط ولم يكترث بها.

في الشهور التي تلت صار يتطلع نحوي ويرسم ابتسامة واسعة وكأنه يطل على شيء لا أعرفه عن نفسي، شيء يراه الدكتور جيدًا وأنا لا أراه أبدًا. في كل اجتماع دخلناه فيما بعد، وفي كل زاوية وعند كل مساء، يطل عليَّ ويرسم ابتسامة غريبة تتعاظم حتى صارت مفزعة. صار يشبه ما لا أعرفه، إنه يشبه الآن أسوأ هواجسي، إنه يشبه تأثير عقار تشاك باك علي، العقار الحقيقي، العقار الذي أشعل مايو دخانه في شقة بانكوك، لا.. الأمر أقسى من هذا، الدكتور الآن يشبه لعنة تشاك باك نفسها!

***

يهبط المطر الغزير ذات يوم عاصف على رأسي في دبي. يطالعني الدكتور دون الابتسـامة التى قتلتني لشـهور. لقد كان هائمًا ووجهه حزين. بداية العام 2015 ونحن نقف على ناصية مبنى فخم جديد افتتحناه بخليج دبي التجـاري. نقف وحدنا على ناصية سـنوات مضت خسرنا فيها كل شيء

وربحنـا فيها كل شيء. توقفت أتأمله ولم أبال بمطر المدينة الذي أسـقط عاصفة رملية هبت منذ الأمس. كان غريبًا وكان حزينًا، كان على وشـك شيء عظيم، هكذا تيقنت بعد أن تبدلت ملامحه فجأة، وبعد صمت طويل قرر أن يتحدث بكلمات يبدو أنها تخرج من قرارٍ بعيد:

"أبي مات.. مات قبل أن أنتقم منه..".

"يا إلهي.. جايمس الوغد مات؟ متى عرفت بالأمر؟".

"اتصل بي مكتب المحاماة الخاص به ليخبرني هذا الصباح".

"هل أنت حزين.. آسف لأني قد وعدتك أن ننتقم منه ولكني لم أفِ بوعدي".

"لم نكـن لننتصر عليه أبدًا.. لقد حسـب حسـاب كل شيء.. وعاد وانتقم مني مرة أخرى هذا الصباح".

"ماذا تعني؟".

"لقد كتب كل الأموال باسمي.. لقد ترك لي ثروته مع خطاب يخبرني بأنه نجح في أن يصنع مني رجلا".

"انتظر.. هذا الكلام فارغ ولا يعني شيئًا".

"يا صديقي العاقل.. أبي للأسـف محق.. لقد تحداني وأنا فعلت كل شيء لأتحـداه.. أنـا لم أفعـل أي شيء معـك بدافـع المـال أو الوصول لما وصلنا إليه.. لو سـألتني بالأمس لكانت إجابتي مختلفة ولكني اكتشفت هذا الصباح أن كل شيء كنت أفعله كان لأتحدى به جايمس.. للأسـف

هذا ما اكتشفته عن نفسي.. أنا الآن لم أعد أشعر بأن عليَّ الاستمرار.. سأتوقف هنا.. افعل بالمال والشركات ما تريده وفوقها ميراث جايمس ماكنمان البغيض".

"أنت تمزح؟!".

"لاااا.. إنها النهاية".

"ماذا سأفعل بكل هذا وحدي.. لا يمكنك أن تنسحب هكذا وتتركني".

يقترب مني ويمسك برأسي كما ستفعل كاميليا بعدها بشهور. الجميع كان عليه أن يهز رأسي بعنف حتى تسقط:

"أنت المجنون وهذه مدينتك التي لن تتوقف أبدًا.. ستقتلك لو ظللتما تلعبان تلك اللعبة سويًّا.. انظر حولك.. طالع مدينتك.. إنها تكبر أكثر وأكثر.. إنها لعنتك وعليك أن ترحل.. لقد شاهدتك كل يوم من خلف زجاج.. لقد رأيتك وأنت تكبر وتُجنُّ أكثر.. انزع شرايينها النهمة من دمائك.. أنت لست داخلك.. أنت في زمن قبيح".

يمشي على الرصيف مبتعدًا ويتوقف المطر وتصب عليَّ الأرض لعناتها ويهدر الجنون في رأسي فائرًا كما لم يأت من قبل.

***

مارس 2015. تعرف كاميليا برحيل الدكتور ودخولي في نوبة عدم تصديق وبارانويا شديدة. تزورني وتقف عند رأسي وأنا نائم، تتطلع مليًّا في عيني بينما أفيق وتسألني:

"من أنت حقًا؟".

تعزف موسيقى من أزمنة بعيدة وتغيب مدن وتحضر مدن. لا أنا أعرف من كنته ولا أعرف من سأكون. يشجيني صوت الموسيقى لأصل لحالة من النسيان وكأن الموسيقى محت من رأسي كل ما اختزنت من سنوات. في لحظة غبت عما أعرفه، ولم يكن فوق رأسي سوى رأس كاميليا مقلوبًا وشعرها متهدل كخريف يقترب.

"أيها الغريب.. اترك كل شيء والحق بي".

تغيب كاميليا منذ ذلك التاريخ. هكذا تتبخر، ولا أجد لها أثرًا.

40

أيتها المدينة التي تنمو بلا كلل، دعينا نتوقف عن التصنُّع. فلنكف عن تمثيل الأدوار. أنت تريدين إعادة اختراع العالم ولكنك لا تفهمين أنك أنت العالم الجديد بكل خيالاته، أنت إعادة إنتاجه لذاته، أنت منتجه الجديد بالأسواق، كل ما فيك فادح ومصنع، وكل وعودك لن تغير الحقيقة.

الجميع يريد الحلم ولكن الحلم سيختار من يريده.

تناديني كاميليا من وراء الأزمنة والمسافات وتهمس "فتش عن نفسك". أخرج من قاعة الاجتماعات مفتشًا عن الدكتور ولكن لا أثر، اختفى وتبخر مثلما يفعل مايو، غابا في زحام العالم وبقيت وحدي ليمزقني المجنون.

***

يقول مايو:

"لا يوجد سحر.. إنها الخدعة.. عندما لا تستطيع أن تصدق أنهم خدعوك ستقنع نفسك بأنه سحر".

نجلس على رأس ناطحة السحاب العملاقة في قلب دبي ويشير نحو خط الأفق:

"هل تعرف أن كل الأموال الكثيرة التي قد تراها من حولك ليست حقيقية؟ ناطحات السحاب الشاهقة، السيارات الفارهة، الشركات العملاقة، حسابات البنوك الفادحة، الماركات البراقة، كل هذا ليس حقيقيًا.. المال كذاب".

هكذا يقول مايو في أول لقاء لنا بدبي بعد أن التقينا في كل أماكن العالم الغريبة. هبط على أرض دبي ذات يوم حار ووقف متطلعًا نحو المجنون الذي رحل عنه من كانوا معه. حولني إلى تلميذ له وقرر أن يتحدث معي عن معنى فلسفته بعد أن زرع فيَّ طيلة السنوات كل الأفكار الغريبة. كل ما حدث قبل ذلك كان صداقة. من الصعب أن تصبح تلميذًا لمايو وذلك ليس له علاقة باللائحة الطويلة التي تريد التحدث إليه من صحفيين ومفكرين وأساتذة جامعات سمعوا عنه ويريدون الوصول إليه. مايو هو من ينتقى تلاميذه. هو الذي يفتش عنهم ويمعن في ذلك.

بعد أعوام من صداقتنا قرر الفيلسوف أن يتحدث إلي. مشى بأقدامه على أرصفة دبي وتحدث إليَّ أخيرًا. يرنو مايو نحو مدينتي الباهظة ثم يلقنني الدرس الأول:

"اعلم أن هذا العالم الذي يتضخم أمامك يتآكل في نفس الوقت.. اعلم

أن قوة الفرد تنعدم الآن وتظهر بدلًا منها قوة الحاضر.. هذا العصر بدأ في التشكل وسيحكم الجميع.. بنوك المعلومات أقوى من قدرة كل البشر.. القيم الإنسانية بدأت في الفناء وبدأت تتلاشى قدرة البشر على استعادة جذورهم.. عصر الكريدت كارد بأمواله الوهمية والاحتياجات المختلقة والتفاعلات الافتراضية.. يزحف فوق أفكار البشر وأنماط معيشتهم.. سيل المعلومات المتدفق عن كل ما يفعلونه ويتمنونه سيجعلهم تحت وطأة عصر لا يترك شيئًا للصدفة.. أحلامهم وأفكارهم ستصنع لهم بمقياس دقيق وسيتم تحميلها في برنامج حياتهم دون أن يلاحظوا.. سيأتي يوم ولا ينفع فيه إطفاء الهاتف والتلفاز والهروب.. لن تملك حياتك في هذا العصر ولا أفكارك..

ستتشابه حياة الجميع في كل مكان وسنصبح جميعًا عمالًا في مصنع ضخم تختلف وظائفهم ولكنهم جميعًا جزء من نفس النظام..

أنت والعالم من حولك.. تريد أن تلاعبه ولكنه يتلاعب بك.. اعلم أن مدينتك سيصبح لها الغلبة عندما تبدأ المواجهة.. ستأخذ منك كل شيء بعد أن تعطيك كل شيء".

أدلدل ساقي في الهواء ونحن على حافة برج يرتفع ثلاثمائة متر عن أرض السباق وألتزم بصمت يليق بتلميذ في حضرة فيلسوفه. تهرول السيارات متسارعة في الأسفل ويهبط الليل على مهل.

"هل أنت مستعد للتحليق؟".

"لا أعرف".

"ولكنك لا تأبه بشيء؟".

"الجنون يطل في عيني الآن عن قرب كما لم يفعل من قبل".

"وساتومي.. ".

"أعتقد أنها تحبني.. ولكني مغادر".

يصمت العجوز طويلًا ولأول مرة أراه مطمئنًا. لم يكن يتوقع هذا فيما يبدو. أنا أيضًا لم أكن أحسب حساب هذا. يعدل قبعته ويمضي مغادرًا مدينتي. يتلاشى وسط صخب العالم.

***

تقف اليابانية وتطل في عيني متحدية. لم يعد يفصلنا إلا طرفة عين عن الحقيقة! تنسدل خصلة شعر سـوداء على جبينها وتحمر بشرتها الصافية. تكتم غضبها ويتردد صوتها في جوف غابة الأشجار البعيدة. تصلي صلاتها الأخيرة الآن. عينها تتلو الحقيقة الأخيرة التي لا شـك فيها. تسقط دمعة صامتة انفلتت من وراء أسوار من الكبرياء والقوة والأسرار الدفينة. ألمس كفها بيدي فتلامسـني بأصابعها الناعمة لمسة أخيرة وهي تلتفت راحلة. يذهب ملمس أصابعها وخلفه شعرها الأسود المنسدل على ظهرها وطرف فستانها الحرير يرفل ملاحقًا خطواتها الواسعة.

بحر الأشجار، غابته صامتة، لا يتحرك فيها ساكن ولا تمر فيها الريح. إنه الصمت النهائي الذي يزوره الباحثون عن الرمق الأخير، عن الملاذ الصامت. ساتومي نجت من بحر الأشجار لتتحول هي إلى بحر أشجار، والعجوز قال لي إن بحر الأشجار متاهة لا خروج منها ولكني خرجت.

في اللحظة التي أطلت فيها متحدية، أدركت ساتومي الحقيقة. عرفت أني سأضرب بكل شيء عرض الحائط. المجنون سيحرق كل مراكب العودة.

أيقنت بأني ماضٍ فيما عزمت عليه. لو أرادت ساتومي أن توقفني لفعلت ولكنها لم تفعل. اليابانية الجميلة كانت تحبني أكثر بكثير مما ظننت. تطوى الصفحة عن آخر الأحرف في كتاب قديم سيدفن وستبقى اليابانية واقفة على أبواب مدينة جيون القديمة، بنظرة تائهة وحزينة.

***

في ليلتي هذه وأنا على وشك مقابلة كل عواقب الأشياء التي أخافها، لا أشعر بالخوف. المجنون سيكون عليه أن يمحو أثره للأبد. لن يكون المجنون موجودًا في هذا العالم بعد تلك اللحظة. تاريخه كله سيحترق ولن يخلف في تلك المدينة سوى ضباب سيمر مع كل من مروا!

دبي، هل حانت لحظة الوداع؟ لو فعلتها، سنفترق للأبد. لن أعود المجنون الذي ربيتِه ولن تعودي مدينتي! كيف لنا أن نترك بعضنا بعضًا بعد كل ما فعلناه؟ من أعلى أطل عليك، طرقاتك التي ذهبت منها وعدت لها وسألتني وسألتها، غرباؤك الذين عرفوني ولم يعرفوني، بناياتك التي أحاطتني لتخبرني ذات يوم بأن كل شيء عليه أن يمر من هنا. اللعنة! سنفترق! سنقتسم اسمينا. ستأخذين أنت الغنائم وسآخذ أنا الشخص الذي تركته عندك قبل سنوات بعيدة، سآخذ نفسي ثانية.

تلوح أضواء الفجر في المدى وأتحرك من مكاني ببطء. رأسي ثقيل وكأني نمت في زمن وصحوت في زمن آخر. أتطلع في الساعة، تبقى لي خمس عشرة ساعة قبل أن يقوم أحدهم بإطلاع قائمة من أكبر العملاء بأن هناك شبحين. كل الأحجار ستتزحزح، كل أبواب الدهاليز الخلفية ستُفتح، كل مردة العوالم السفلية سيضربون في الأرض بحثًا عن أي دليل لنسفه ومحو

أثره. سيمحون أسماء ووثائق وأرقامًا وكل شيء له علاقة بالأمر. هؤلاء قادرون على محو سنوات من التاريخ ووضع ما يريدون مكانها، قادرون على محو اقتصاديات وبنوك وشركات عملاقة وأنظمة سياسية في غضون أيام. هؤلاء هم أشرار العالم الحقيقيون، هؤلاء هم المال، تريليوناته القذرة، وحراسه من زبانية الجحيم.

ألقي نظرة الوداع على مكتب مايرز بواجهته الزجاجية الكبيرة المطلة على ناطحات سحاب دبي. يوصد الباب على المجنون وأرحل وحدي. دعهم يفتشون عن شبح لم يعد موجودًا. الوداع!

***

في الطريق إلى ما لا تعرفه ستقابل نفسك عدة مرات وفي كل مرة ستشك في الأمر وستسأل، هل هذا ممكن؟ لا تقلق! هذا الأمر لا يعدو سوى مجموعة منتقاة من الصدف الحتمية. كلما رأيت نفسك عابرًا من أمامك فلا تتعجب. إن رأيت نفسك تقف مع شخص لم تعرفه من قبل فلا تسأل من يكون! كل هذا بديهي وكل من لا تعرفهم كانوا يعرفونك، أنت فقط كنت تطل على الأشياء من نافذة في زمن مختلف.

في الطريق إلى القاهرة من دبي، ها أنا أقابل نفسي من جديد وأسأل نفسي من أنا ومن كنت؟ أكثر من اثني عشر عامًا مرت على نفس الشخص منذ أن بدأ رحلته من القاهرة إلى دبي. ساعتي تشير الآن إلى الحادية عشر صباحًا وقد بدأت الطائرة في الهبوط. لم يتبق من المهلة سوى سبع ساعات ولا أحد يتخيل أن المجنون كان ذاهبًا إلى آخر مكان على الأرض يتوقعه أحد، بيته القديم.

أقف طويلًا تحت الشرفة وأطل لأعلى. الآن أواجه أكثر شخص أخشاه في العالم. وجهًا لوجه مع كل ما كنت أهرب منه، أنا في مواجهة نفسي. لا أخشـى العالم ولكني أخشى من الشاب الذي غادر هذا البيت ذات يوم. هو الذي غادر بشنطة سـفر صغيرة ومائة دولار اقترضها أبوه. اثنا عشر عامًـا من عمـر المجنون الذي لم يأبه بشيء قط، تبخرت الآن أمام نفســه. الآن يخاف ولأول مرة.

أقف أمام الباب الخشبي القديم وأتجمد مكاني. الآن الزمن يتلاشى، يذهب من حيث أتى ويترك مكانه صمتًا لا يحتمل.

عندمـا ماتت أمي وأنا صغير قال أبي "عندما يموت من تحبه، لا يعود الوقت يحتسب.. يصبح شيئًا آخر". لم يعرف الرجل كيف كبرنا ولا كيف تغيرنا؟ هل سيعرفني بعد كل تلك السنوات؟

ينفتح الباب دون أن أدقه. يتطلع أناس كثيرون في البيت، إخوتي وأطفال صغار ربما أولادهم، يتحدثون من حولي دون أن يقولوا شيئًا أفهمه، عيونهم تخبئ معاني أصعب من أعرفها. يخرج العجوز من غرفته ويطل عليَّ طويلًا. لا يقول سوى شيء واحد. إنه سؤاله المعتاد الذي كان دومًا يسألني إياه عند عودتي للبيت كل مساء. يقوله بنفس النبرة ونفس الطريقة.

"يحيى.. أين كنت؟".

"كنت أتطلع نحو الصقر يا أبي".

يتطلع نحو الفراغ لبرهة بعينين أصابهما الوهن وعقل شريد. يهز رأسه ويهمس لنفسه بها لا نسمعه.

41

دولاب الأسرار الكامن في مكتب قابع وراء شـطآن الكاريبي، تحت يدي. ملايين الأوراق التي سجلت تحويلات مالية وبيانات شركات وهمية وأسرار ثروات رجال السياسـة وبارونات المال، كلها كانت بحوزتي ولا أحد يعرف. هذا هو السر الذي لم يتوقع الدكتور أبدًا. أنه سيظهر لقد كان يعرف منذ اللحظة الأولى أن كل ما يدور في ماسـكو وسـاركيس يسجله جاسوس صغير زرعناه. كل بريد إلكتروني كانا يتلقيانه أو يرسلانه، ينسخ ويحفظ في أرشـيف لا يعرف مكانه سوى الشياطين. الخوادم الإلكترونية لمكتب ماسـكو وسـاركيس تم الحصول عليها في العام 2008 من شركة أمريكية في سياتل تقدم خدمات تكنولوجيا المعلومات. لكن فيما يبدو أن شركة التكنولوجيا تلك قبل شـهرين، كانت قد استحوذت عليها شركة أوف شور لها مكتب في دبلن بأيرلندا. هذا المكتب كان المدير المسئول عنه

يسمى "جون دو". هذا هو دائمًا ما يكون الاسم الافتراضي المستخدم في عالم الإنترنت. إنه اسم خيالي.

هذا العالم الساذج لم يعرف أن جون دو سجل كل ما يقولونه واحتفظ بكل وثيقة أرسلوها. صديقي الدكتور كان يعرف أننا نحتاج لمعرفة كل ما يدور في ماسكو وساركيس ولكنه لم يعرف أن المجنون كان يفكر في شيء آخر.

عندما علمت كاميليا بأن لدي وثائق المراسلات التي تحوي أسماء العملاء والشركات التي أقمناها لهم عبر مكتب ماسكو وساركيس، قررت أن تساومني على تسليمها وإن رفضت ستقوم بتسليمي أنا شخصيًا. منحتني فرصة أربع وعشرين ساعة وصلتني عبر شخص مجهول بعد أن اختفت كاميليا قرابة أربعة أشهر ولم أعثر لها على أثر يذكر. هذا التهديد كان حقيقيًا ومرعبًا. لو سلمت للصحافة كل المعلومات التي لديها عني أنا والدكتور سنكون في واجهة أبواب الجحيم رأسًا. سنصبح أشهر من برج خليفة على سطح هذا الكوكب، ستطاردنا زبانية الأرض وسيُمحي من الوجود كل حجر نستطيع أن نختبئ تحته.

أنا الذي أخبرت كاميليا بما لا يعرفه أحد، أنا من منحتها طرف الخيط وكشفت لها خبايا عالمي. هل كنت أعرف أنها ستطالبني بأن أخرج للعالم وثائقه القذرة؟ نعم! أنا من حركت كاميليا في هذا الاتجاه، أنا من منحتها هـذا الدور لتلعبه وصدقت أن هي من ستشـفي المجنون. للأسـف لقد صدقني الجميـع في كل شيء، كلهم صدقوني. هـل تعرف لماذا صدقوني كلهـم؟ لأن المجانين يسـبقون العاقلين بخطوات دائـمًا. لأن المجانين لا يخافون ما يخشاه العاقلون.

شكرًا كاميليا لأنكِ حاولتِ ولكن الحقيقة أن خطتي التي لا يعلمها أحد كانت من صنعي. أنا الذي وضعت المسدس في يدك ولكن أنا الذي يضغط على الزناد ليقتل المجنون.

في لندن وقبل سنوات، أمسك الدكتور برقبتي واجَزم بأن لدي دائمًا خطة ما لا يعرفها أحد. يعرفني جيدًا هذا الرجل.

لقد كنت مستعدًا بجون دو لهذا اليوم.

***

هناك أشياء عن هذا العالم يجب أن تفهمها وهناك أشياء لا يجب أن تحاول فهمها. أغرب الأشياء في هذا العالم تأتي عندما لا تتطلع نحوها، تأتي عندما لا تكون أنت في الانتظار.

أصلُ مطار فرانكفورت قادمًا من القاهرة وأبتاع لاب توب، أقوم بتشفير كل اتصالاته قبل أن أراسل المجهول الذي أرسل لي رسالة التهديد.

- هل أنت مستعد؟
- لقد أتيت في ميعادك.. لقد تبقت لديك عشر دقائق فقط من المهلة.
- هل أنت مستعد الآن؟
- بكل تأكيد.
- سأراسل أحد أصدقائكم بعد دقيقتين.
- وكيف سنتأكد.
- أخبر الجميلة أن المجنون يطلب منها أن تفتح جهازها الشخصي.

لحظات من الصمت قبل أن أشاهد الآي بي الخاص بجهازه على شاشتي في وضع التفاعل. يعاود المجهول مراسلتي:

- نحن مستعدون:

- على شاشتها ستشاهدون عملية نقل الوثائق.. لا يجب عليكم التدخل في الأمر.. أنتم هنا فقط لتشاهدوا.. أكرر.. لا يجب عليكم التدخل في المحادثة التي ستتم أو كشف هويتكم.

- أوكيه، يمكنك أن تبدأ.

تنفتح المحادثة الرئيسية ويبدأ جون دو في التحدث إلى شخص موثوق تم البحث عنه قبل شهور طويلة والتأكد من أنه المناسب للمهمة.

- أنا جون دو.. هل أنت مهتم بمعلومات.

- بكل تأكيد.. كيف سنحصل عليها؟

- سأمنحك إياها ولكن بشرطين. هذه المعلومات خطيرة للغاية وهناك خطر على حياتي لو تم كشف هويتي. لقد قضيت وقتًا طويلًا أفكر في الأمر. عليك أن تعرف أننا لن نتقابل أبدًا وأن كل المراسلات ستكون مشفرة.

- كيف سنبدأ؟

- سأرسل لك ملفًّا مشفرًا وكودًا للتواصل. حجم البيانات المرسلة سيكون ضخمًا.

- أنا مستعد.

- سنبدأ بعد قليل..

- هناك شيء أخير.. الاختيار سيكون ملكك فيما تود أن تكشفه من تلك الملفات وفي التوقيت الذي تريده.

"بينج!".

تم إرسال ملف أول كتجربة مبدئية، ثم توالى التحميل. ملايين من الملفات تم إرسالها. يضغط المجنون الزناد وينتحر بينما يخرج أشهر وأكبر تسريب للوثائق في العصر الحديث.

42

هذا العالم لا يعترف سوى بالناجين.

- وحيد القرن كان يمشي ومعه حلوى القطن.
- لا لا.. فيل على زجاجة.
- هل هذا هو؟
- خوكت عند البامبو الحزين.
- حساء التوم يام إذًا.
- ساعتها لا تفكر.
- ما العلامة؟
- عندما يغادر المجنون المدينة.

تغادر الطائرة مطار فرانكفورت إلى وجهتها والعالم يتحرك ويدور

حول نفسه. بعد أشهر قليلة تتلقى كاميليا الرسالة الأولى على عنوانها القديم مكتوب فيها:

"بيت وحيد وسقف من القرميد قديم ورمادي.. يقف عند لسان البحر حيث سمكة القد.. هناك ستعزف الموسيقى".

تغادر كاميليا غرفتها التي عادت إليها في انتظار أي علامة تقودها لشيء ما. حزمت حقائبها وكل مقتنياتها وتركت الغرفة لمالكها وهي على يقين أنها لن تعود من رحلتها أبدًا. لقد ذهبت خلف ما كانت تبحث عنه.

تتهادى الحافلة التي اتجهت شمالًا لساعات عند البلدة الصغيرة التي تهب عليها نسائم البحر. تقرأ اللافتة الخشبية وتطلع نحو البلدة الصيفية التي لا يزورها أحد في الخريف، اللافتة تقول: منطقة رأس القد. عليها أن تقطع المسافة الطويلة نحو البحر، متشحة بمعطف ووشاح وعينين تفتشان عن أمل مسافر بلا عنوان، تغوص بقدميها في تلال الرمال وحشائش الشاطئ اليابسة. عند نهاية السياج ووراء الكثبان، يطل البيت ذو القرميد الرمادي، وحيدًا يتطلع نحو أمواج الشاطئ العالية. تطرق الباب ولا مجيب، تقف طويلًا ولا أحد في البيت الوحيد وتهب الرياح الباردة مع هدير الموج فتنفتح نافذة لتدخل منها. تفتش في المكان فلا تجد سوى أثاث قديم ومكتبة ومدفأة ولكنها تبتسم عندما تجد جرامافون قديمًا وأسطوانة وفي غلاف الأسطوانة تجد ورقة مطوية. تشعل المدفأة وتجلس بالقرب من الجرامافون تسمتع مرارًا ومرارًا للموسيقى التي عزفت أغنية تحبها:

"جاء رجل إلى هذا البرج القديم ذات يوم

كان يبدو له مثل كتاب قرأه مرة واحدة
رفع رأسه ورأى سيدة شابة
وهنا قالت له السيدة:

Moi je m'appelle mademoiselle Noir
Et comme vous pouvez le voir
Je ne souris, ni ris, ni vis.

تغيب كاميليا في الموسيقى وتبتسم وهي تطل في الرسالة مجددًا:

"تعبر النوراس المحيط لتمسح المتوسط الواسع وتفتش عن قباب بيضاء.. هناك على الأزرق أبواب ونوافذ زرقاء وبيت أزرق ذو باحة وشرفة تطل على البحر".

تعبر كاميليا المحيط وتقلها سيارة لبلدة بو سعيد في تونس، تفتش عن الفيلا المسماة بالزرقاء عبر الطرقات الضيقة حتى تجدها، يقابلها رجل عجوز عند المدخل فتسأله بالفرنسية عن رجل أتى إلى هنا وتصفه له، يبتسم العجوز وينبئها بأنه رحل قبل بضعة أيام. تسكن كاميليا في البيت الأزرق وتمضي الأيام تتطلع نحو البحر وحمام الباحة في انتظار رسالة جديدة.

تقول الصحف إن التسريبات تضرب في كل مكان، رجال سياسة يستقيلون ورجال أعمال يتاورون. تبتسم كاميليا وتترك نفسها للبحر، هنا جلس وغسل نفسه برياح المتوسط، هنا تنفس نفس الهواء وسكنت أشباحه رويدًا رويدًا، هكذا تقول لنفسها حتى يأتيها البريد ذات صباح برسالة جديدة:

"فتشي في التلال التي تزرع الشاي هناك ستجدين زهرة الأروندينا".

تعبر كاميليا العالم شرقًا قبل أن تهبط بمطار كوالامبور، تستقل تاكسي إلى مرتفعات كاميرون التي تبعد ثلاث ساعات إلى الشمال. تصل إلى فندق صغير وأنيق يدعى "أروندينا" بينما يهبط ضباب التلال مع المساء. تدلف كاميليا إلى الفندق وتسأل الفتاة عن رجل جاء إلى هنا وتعطيها مواصفاته فتبتسم فتاة الاستقبال وتخبرها بأنه أقام لأسبوعين وغادر، لكنه ترك لها رسالة. تقضي كاميليا الصباح تسير بين تلال الشاي الأخضر وتفكر، إنه يجوب العالم، يفتش عن الأماكن البعيدة والهادئة، إنه يواصل الهرب من المدينة، إنه يشفي نفسه رويدًا رويدًا ويريد أن يريني كل تلك الأماكن التي يجوبها.

تطل على الغابة من نافذة الفندق الصغير الهادئ وتقرأ الرسالة:

"هـو يـان.. عند المدينـة القديمة وعلى ضفة النهـر.. مقهى 11 عند الساعة 11 مساء".

ها هو المجنون أخيرًا يضرب موعدًا معي، تقول كاميليا لنفسها ولا تنام منتظرة لقاء عند ضفة النهر، هناك في جهة أخرى.

***

من الغريب أننا نتحدث كثيرًا عما لا نعنيه بينما نخاف أن نتكلم عما نعنيه. من الغريب أن نخشى العالم عندما يكون علينا ألا نخشى سوى أنفسنا.

تجلس كاميليا على ضفة النهر في المساء، تتطلع نحو أضواء مصابيح الضفة الأخرى وطرقات بدأت تخلو في انتظاري. أقترب من المقهى وأتوقف متأملًا تلك الجميلة التي أخرجت مني المجنون. يا إلهي، نظرة واحدة نحوها وأشفى من كل ما كان وما سيكون.

43

العام 2017 يقارب على النهاية وأنا أهبط من القارب على شاطئ جزيرة خو كت ذي المياه الفيروزية. يقترب الدكتور من المرفأ ويتلقف مرساة القارب مني وهو ماد بوزه قبل أن يقول:

"أنا جائع.. لماذا تأخرت؟".

"هل عاد مايو بعد؟".

"نعم أتى من طوكيو منذ أسبوع وذهب هناك ليفتش في الغابة عن أخشاب".

"جيد.. إن السعر يصعد بسرعة الصاروخ".

"كم؟".

"بلغ 19 ألف دولار للبيتكوين الواحد.. قد يهبط كثيرًا بعد هذا.. ولكن لا يهم.. لقد فرض نفسه على الجميع الآن".

"يا إلهي.. مايو أيها العبقري.. لقد فعلتها وضحكت على العالم كله!".

نضحك أنا والدكتور ونبدأ في الرقص.

دبي - بانكوك - سنغافورة - القاهرة

2018

المؤلف في سطور

ياسر أحمد

- كاتب وروائي مصري.
- حاصل على جائزة ساويرس الثقافية في العام 2012 كأفضل رواية فرع الكتاب الشباب.
- تمت ترجمة أجزاء من روايته الأولى "عكس الاتجاه" إلى الفرنسية ونشرها عبر المركز الثقافي الفرنسي.

صدر له:

- رواية "عكس الاتجاه" الصادرة عن دار العين، القاهرة، 2011.
- رواية "جمهورية القرد الأحمر" عن المركز الثقافي العربي، بيروت، 2014.

الموقع الإلكتروني:

www.yasserahmad.me



يحدث أحيانًا أن تصادف أشياء في ذاكرتك لا تمر، أشياء تتراص كأنها أشجار صامتة في مستنقع غائم يسكنه الضباب. لا ريح تمر ولا طائر يزور ولا غرباء يأتون، أنت وحدك ولا أحد سواك، تطل عليك الآن كل الأشياء التي أخفيتها حتى عن نفسك، ها هي تراودك الآن، تواجهك، تكاشفك وتعزلك عن نفسك، حتى وأنت حاضر بكل ما فيك.

كيف مضيت هكذا في عالم ساتومي؟ لقد دخلت الغابة اليابانية ذات يوم وخرجت من الناحية الأخرى مسكونًا بالأساطير. لقد وضعتني ساتومي في قلب الطوفان الذي أرادته. أشارت إلى هناك وقالت هذا هو مكانك. ساتومي من البداية شخصت حالتي وأيقنت أني مجنون، أما كاميليا فتحاول الآن أن تشفيني. لقد سلمتني إلى حقيقتي ووضعتني أمام النهاية، وجهًا لوجه.

لم أندم على شيء، الموت على يد كاميليا شيء جميل. لم يتبق من المهلة سوى ساعات قليلة، هنا وقبل سنوات وفي هذا المبنى، وقعت الأوراق أنا والدكتور بلا اكتراث، هنا نصب لنا الشريكان الفخ، هنا بدأت علاقتي بمجنون دبي الذي يحكون عنه، من هنا بدأت رحلتي في العالم الخفي، العالم الكبير للأموال العابرة للمحيطات، للمليارات التي تتحول إلى سراب، والسراب الذي يتحول إلى حقائق يستحيل تغييرها.

